

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أنور الحمدي

المؤامرة على الإسلام

دار الاعتصام

معالم تاریخ الاسلام

املؤا امرت علی الاسلام

أنور اجندی

دار الاعتصام

آفاق البحث

٥	١٠	مقدخل إلى البحث
١٦	١١	المراجع
١٧	١٢	الباب الأول : إحياء الفكر المعتزل
١٩	١٣	(١) الإسلام والاعتزال
٢٨	١٤	(٢) الإسلام والعقالية
٤٧	١٥	الباب الثاني : إحياء الفكر الصوفي الفلسفي
٤٩	١٦	(أولاً) الإسلام والتصوف الفلسفي
٥٤	١٧	(١) وحدة الوجود
٥٩	١٨	(٢) الحلول والإتحاد
٦٦	١٩	(٣) الاغتراف
٨١	٢٠	الباب الثالث : إحياء الفكر الفلسفي
٨٣	٢١	(١) الفلسفة
١٠٧	٢٢	الباب الرابع : إحياء الفكر الشرقي والباطني
١٠٩	٢٣	(١) المؤامرة الباطنية
١٢٤	٢٤	(٢) الدعوة الشعبية
١٢٨	٢٥	(٣) إخوان الصفا
١٣٨	٢٦	(٤) إعادة الباطنية
١٦٩	٢٧	الباب الخامس : اتجاهات الهدامة
١٧١	٢٨	(١) مؤامرة القرامطة
١٨٥	٢٩	الباب السادس : تجديد الفكر البشري
١٨٧	٣٠	(١) تجديد الفكر البشري

صفحة					
١٩٢	(٢) الاسرائيليات الجديدة
١٩٧	(٣) كيف حطم الاسلام قيد الاغريقية
٢٠٦	(٤) الفلسفة المكتوبة باللغة العربية
٢١٤	(٥) تجديد التفسير الباطني للقرآن
٢١٨	(٦) صاحب الزوج والحلاج
٢٢٤	(٧) القوميون
٢٢٨	(٨) الوحي والتبوة
٢٣٣	(٩) المؤامرة اليهودية للقضاء على أصالة الاسلام
٢٣٩	الباب السابع : الفرق الضالة
٢٤١	القاديانية والبهائية
٢٦١	الباب الثامن : الأصالة الإسلامية في مواجهة المؤامرة على الإسلام
٢٦٣	من الفرق إلى السنة الجامعة
٢٧١	من التبعية إلى الأصالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل إلى البحث

لأن من أخطر التحديات التي تواجه الإسلام في العصر الحديث . ابتعاد الفكر الوثني والغنوصي القديم الذي كان معروفاً قبل ظهور الإسلام في البيئات الشرقية والغربية على السواء والذي تشكل في صورة جامعة من بعد في الأغلطونية الحديثة وهو الفكر البشري الذي ظهر باسم الغنوصية في الشرق وباسم الفلسفة اليونانية في الغرب .

هذا الفكر الذي يجمع بين الوثنية والإلحاد والتعدد والإشراق والمادية والذي عرفه العرب والمسلمون بعد ترجمة الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية وظهر أثره في الفلسفة وعلم الكلام والتصوف والذوات الباطنية المنجدة عن المجوسية وغيرها . ولقد كان هذا للفكر البشري الفلسفي القائم على نظريتين أساسيتين :

١ - نظرية العقل والحس في الفكر اليوناني الهليني .

٢ - نظرية الحدس والإشراق في الفكر الغنوصي الشرقي .

وقد قامت بعد ترجمة الفلسفات معركة ضارية في مواجهة النظريات والأفكار والذوات التي طرحتها الفلسفات الوافدة في أفق الفكر الإسلامي أتت بهزيمة الفلسفة والاعتزال والتصوف الفلسفي والفكر الباطني ونالقت الأضالة الإسلامية التي تتمثل في مفهوم أهل السنة والجماعة . هذا المفهوم الذي استطاع استيعاب الإيجابيات المستمدة من مفهوم التوحيد في مختلف

هذه الدعوات ، كما استطاع نفى وإسقاط السلبات التي تتناقى مع جوهر الإسلام وعقيدته السمحة . وبذلك أخذ الفكر الإسلامى من جديد طابعه الأصيل المستمد من جهره الأول ومنابعه الأساسية .

وذلك بعد أن امتدت هذه المعركة قرنين من الزمان وشارك في تصحيح مفاهيمها وتحريرها من الزيف والشبهات والأخطاء والتحديات عدد كبير من أعلام الفكر الإسلامى في مقدمتهم : الأئمة الشافعى وأحمد بن حنبل والأشعرى وابن حزم والغزالى وابن تيمية وابن القيم ، هذه القضية يمكن أن نطلق عليها مؤامرة « احتواء الإسلام » .

واليوم تحاول حركة التغريب والغزو الثقافى إثارة هذه المعركة على نحو أشد عنفاً وفتح باب الفتنة من جديد فى محاولة لطرح هذه الشبهات والشكوك التى سبق النظر فيها ودحضها والرد عليها مرة أخرى فى أفق الفكر الإسلامى وبأسلوب مصرى وفى أغلفة من الفكر الغربى الحديث وفى أطر من أساليب التفسير المادى للتاريخ وفى تصور خادع يستل حقائق ونقاطاً ومواقف من بين أحشاء هذه المعركة فى محاولة لتصوير هذه الحلقات على أنها صبور مستقلة يمكن عرضها والنظر فيها بذاتها بصرف النظر عن عصرها وأربابها بالمشكلة كلها التى تعددت جوانبها وتشعبت فروعها .

ومن ذلك مثلاً ما يثار اليوم حول « الاعتزال » ومحاولة تصويره على أنه منهج إسلامى للفكر يمكن اقتطاعه عن قضية احتواء الإسلام بكل أبعادها ، وعرضه على أنه منهج عقلانى يتفق مع روح العصر ويصلح لأن يكون منطلقاً لتبوير الحضارة الحديثة وأوضاع المجتمعات البشرية اليوم .

والواقع أن هذا التصور لبس سلبى ولا صحيحاً . ذلك لأن الاعتزال لا يمثل الإسلام بنظرية الجامعة المتكاملة التى تربط بين العقل والوجدان فضلاً عن أن الاعتزال نفسه لم يكن فى داخل قضية « احتواء الإسلام » .

إلا خطاً من خيوط كثيرة متشابكة ، وأنه عجز في إبان استعماله عن أن يكون تعبيراً صادقاً بل لقد كان استعماله خطراً كبيراً أحدث أسوأ الأثر في مضادة الرأي والنأى عن الحق .

كذلك فإن ما تحاول حركة التنقيب إثارتته من إعادة كتابة تاريخ القراءات والزنج وغيرهم من الحركات الضالة وتصويرها على أنها ثورات عدل وحرية ، هو من تلك المحاولات الماكرة التي يراد بها إلقاء هذه السموم في أفق الفكر الإسلامى الحديث مرة أخرى كذلك فإن ما تحاول به بعض الجهات من إعادة نشر كتب التصوف الفلسفى وأخبار الحلاج وابن عربى وطبع كتب الوجود والحلول والاتحاد هو واحد من هذه المحاولات في ذلك الاتجاه وحنة الخطير .

وتتعدد المحاولات اليوم في هذا الاتجاه بحيث تخاق صورة جديدة لاحتواء الإسلام أو المؤامرة عليه تتمثل في تجديد صفحات هذا الركام المضارب الذى عجز عن تحقيق شيئاً ما في الماضى وسيكون اليوم أعجز عن أن يحقق شيئاً إلا إثارة الشبهات في نفوس الأجيال الجديدة التي هى بطبيعة ثقافتها وتعليمها عاجزة عن أن تعرف أبعاد المؤامرة المراد فرضها عليهم أو تبين الخلفية التي تخفى من وراءها المؤامرة .

ذلك لأن الحديث عن الاعتزال والتصوف والفلسفة ، هو في مفهوم الإسلام حديث يتكامل مع مختلف وحدات الفكر الإسلامى ، بحيث لا يكون حين يستقل بنفسه ممثلاً للإسلام الجامع ، وأن كل وحدة من هذه الوحدات لا تفهم فهماً صحيحاً إلا في إطار التكامل ولا تؤدى دورها إلا بالارتباط في توازن وموازنة مع الوحدات الأخرى ، وأن النظرة العقلية ، أو النظرة الروحية ، لا تنبسط طبعاً وحدها أن تقدم تصوراً إسلامياً صحيحاً وأن كل هذه

الوحدات لابد أن تتلاقى في تكامل لتمثل منظوراً جامعاً متكاملًا للإسلام
يعظم العقل والروح ، والدين والعلم ، والدنيا والآخرة .

وإذا كنا نجد اليوم من يحاول أن يتصور أن التراث الإسلامى يمكن
تجزئته وأن خير ما فيه هو عقلانية المعتزلة ، فإن ذلك يختلف مع النظرة
الإسلامية الجامعة التى لا ترى هذا الرأى .

وفى نفس الوقت لا ترى استعلاء الدعوة إلى روحانية التصوف كتنطلق
إلى مفهوم الإسلام وأن هذه المحاولات التى تعلى من شأن هذا الجانب أو
ذلك ليست سليمة ولا صحيحة وأن محاولات زكى نجيب محمود بتعسين
كتابات الاعتزال وابن الراوندى ، أو كتابات عبد الرحمن بدوى بإعلاء
التصوف الفلسفى والحلول والاتحاد ، أو كتابات محمود إسماعيل بإعلاء
حركات القرامطة والزنج أو اتجاه الدكتور محمود الشبلى إلى إحياء ابن عربى ،
أو طه حسين إلى إحياء إخوان الصفا أو ماسينيون وصلاح عبد الصبور إلى
إحياء الخلاج أو عباس صالح وعبد الرحمن النعناعوى وطه حسين إلى تفسير
تاريخ إحياء الإسلام تفسيراً ماركسياً أو مادياً كل هذه المحاولات تدخل فى
نطاق المؤامرة على الإسلام أو إعادة محاولة احتواء الإسلام ، الأولى .
كذلك فإن الدعوات القاديانية والبهائية والروحانية الحديثة هى أيضاً
محاولات جديدة على نفس الطريق .

(٢)

أهداف المؤامرة على الإسلام

لا ريب أن الهدف من المؤامرة على الإسلام فى القرن الرابع عشر
الهجرى هو نفس هدف محاولة احتواء الإسلام فى القرن الرابع الهجرى :
النيل من الإسلام وإسقاط دولة وإذابتها فى أتون الأمية ، ونجد اليوم من وراء

المحاولة الجديدة قوى خطيرة أبرزها ، الاستثمار الغربى ، الذى يحمل خصومه الدين ومطمح السيطرة الاقتصادية ، والذى يضم فى أحشائه كراهية ضخمة للإسلام الذى غزا أوربا تحت لواء الدولة العثمانية ، والصهيونية ، الطامحة فى العودة إلى السيطرة على فلسطين وبيت المقدس باسم الوعد الذى ريفته التورافوق ، الشيوعية ، التى تحاول السيطرة على الأمم باسم مقاومة الأديان وهدم الأخلاق ، هذه القوى الثلاث الكبرى .

أما تلك الفرق والدعوات والمذاهب القديمة فإنها قد ماتت منذ وقت بعيد ، ولكن انبعاثها وإحيائها هو هدف يرى إلى تمزيق جبهة الإسلام حتى يحال بينها وبين الوحدة العاملة القادرة على مواجهة الغزو الخارجى . وإقامة دولة الإسلام بالحق فى أرض الله .

وهى واحدة من سلسلة المؤامرة المتصلة على الإسلام عن طريق خصومه وقد مقدمتهم اليهودية التلودية ، التى تستهدف السيطرة الاقتصادية والاجتماعية على أرض الإسلام وأهله ، وهى تحقيق للغرض الذى دعا إليه لويس التاسع بهزيمة المسلمين فى فكرهم ودينهم وعقائدهم قبل هزيمتهم فى أرضهم وبلادهم .

إن هدف المؤامرة هو إحياء الفكر البشرى القديم قبل الإسلام ، والمتجدد إبان حملة الترجمة مرة أخرى فى قوالب جديدة وأساليب عصرية لنفس الهدف : لنفس الغاية ، غاية الهدم والخرابة والتمزيق لجبهة الإسلام التى لم يبق على وجه الأرض غيرها فى طريق التوحيد الصحيح .

وتحاول حركة المؤامرة على الإسلام اليوم أن تقبض نفس الأساليب القديمة فى تهاجم أصول القيم الإسلامية وجذور المفاهيم الأساسية ، وتهاجم تاريخ الإسلام واللغة العربية وتدعو إلى تفسيح القيم الخلقية الإسلامية بالدعوة

إلى إضاعة الجيوب والمجاهرة بالخلاعة والانحراف الجنسي ، وهو نفس الأسلوب الذي اتخذته حركة احتواء الإسلام ، كان ذلك في الماضي لحساب المجوسية الفارسية ولتمكين القرامطة والباطنية من السيطرة على الدولة الإسلامية واليوم يجرى نفس المخطط لحساب الصهيونية والاستعمار الشيوعية .

وكما كان أخطر سلاح في الحركة القديمة هو وضع الكتب الزائفة المليئة بالمغالطات والأباطيل والانحراف في ثوب براق ، وتزييف كتب التاريخ حتى يجهل أبناء الأمة الإسلامية أمجادهم وبطولاتهم وكذلك إعداد طبقة من أتباعهم الخافدين وتزويدهم بالمعلومات العامة من شتى المعارف والفنون دون أن يتعمقوا فيها حيث تؤدي بهم هذه التربية الناقصة إلى القصور والقدرة على الجدل والمراوغة والانتقال من موضوع إلى موضوع مباغلة في خداع الناس وإيهامهم بالعلم الفياض فإن الحركة الجديدة تتبع نفس الأسلوب .

وهذا الذي يصف به السيد أبو الحسن الندوي حركة احتواء الإسلام القديمة مجده واضحاً تماماً في محاولة المؤامرة على الإسلام الجديدة ومجد أسماء بعضها تقوم على هذا المخطط يمكن حصرهم وتسميتهم ، على نحو أبو نواس وبشار وحامد مجرد وحامد الراوية وحامد بن الزبرقان في الشعر وإن الراوندي والحلاج والسهروردى وابن عربي والرازي ، ونجد تماماً عصبة الزنادقة وعصبة المجان ودعاة الانحلال الاجتماعي ، ومهاجمة القيم الأخلاقية ، ونجد أمثال حماد الذي هاجم أهل التقوى والورع فسيهم بأقذع ألوان السباب والافتراء عليهم بما ليس فيهم مستهدفاً لنشر الفساد بين أبناء المجتمع وعجريه الشباب على السخرية من أهل العلم والحق ، كذلك نجد أمثال حماد مجرد الذي عرف بالتهتك واللسان البذي ، وأمثال

أبي نواس في الترويع للشر وبحث الناس عليه نحت سنان التظاهر بالعصرية
والنقد .

(٣)

بدأ الاستشراق ، هذا المخطط في إحياء الفكر اليوناني والعنوصي
كجزء من خطته في إثارة الشبهات والسموم في وجه للفكر الاسلامي في
العصر الحديث وكما حوله لتمزيق جبهة هذا الفكر والحيلولة دون التقاء المسلمين
على وحدة الفكر الجامعة التي وصل إليها الفكر الاسلامي ، بعد مؤامرة
الاحتواء التي قام بها الفكر الباطني والفارسي والمجوسي إبان حركة الترجمة ،
إن هدف الاستشراق هو تمزيق جبهة الوحدة الفكرية الاسلامية الجامعة .
ذلك المعروف أن هذه المذاهب والفرق قد تلاشت وانتهت منذ وقت بعيد ،
ولم يبق من وجوه الخلاف إلا ما يعرف بالخلاف في الفروع بين السنة
والشيعة . وإن كان هذا الخلاف أيضاً مستحدث قد عمل الاستعمار والقوى
الغربية على تعميقه بإثارة الصراع بين الدولة الصفوية الفارسية والدولة
التركية العثمانية منذ القرن التاسع الهجري (الرابع عشر الميلادي) .

ولا ريب أن خطة إحياء الفكر المعتزلي والصفوي والفلسفي والباطني
وتجديده وإثارة قضايا التي قام بها الاستشراق كانت بهدف التأثير على
صميم فكرة التوحيد الأساسية التي هي عقيدة المسلمين جميعاً بعد أن صفيت
تختلف القرى التي كانت تحمل اسم الاعتزال أو التصوف الفلسفي أو الفلسفة
وانصهارها في مفهومه الأصالة السني الجامع ، ومحاولة إحياء هذه القضايا
بشبهاتها وشكوكها وزوجات نظرها المستمدة من الفكر الفارسي الغنوصي
القديم ، أو الفكر اليوناني الهليني أو الفكر النهلستيني المتمثل في الاطلاونية
الحديثة ، كل هذا لا يراد به إلا طرغ هذه الشبهات والشكوك والسموم
مرة أخرى في أفق الفكر الاسلامي فتتقسم الآراء حوله ، وبذلك يبعد

المسلمون عن وحدة فكرهم الجامعة المتكاملة ، ويعودون مرة أخرى إلى صراع الفرق فضلاً عما يؤديه طرح هذه المفاهيم من إفساد لجوهر الاسلام نفسه .

ويجري مع هذا الاتجاه القول المضلل بأن مفهوم السنة والجماعة ليس إلا واحداً من جملة مفاهيم يمثلها الاسلام ، منها مفهوم الاعتزال ، والفلسفة ، والتصوف ، والباطنية مع أن هذا ليس صحيحاً ، فلم تكن هذه الفرق بمثابة فرق متصارعة مع المفهوم الجامع ، ولكنها كانت وسيلة إليه وعندما قام هذا المفهوم كانت قد سقطت كل هذه الفرق تماماً ، فقد استطاع المفهوم الجامع أن يصير في داخله كل حسنات الفرق ، فجعل للارادة الحرة أهميتها وهو خير ما في الاعتزال وجعل النظر المنطقية أسلوباً في الفهم وهو خير ما في الفلسفة وجعل الاخلاقية طابعاً أساسياً للقيم وهو خير ما في التصوف وجعل حب آل البيت جزءاً من هويته الايمان وهو خير ما في الباطنية وهكذا .

ولذلك فإنه من الزيف المسموم القول بأن في الاسلام هذه مفاهيم يمثلها جميعاً والواقع أن الاسلام مفهوم جامع متكامل والنظرة العقلية جزء منه والنظرة الوجدانية جزء منه وإن واحدة منهما لا تستطيع بحال أن تكون ممثلة للاسلام بمفردها . وأن فكرة العقلانية أو فكرة الوجدانية لا يمكن أن تقدم منفصلة عن سياقها التاريخي وعن حركة المواجهة التي قام بها الفكر الاسلامي إزاء حركة احتواء الاسلام كلها التي قامت من بعد .

وقد وجدت المؤامرة على الاسلام مواجهة صحيحة وصريحة وقوية في العصر الحديث كما حدث ذلك كلما تعرضت مفاهيم الإسلام لمحاولة الاحتواء والتزييف ، وعندما بدأت هذه الحركة في القرن الثاني للهجرة وجدت معارضة بعيدة المدى كشفت زيفها وشبهاتها وأبانت عن أنها حركة

معادية للإسلام ناعثة من وجهة أجنبية خارجة ضد الإسلام والعرب ترمي إلى هدم الدولة الإسلامية بهدم قيم الإسلام ومفاهيمه ، وقد تبين أن هناك معاهدات وعقود بين دولة الروم وبين هذه القوى كما تبين أن بين الحلاج والقرامطة معاهدة مكتوبة وكشف الباحثون أن الذين وضعوا أسس الباطنية والصعوية كانوا من أولاد الجوس وكانوا مائنين إلى دين أسلافهم . وقد أنكرت السنة التي حملت لواء الأصالة الإسلامية : التقبيل والتعطيل وكشفت عن أن المشبهة وثنية والمعتلين ملحدين ، كما حرص أهل السنة على تعقب الملحدين والكشف عنهم ، كذلك عارضت الأصالة الإسلامية إخضاع الإسلام للجدل العقلي ودعت إلى الأخذ من المعين الأول والمنبع الأصيل : القرآن والسنة ورفضت إلهيات أرسطو لأن مقدماتها ونتائجها كانت معارضة أشد التعارض مع مفهوم التوحيد الخالص .

وقد وقف الشافعي والأشعري والغزالي وابن تيمية بصدق أمام أطراف المحاولة وكشفوا قضايا الفلاسفة وعلماء الكلام والمعتزلة والصوفية الفاسفة والباطنية وفرروا أن [منهاج السنة : الأصالة الإسلامية] ليس واحداً من هذه بل هو غيرها وعلينا اليوم أن نقف نفس الموقف وأن نحرر مفاهيم الإسلام من الأسرائيليات القديمة والجديدة ، ومن الوثنيات المتجددة التي يقومون على بعضها اليوم ، ولكي يكون منطلق الفهم واضحاً ، فإن علينا أن نفهم أساساً :

أولاً : أن الإسلام في كلمة هو التوحيد الذي يرتفع عن الوثنيات والتثنية والتعدد وعن الشرك جميعاً وتختلف كلمة إسلام عن كلمة دين في المعنى العام المتعارف فالإسلام دين من حيث أنه يرسم العلاقة بين الله والإنسان وهو منهج حياة من حيث أنه يرسم أيضاً وفي تكامل العلاقة بين الفرد والمجتمع وقد أوجد الإسلام صيغة من التكامل والتوازن والإلتقاء بين الفردية

والجماعية على نحو يحقق ذاتية الفرد وحرية وكرامته ويحقق في نفس الوقت الحماية المجتمع ودور الفرد في بنائه وهو نظام متكامل فيه جذور كل الدعوات التي عرفها العصر من حرية وعدالة ومساواة وتكافل اجتماعي وله في هذه القيم مفهومه الواضح السمع الخاص به .

ويسمح الإسلام بالاجتهاد والتأويل على نحو لا يتعدى أصوله العامة وقيمه الأساسية التي أقرها ، وكذلك يؤمن الإسلام بالثبات أصلاً وبالحرارة في إطار الثبات ولا يقول الإسلام بالتطور المطلق .

ويفرق الإسلام بين العلم والفلسفة ، فالعلم هو ما أثبتته التجارب الحسية والمعملية نبوتاً قاطعاً ، وهذا يقره الإسلام أما الفلسفة فهي أمور نظرية يراها المفكرون في بيئة من البيئات وعصر من العصور فهي ليست ثابتة ولا عامة ، كذلك يفرق الإسلام بين الثقافة والمعرفة فالمعرفة عامة كالعلم وهي ملك البشرية كلها أما الثقافة فهي خاصة وهي مرتبطة بمزاج الأمة ووجدانها وليست قابلة لأن تنقل من تربة إلى تربة .

ولقد كان الفكر الإسلامي مفتوحاً دوماً يقبل كل ما يراه صالحاً من ثقافات وفكر الأمم في الشرق والغرب ولكنه كان دوماً قادراً على امتلاك ذاته الخاصة وحرصاً على ألا يفسدها أي فكر زائف أو وافد .

ثانياً : إن الإسلام بمفهومه في التوحيد الخاص قد أنفك فكراً له طابعه الاستقلالي الكامل ومفاهيمه الواضحة الخاصة التي لا يمكن أن تختلط بمفاهيم الفلسفات وخاصة فيما يتصل بالوثنيات الإغريقية ومفاهيم الفلسفات الهندية والفارسية القديمة ، ولذلك رفض الإسلام العقلانية المطلقة ومفاهيم وحدة الوجود والحلول والاتحاد .

ولقد غاض الإسلام معر كة ضخمة في مواجهة الفلسفة اليونانية والوثنيات المجوسية والفارسية والهندية ومواجهة ما دس عليه من إسمانيات وقاوم بذلك كل مبداء منهج متكامل يستمد من القرآن نفسه في مجال تحقيق الحديث

(البخارى ومسلم) وبناء الفقه (مالك والشافعى وأبو حنيفة وابن حنبل) وفي تصحيح المفاهيم (ابن حزم والغزالي وابن تيمية).

وقد خرج الفكر الإسلامى من هذه المعركة الضخمة بمفهوم أهل السنة ناصدا صافيا مبرأ من الوثنية ومفاهيم الفلسفات الهلينية والمجوسية .

وبعد فإن هذه المراجعة الواسعة نستطيع أن تعطى الباحث المسلم أرحمة صلبة لمعرفة النصوص المختلفة وردها إلى التيارات المتعددة التي صاوت العقيدة الإسلامية في حلقات التأمر المتصل على الإسلام خلال العصور وتكشف عن كيف واجهتها الأصالة الإسلامية وردت زيفها وأبانت فساد منطلقاتها ثم كيف استطاعت الأصالة الإسلامية دائماً أن تلمس جوهر العقيدة وأن تمسك بأصولها وأن ترد كل زيف تجرى المحاولة إلى إضافته إليها. ولقد كان من أبرز هذه المفاهيم أن كل قيم الفكر الإسلامى الأساسية قد تقررت قبل أن يختار عليه السلام الرفيق الأعلى ، جماعة بين العقل والوجدان والدين والعلم والروح والمادة لا انفصال لأحدهما ولا استعلاء ، وأن هذه الأصول هي التي تقررت يوم أنزل على الرسول من ربه [اليوم اكملت لكم دينكم] فلم تتغير ولم تجر أى إضافة إليها من بعد وكل ما جاء من بعد فهو تفسير أو تفصيل وفق قاعدة الاجتهاد التي أقرها الإسلام لمواجهة تغير العصور والبيئات .

وللإسلام قانونه الذى لا يتخلف أبداً هو أنه يتجدد من داخله ويتحرر من أعماقه، فعندما تهب رياح الجود أو الجبرية أو الانحراف لتجذب جوهر مفهومه فإنه يكون قادراً إلى (التماس المنابع) ولقد كان لابن حزم والغزالي والاشعرى وابن تيمية وابن القيم مواقف مشهودة في الكشف عن هذه الشبهات وتلك الانتهامات وتصحيح المفاهيم والتماس مفهوم الإسلام الأصيل .

واليوم نمر بنفس المعركة مرة أخرى ولكن في شراسة الخصوم وعنهم وقد تجددت قوى علماء الإسلام ومفكره للرد على هذه الشبهات ومواجهتها والادالة منها .
واقه من وراء القصد .

المراجع

الامام الغزالي	:	فضائح الباطنية
العافسي	:	كتاب الام
ابن تيمية	:	الرد على المنطقيين
ابو الحسن الاشعري	:	مقالات الاسلاميين
ابن حزم	:	الفصل في الملل والنحل
ابن الجوزي	:	تليس إبليس
الشهرستاني	:	الملل والنحل
أبو الحسن الندوي	:	رجال الدعوة والفكر
الحسن بن عثمان الحياط	:	الاتصار والرد على ابن الراوندي
مصطفى عبد الرزاق	:	مقدمة في الفلسفة الاسلامية
مصطفى صبري	:	موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين
الدكتور علي سامي النشار	:	مناهج البحث عند مفكرى الاسلام
الدكتور محمود قاسم	:	الحلاج والباطنية
أنور الجندي	:	القيم الأساسية للفكر الاسلامي
	:	المساجلات والمعارك الأدبية
	:	الشبهات والأخطاء القرائية

الباب الأول

إحياء الفكر المعتزلي

(١)

الإسلام والاعتزال

اهتم الاستشران ودعاة التغريب وللغزو الثقافي بالاعتزال والمعتزلة :
ووصفهم المستشرقون وكتاب التغريب بأنهم اغارقة الاسلام الحقيقيين ،
أو المعتزلة العظام ونعم هؤلاء وهؤلاء على الخليفة المتوكل الذي أعاد السنة
ووصفوا هذه العودة بأنها ردة في حرية الفكر التي أقامها دعاة الاعتزال
وقال الأستاذ أحمد أمين أن المسلمين ضعفوا وتهافوا لأنهم لم يأخذوا
بأسلوب المعتزلة العقلاني وأطلق على جمال الدين ومحمد عبده المعتزلة الجدد
وكتب عن هذا كثيرون والى الدكتور البير نعمى نادر كقابا عن المعتزلة
فقال أن أبرز مفاهيمهم وجود العقل وقيام الأخلاق على العقل دون الوحي ،
وقد أعلن المعتزلة سلطان العقل وأبدوه في مختلف المسائل .

ولما كان الفكر الغربي هو الصورة التي يستمد منها المستشرقون ودعاة
التغريب مثلهم الأهل فهم يحاولون أن يجعلوا من الدعوة العقلانية مثلاً
وشبهها بما جرى في عصر النهضة حين جرى الفصل بين الدين والعلم واستعلاء
شأن العقلانية واللا دينية والعلمانية والمادية وغيرها . غير ناظرين إلى الفوارق
البعيدة بين التفسيرات الغربية للمسيحية التي حالت بين الغرب وبين اقتحام
مجالات العلم والانغماس في نصوص الجود والرهانية والتقليد والجبرية
والفرق واضح تماماً بين ذلك وبين الإسلام الذي حمل منهج المعرفة الجامع
المتكامل الذي يستمد طرائفه ومناهجه من جماع العقل والروح ، ويرى
أن بينهما ترابطاً عضوياً لا سبيل إلى فصله .

ولعل الاستشران والتغريب يجدان في الاعتزال والمعتزلة منهجاً وافداً
له صلته بالفكر اليوناني فهم يعلمون من شأنه لهذا الغرض ويرون مدى أثره

في إفساد الفكر الإسلامى وبلبلة الآراء والحيولة دون قيام الوحدة الجامعة
فهم يجددونه ليكون له في العصر الحديث نفس الأثر القديم .
ولاريب أن فكرة الاعتزال جاءت أصلاً من الفلاسفة الهندية واليونانية
والفكر الوثني القديم وأنها حين حاولت في أول الأمر أنه تواجه المتكاملين
في الديانات السالفة للإسلام استطاعت أن تحقق نتائج طيبة ولكنها حين
استقلت بنفسها وخرجت عن حدودها لتقيم لنفسها منهجاً عقلياً خالصاً
يستعمل على مفهوم الإسلام الجامع فإنها قد انحرفت انحرفاً شديداً
وأخطأت خطأ بالغاً .

ولكن الفكر الإسلامى لم يلبث أن تجاوزها إلى منهجه الأصيل بما أعلنه
الأشعري حيث أدار أسلوب العقل في دائرة الوحي .
وكان أخطر ما أحدثه المعتزلة هو الاتصال بالحكم وفرض مذهبهم
الفكرى على الدولة وبذلك دخلت المعتزلة تلك المرحلة الخطرة التي عرضت
مئات العلماء والباحثين إلى الامتحان والعقوبة خلال حكم ثلاثة من الخلفاء
هم المأمون والمعتصم والواثق وخلال ستة عشر عاماً كانت من أقسى أعوام
مصادرة الرأي وكان ذلك في أمر لا يدخل في إطار الشريعة الإسلامية ولا في
الأصول العامة للإسلام ولكن في أمر محدث لم تعرفه السنة الصحيحة وما
دخل إلى الفكر اليوناني والوثني القديم وكان موقف الإمام ابن حنبل في ذلك
الأمر غاية في القوة في معارضة هذا الخطر حتى انكشف فساد وعاد الأمر
إلى الأصالة التي هي المذهب الجامع .

وكانت هذه هي نهاية المعتزلة : وهي نهاية مظلمة .

(٢)

ما هو خطأ المعتزلة في مجال الفكر :

اعتمدت المعتزلة العقل ولو خالف ظاهر النقل وبذلك خرجوا عن
مفهوم السنة الأصيل .

فقد كان القرآن هو المصدر الأصيل يرجع إليه الباحثون وإلى السنة لا يصدر عن غيره ولا يطمئنون إلى سواه ، كانوا يفهمون العقائد من آيات الكتاب وهي بينات ، وما اشتبه عليهم حاولوا فهمه بأساليب اللغة وهم بها خبراء وإن تعذر عليهم توقفوا وفوضوا الأمور لله .

غير أن المعتزلة خالفوا هذا المنهج وحكموا العقل في كل شيء وجعلوه أساساً يحكمهم .

٢ - كذلك فإن انشغال المعتزلة بمنازلة خصومهم من الزنادقة والروافض والثنوية وغيرهم قد أخذوا بطرق محاريبهم في القتال وكانوا يعتدون بأسلحتهم وهكذا قاتلهم تأثروا بخصومهم وأخذوا عنهم بعض مناهجهم قال ينجريج : من نازل عدواً عظيماً في معركة فهو مربوط به مقيد بشروط القتال وتقلب أحواله ويلزمه أن يلاحق عدوه في حركاته وسكناته وقيامه وقعوده وربما تؤثر فيه روح العدو وحيله وكذلك الأمر في معركة الأفكار .

لقد مضى المعتزلة في الاستدلال العقلي فإذا بدأ خلاف في ظاهر النصوص بين رأى يقرونه ورأى لا يقرونه أولوا النص بما لا يخرج من معناه ولا يخالف رأيهم . وإن هذه الطريقة أساسها الثقة بالعقل وللعقل نزوات وغيره . ولذلك وقعوا في كثير من الهفوات دفعتهم إليها زهتهم العقلية .

٣ - وقد وجد كثيرون من خصوم الإسلام في المعتزلة عشاً يفرخون فيه بمفاسدهم وأرائهم ويطلقون من قنواته دسهم على الإسلام والمسلمين .

(٣)

ولعل أخطر مقولاتهم : هي قولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة

الحسن والقبیح ولو لم يرد بهذا شرع ، يقول السيد أبو الحسن الندوى :
أسرف المعتزلة في تقدير سلطان العقل وحدود العلم الإنساني وقد لاحظ
الدكتور أحمد أمين وكان من المنتصرين لهم - أن نقطة الضعف فيهم أنهم
أسرفوا في تمجيد العقل والإيمان بقوته واقتداره يقول : (رأى المعتزلة أن
العقل البشري قد منح من السلطة والسعة ما يمكنه من إقامة البرهان حتى على
ما يمتنع بالله تعالى) فلا حدود للعقل إلا براهينه .

والرأى : إن العقل أضعف من ذلك وإن استطاعته محدودة بادراك
ما يتعلق بشأنه هو ، وأنه منح القدرة على أن يدرك البرهان على وجود الله
والنبوة العامة ونبوة محمد خاصة ولم يمنح القدرة على معرفة كنهه الله تعالى
وصفاته .

ولعل نقطة الضعف فيهم أنهم أفرطوا في قياس الغائب على الشاهد ،
أعنى في قياس الله على الإنسان وإخضاع الله تعالى لقوانين العالم ، وقد
الزموا الله مثلاً بالعدل كما يتصوره الإنسان وكما هو نظام دنيوى وقامهم أن
معنى العدل - حق في الدنيا - معنى نسبي يتغير تصوره بتغير الزمان ونحن
في أعمالنا ننظر إلى عالمنا والله تعالى رب العالمين ينظر في أعماله إلى جميع
العوالم ، ما نعلم منها وما لا نعلم ، فكيف نخضع الله لتصور العدل الذى
نتصوره نحن في عالمنا .

ويقول : هذا هو خطل الاتجاه العقلى الذى تزعمه المعتزلة والذى كان
يقوم على تمجيد العقل وتأليهه ، وإخضاع النظام الدينى بما فيه من عقائد
وحقائق له ، ولا ريب أن قياس الغائب على الشاهد لإتجاه خمار على الإسلام
وفتح باب فساد عظيم في المجتمع الإسلامى ، لقد كان هذا تحويلاً للدين
البسيط العملى الذى جاء به الرسول ، والذى يستسيغه العقل البشرى بكل
سهولة إلى فلسفة نظرية دقيقة يعجز عن فهمها وأساغتها كثير من العقلاء
والأذكياء ، ولقد كان هذا تنمية للعقل على حساب العاطفة والوجدان ،

وإضافاً للإيمان وإثارة للشبهات والشكوك وعدم الثقة بما يقوله النبي مما يعجز العقل عن تمثيله وإقامة الدليل على وجوده . وفي العالم ما أكثر ما يعجز العقل عن تمثيله وإقامة الدليل عليه .

(٤)

وعيب المعتزلة وقصورهم - إنهم نقلوا الدين إلى مجموعة من القضايا العقلية والبراهين المنطقية ، والدين خلافت الفلسفة ، وقد وصل بهم تقدير العقل إلى ما يشبه تقدير العقل وكان استخدامهم المنهج الجدلي من شأنه أنه يعطى براعة في التفكير ولكنه يظل مع ذلك عاجزاً عن إعطاء الروح ما يرضيها ويسد حاجتها قال براعة التفكير كان هناك ضعف الروح ، والمخالفة في تقدير العقل والقصور في جانب العاطفة ، كانت البراعة الفائقة في الكلام قد أعطتهم القدرة على الكلام في الشيء وحده والمعنى وتقيضه بمستوى واحد من الجوردة والقدرة على الاتقاع كما يقول الدكتور عبد الحكيم بلبع .

(٥)

ولا ريب أن المعتزلة قد عجزوا عن إدراك تكامل الإسلام الجامع بين العقل والوجدان . ودفهم تمصهم العقل على تجاهل الجانب الآخر للمنهج المعرفة الإسلامي ، بل إنهم ذهبوا إلى حد اضطهادهم لكل من يرى غير رأيهم ، وفضلوا عن عجز العقل وحده عن إعطاء حاجات النفس البشرية الجامعة : حاجة الوجدان وعالم الغيب من قدرات حسبه وعاطفية مختلفة . يصور هذا المعنى الدكتور حماد الدين خليل حين يقول :

تظاهرات المعتزلة الفكرية وتشبههم المنهج بالعقل واضطهادهم المذهبي لكل معارض وهم يقرأون ما يزيد عن سبعمائة وخمسين موضعاً في القرآن دعوة لأعمال الفكر البشري في كل صغيرة وكبيرة وفي تحريك العقل لحل

المشاكل الأساسية وهم يقرءون في نفس الوقت أن العقل وحده ليس بقادر على إنتقال الإنسان من مصلاته الكونية وإليه لو كان قادرا حقا لانتفت الحاجة أساساً لحجى الأدبان وإزال القرآن ويدركون من خلال عشرات المواضيع القرآنية إن وراء العالم يمكن للعقل أن يتعامل مع عالم غيبى شامل بعيد ، خفى محيط يلبه عن قدرات الإنسان الحسية والعقلية ، وإمكانه حق واقع ، كما أن علم الطبيعة للمدوس حق واقع وإن الإيمان به والتسليم بوجوده يحجى بمثابة حجر الزاوية لكل إيمان حقيقى كامل . لقد قدم كتاب أهم المسألة بطرفها فلماذا نجتج ونغادر الموقع الوسط الشامل المتوازن .

وأخطر ما يقف منه المعترلة موقف التحدى هو : الوحى :

والوحى ظاهرة غيبية صرفه لا تخضع للاختبار العقل وإن مجرد التسليم بسائر ما ينبثق عنها من وقائع غيبية موثقة وردت في سيرة الرسول .

ولاريب إن كل هذا مما تنفع به حركة التفرير والغزو الثقافى فى توهين اكتمال الرسالة الإسلامية وتعدد جوانبها وعمق صلتها بعالم الغيب ، ودفع الناس إلى الظواهر والمحسوسات والمعتقدات وحدها . وبذلك يتفاد ذلك التكامل الجامع من المادة والروح والعقل والقلب وبذلك يفقد الإسلام ميزته الربانية الأساسية ويصبح شبيها بالنحل والمذاهب البشرية . وهم لا يقفون عند هذا الحد بل إنهم يعملون فى المجال الآخر : مجال التصوف العقلى ووحدة الوجود وشحطات الروح والخيال ويفنونها حتى ينشئوا لها أنصاراً وأعواناً وبذلك يفقد هؤلاء أيضاً تكامل الإسلام الجامع بين العقل والروح وبذلك يصبحوا مهومين منطلقين وراء الأهواء . ولا أنزيب العالم قبل الإسلام كان منقسماً إلى فريقين : العقلانيين اليونانيين ومن تابعهم وفريق الغنوصيين الاشرافيين وكل منهما يرى أن أسلوبه هو وحده الأسلوب الصحيح وكلاهما مضلل فى وجهة نظره ، انشطارى فى نظراته

وعقيدته ، ثم تجدد هذا الأسلوب مرة أخرى بعد ترجمة الفلسفات ويتجدد اليوم مرة أخرى ليزق جبهة المؤمنين بالله إلى عقلايين ووجدانيين ولكي يقيم بين هؤلاء وهؤلاء تلك الحواجز العالية والأسوار الضخمة حتى يتصارعوا ويتمزقوا ولا يصلوا إلى حقيقة الإسلام التي تحمل المسلم عقلائياً ووجدانياً في نفس الوقت ، استمداداً من جرهر مفهوم القرآن والسنة وبمبدأ عن المخالفة والانحراف ، وتحرراً من الفكر الوافد الوثني والمجوسي والمادى الذى هو من صنع العقل البشرى .

(٦)

أخطر ما عمد إليه المعتزلة فتح باب التأويل على مصراعيه فأولوا الدليل العقلى إذا لم يتفق مع ما انتهوا إليه في بحشم العقل واستشهدوا به إذا كان يتفق مع القيمة الفعلية التي خلصوا إليها ، بل أنكروا الدليل العقلى في مجال الأحاديث النبوية إذا لم يجدوا وسيلة لإلا ذلك فهم أمام العقل يسلبون ما وافق منها البرهان العقلى ويؤولون ما خالفه فالعقل هو الحكم فى الآيات المتشابهات وهو الحكم على الحديث ليقرر عدم صحته إذا لم يوافق العقل ويحتمل التأويل .

وقد تطرق المعتزلة فى التأويل العقلى حتى بلغوا نفي الصفات الإلهية ومنها وصلوا إلى التعطيل وهذا أسوأ ما وصل إليه غلو المعتزلة ، وكان أخطر قرارهم : ترجيح المعقول على المتقول ، وما المتقول إلا السنة التي هي من عطاء الرسول إلى جوار الوحي : وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك حين قال :

« أوتيت هذا الكتاب ومثله معه » : يعنى السنة .

وهكذا نجد المعتزلة حين اتخذوا البراعة فى الكلام هدفأ ، يتكلمون فى

الشيء وضده بمستوى واحد من الجودة والقدرة على الإقناع قد خرجوا عن الحق الذي كانوا يدعون إليه وقد شغلهم هذا حتى تفننوا في استعمال الالفاظ على نحو يؤيد دعواهم مهما بلغ ذلك من الخروج عن الحق الاصيل وكأنهم خرجوا من مدافعة خطر الرد على الزنادقة وكيدهم إلى ابتداع كيد أشد خطراً هو الانحراف إلى الجانب العقلي وحده وترك مفهوم الإسلام الكامل الجامع وقد وصل ذلك إلى محاولة إخضاع العقائد الإسلامية للعقل وكان هذا اتجاهاً شديداً للخطر على الإسلام وانحرافاً به عن مفهومه الجامع بين العقل والقلب .

(٧)

نعم فكرة خلق القرآن من أخطر ما وصل إليه المعتزلة من استعمال عقل وهمي في نفس الوقت مقتلهم ومصدر هزيمتهم الساحقة . وذلك بعد أن استعملوا بالاتصال بالحكام وأعلنوا التعصب الحاد وصمموا على أن يكون الاهتزال هو التعبير الوحيد عن عقيدة الإسلام وتبنى قاضي القضاة أحمد بن أبي داود هذا الاتجاه ، وجعلوا مدخلهم إلى هذا النفوذ والسيادة مسألة خلق القرآن فقد وصف المعتزلة القرآن بالخلق اختلافاً ومعارضة مع ما يراه مفهوم الإسلام الاصيل من أن القرآن هو كلام الله لا نقول بخلق ولا غير مخلوق . وإن إثارة هذه المسألة بدعة لم يقل بها النبي صلى الله عليه وسلم ولا صحابته ، وأنه إذا تردد في العامة أن القرآن مخلوق لم يبق في نفوسهم له أي تقديس أو إجلال ولكن المعتزلة أصرروا على فرض هذه النظرية الوافدة فحملوا عليها الناس وحمل لواء الدعوة إلى ذلك المأمون ودعا إليه علماء المسلمين قبل وفاته بأربعة أشهر عام ٢١٨ وأمر بإقصاء كل من لا يدين بذلك وعقد الامتحان للعلماء فكان ذلك بمثابة محنة كبرى ، وأوصى خلقه بالاستمرار على هذا الاتجاه حين وفاته .

وقد عجز كثير من العلماء والمشايع والفقهاء عن مواجهة هذا الموقف والإعلان بطلانه ماعدا أربعة هم أحمد بن حنبل وسجادة والقواريري ومحمد ابن نوح وقد شدوا في الحديد ، واستسلم سجادة واجاب القواريري بقصد يوم ومات محمد بن نوح وهو عائد إلى بغداد وتركزت المقاومة في إمام السنة : أحمد بن حنبل وكان قول المعتزلة بخناق القرآن : إنكار لقدسينه وعظمته وجلاله ، وذلك هو مقتلهم وغاية انحرافهم عن منهج الأصالة الإسلامية الجامع بعد أن أعلنوا أن العقل وحده وبدون مساعدة الشرع قادر على معرفة الله تبارك وتعالى وليس هذا منهج الإسلام ولا طبيعة الأمور . ولو كانت للعقل هذه القدرة لما أرسل الله تبارك وتعالى الرسل .

وقد استمرت فتنة خلق القرآن سبعة عشر عاماً : خلال أيام المأمون والمعتصم والواثق ذاق فيها المسلمون كل ألوان التعدي والاضطهاد ، ووقف الإمام أحمد بن حنبل موقف المعارضة والصمود طوال هذه الفترة ، واحتمل التعذيب والاضطهاد والسجن وكان لشبانه وشجاعته وإخلاصه أكبر الأثر في انطفاء فتنة خلق القرآن فقد وقف صامداً كالسد المنيع في وجه تيار ذلك الخطر الفلسفي اليوناني الذي حاول احتواء عقيدة الإسلام وتوهين أصالة المفهوم الإسلامي الجامع ، والذي عرض كل مقومات الدين من توحيد ووحى ونبوة للخطر وقد اعترف المؤرخون والباحثون جميعاً بأن صمود ابن حنبل ومقاومته وهو الأعزل قد سدت ثلثة الخطر الذي كاد أن يحدث في الإسلام .

ويشير المؤرخون إلى أن أحمد بن أبي داؤود هو أول من افتتح الكلام مع الخلفاء في أمر خلق القرآن وكان المأمون بطبيعته مؤملاً لهذا الاتجاه . وعنهما بدأت مرحلة التعصب الشديد والمبالغة في محاكمة علماء المسلمين

وإرغامهم على قبول هذه الشبهة التي تتعارض مع المفهوم الأصيل للإسلام الذي يتحدد في أن كلام الله تعالى قديم وغير مخلوق ، وقد نقل المأمون الخلاف إلى دائرة السلطان فتدخل بوصفه الخليفة وأكره الناس على التسليم بوجهة نظر مستحدثة في أمر من أمور الدين ، وقد ارتكب بسبب هذه الفكرة من التشكيل بالعلماء ما يحمل المأمون وزره ووزر من أتى بعده ومن شاركه فيما يدعو إليه . وقد مضى المعتصم على خطة المأمون فولى منصب قاضي القضاة إلى أحمد بن أبي داؤود ، وكان تأثيره على المعتصم أكبر . ولذلك سار المعتصم في الفتنة وترك لابن أبي داؤود مناظرة المخالفين والتهجم عليهم واتهامهم بالمروق من الدين ، فقتل من قتل ، وضرب الإمام أحمد بن حنبل من أجل ذلك بالسياط وذلك عام ٢٢٠ هـ .

وفي عام ٢٢٧ جاء المثوكل وجاء معه اعتدال الميزان نحو الأصالة الإسلامية وقد انتقم الله تبارك وتعالى من ابن أبي داؤود انتقاماً شديداً مرأ فاصيب بالفالج وصودرت ضياعه وأخذ من ولده مالا بلغ مائة ألف وعشرين ألف دينار وجوهر أربعمائة ألفا وعادت السنة إلى مكانها وعاش أحمد بن حنبل بعد عزل بن أبي داؤود أربعة أعوام ونيف يشاهد تقلص نفوذ وثرأ وغنى هؤلاء الذين طمعوا في أمر الدنيا وخرجوا عن جوهر الدين .

ومنذ أيام الوائق تبين أن المؤامرة فاسدة ، وأن الدعوة باطلة ، وقد جوبه الوائق بحجة دامغة ردعت ابن أبي داود وأعادت للخليفة صوابه وصرفته عن متابعة الأذى بسببها ذلك أنه جرى بشيخ إلى الوائق من أذنة أوردت النجوم الزاهرة قصته وكتبها صاحب كتاب أحمد بن حنبل والمحنة (ولتر مالفيل باتون) على نحو رائع قال : قال الوائق لابن أبي داود : ناظره .

فسال الشيخ ابن أبي داود إذا كان مذهبه في خلق القرآن أصلاً ضرورياً من أصول الإيمان على المؤمنين أن يقرأوا به فأجاب ابن أبي داود نعم . ثم

استفسر الشيخ قائلا : بأن الله بعد أن بعث الله محمداً ليبلغ الوحى إلى قومه هل كنتم شيئاً من الرسالة التى أبلغها فأقر ابن أبى داود بأن محمداً أبلغ الرسالة كاملة ، وعند ذلك سأله مناظرة عما إذا كان النبى وحى أساس الوحى الذى كان واسطة فى إبلاغه قد دعا الناس إلى الإقرار بأن القرآن مخلوق فلم يجر ابن أبى داود جواباً فطلب الشيخ من الوائى أن يعد هذه نقطة فى جانبها تؤيد دعواه فأقر الوائى على هذه النقطة . وكانت الخطوة الثانية من النقاش مبنية على الاستشهاد بالآية الكريمة : اليوم أكملت لكم دينكم ، وذلك حين سأل الشيخ عن الكيفية التى يبرز بها استحداث فكرة مذهبية جديدة بعد نزول هذه الآية ولم يحاول ابن أبى داود أن يدافع عن موقفه إزاء هذا المحرم وطلب الشيخ أن تعد هذه نقطة ثانية فى تأييد حجته وسلم الوائى بذلك .

وفى الخطوة الثالثة من المناظرة سأل الشيخ عما إذا كان النبى قد عرف النحلة المذهبية التى دعى الناس إليها فى ذلك الوقت وعما إذا كان النبى قد دعا إلى الإقرار بها فزعم ابن أبى داود أنه قد علمها ، ولكن لم يجب عما إذا كان النبى قد أزم المسلمين بالإيمان بها أم لا . وهنا طلب الشيخ أن تعد هذه نقطة ثالثة وأخيرة فى تأييد حجته .

بيد أن الشيخ لم يقف عند هذا الحد بل احتج قائلاً بأنه إذا سلمنا بأن محمداً علم بهذه النحلة كما علمها الخلفاء الأوائل وأنهم جميعاً قد رضوا بالامتناع عن حمل الناس على الإقرار بأن القرآن مخلوق فهل من الواجب على داعية جديد أن يشتد فى القيام بما لم يقوموا به ولو فرضنا أن النبى والخلفاء قد آمنوا بما يؤمن به هذا الداعية أمّا كان الأجدر به أن يحتفظ بهذه العقيدة على أنها مجرد رأى شخصى من أرائه الخاصة كما صنع السلف بدلاً من أن يزعموا الناس على الإقرار بها مثلما عمد هو نفسه إلى ذلك ، ا . هـ .

كانت عبارة الشيخ الآذنى : لم لم يدعو الناس كما دعوتهم أنت ، أما بسعيك ما وسعهم ، فدخل الوائى المنزل فاستلقى على ظهره وجعل يكرر

قول الشيخ على نفسه : « أما وسعك ما وضعهم ، ثم أطلق الشيخ وأعطاه أربعمائة دينار وردة إلى بلاده ورفض الشيخ أن يقبل ما وجهه إياه .

وهذا هو نفس ما قاله أحمد بن حنبل حين قال :

« القرآن كلام الله لا نقول مخلوق ولا غير مخلوق .

لقد كان المعتزلة أمرع الفرق إلى السقوط في أتون الفلسفة اليونانية ومحاولة صبغها بصبغة إسلامية ، وقد فشلوا في ذلك فشلا ذريعا إذ حلوا النصوص ما لا تحتمل ، وبالفوا في ذلك مبالغة شديدة ، وكانوا أول من تحطم بها ومنهم خرجت كل الفرق التي وصفت بأنها منحرفة عن مفهوم الاصاله الاسلاميه والتوحيد الحق (لتابع جهم بن صفوان وضرار ابن عمرو وبشر المريسي وغيرهم من اتباع الباطنية والمواقرة المجوسية) .

(٨)

وقف أحمد بن حنبل في وجه المحنة ثمانية عشر عاماً . سجنه الملعون وحاكمه الوائقي وكان مكثه في السجن منذ أخذ إلى أن ضرب وخلى عنه ثمانية وعشرين شهراً وكانت صيحاته المدوية في محاكماته : « أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله أقول به : القرآن كلام الله لا أقول مخلوق ، وقد أقام صابراً محتسباً أمام المأمون والمعتصم والوائقي ووقف سداً منيعاً — كما يقول العلامة أبو الحسن الندوي — في اتجاه هذه الأمة إلى التفكير الفلسفي المنهول الذي لو سيطر على هذه الأمة لانقطعت صلتها بالتدريج عن منابع الدين الأولى وعن النبوة المحمدية وانضمت للفلسفات وأصبحت عرضة الآراء والقياسات ولا تاهرت السياسة على الدين انتصاراً مؤبداً وسلبت حرية الرأي والعقيدة ، وهكذا كانت وقفة أحمد ابن حنبل أول ضربه معول في هذا الإحتواء الخطير الذي اشتد في طمع المعتزلة في السلطان وغالوا في نشر مذهبهم وتعمصوا ضد كل من لا يوافق نحلتهن حتى لقد بلغ بهم انه لما حدثت فاداة

بين الأسرى المسلمين والأسرى الروم في زمن الوائق ٢٣١ ارسل أحمد بن
أبي رداؤد رسولا من قبله يمتحن الأسرى في ميولهم الدينية حتى لا يفندى
منهم من يقول بخلق القرآن .

وقد أنكر المسلمون بعامة هذه البدعة ووقف مسلوب الأندلس في وجهها
معارضين . وكانت وقفة ابن حنبل إزاء هذا التيار الجارف المتمكن بقوة
السلطة أمانا للنفس الإسلامية بما حفظ لها مفهوم الإسلام الأصيل دون
تحريف يخرجها عن جوهره وبساطته ومتابعه الأولى ولم يبال في سبيل ذلك
التعذيب والضرب فأخذ وسحب ثم خلع ، وشدت يديه فخلعتا ولم يزل يتوجع
منهما حتى مات وكان الجلادون يتناوبونه بالضرب ، وكانوا يناقشونه كل
ليلة وهو لا يتزعزع عن موقفه . فإذا انصرف أضيف إليه قيد جديد
يوضع في قدمه . قال : لقد ذهب عقلي مرارا فكان إذا رفع عني الضرب
رجعت إلى نفسي وكان يقول : يارب إن كنت على حق فلا تبد عورتي .

وقال له تلميذه المروزي : ولا تقتلوا أنفسكم ، قال يامروزي : اخرج
وانظر فخرجت إلى رحبة دار الخليفة فرأيت خاق لا يحصيه إلا الله تعالى
والصنف في أيديهم والأقلام والمحابر فقال لهم المروزي أى شيء تعملون :
قالوا : سننتظر ما يقول أحد فنكتبه فدخل إلى أحمد فأخبره فقال : يامروزي :
أصل هؤلاء كلهم ، إذا سكك العالم تقيه ، والجاهل يجهل فن يظهر الحق .

قال ابراهيم بن مصعب الشرطى : مارأيت أحدا أثبت من أحمد بن حنبل
قلبا يوم المحنة .

فلما انكشفت المحنة ، عفا عن كل من أساء إليه ، وأرسلت إليه عطايا
المتوكل فردها وكان عيشه من تملك عقاره الذى ورثه عن أبيه وكان يقول :
وما على رجل الا يعذب الله بسببه جد .

(٩)

أول من تكلم بخلق القرآن الجعد بن آدم من دمشق معلم مروان بن محمد
وعندما طلب هرب ، ونزل الكوفة فتعلم منه الجهم بن صفوان وقيل ان
الجعد أخذ ذلك عن ابان بن سمان وأخذه ابان عن طالوت بن أعهم
اليهودي ، وتأثر الجهم بن صفوان بالجعد وكان ينفي الصفات عن الله تعالى
واستتبع ذلك نفي الكلام والقول بخلق القرآن .

وكان ليبد بن أعهم اليهودي في زمن الرسول في المدينة يقول بخلق
التوراة ويرى بعض الباحثين ان جماعة من اليهود الذين أظهروا الإسلام
اندسوا بين المسلمين بالبصرة ، وقد تعرف إليهم واصل بن عطاء وجعل
يتردد عليهم ومن قولهم ان الخير من الله والشر من أفعال الإنسان وان القرآن
مخلوق محدث ليس بقديم وان الله تعالى غير مرفى يوم القيامة وان المؤمن إذا
ارتكب الذنب فشرب الخمر وغيره يكون في منزله بين بين لا مؤمناً
ولا كافراً وان اعجاز القرآن في الصرفة لا انه في نفسه معجز أى ان الله لو لم
يصرف العرب عن معارضته لاتوا بما يعارضه . فلما تحدث واصل في هذا
في مجلس الحسن البصري نهاه الحسن ، فاعتزل وأقام حلقة أخرى في المسجد
وأرسل أصحابه الذين علمهم إلى الغرب واليمن وخراسان والجزيرة والكوفة
وارمينية وقد تجمعت طائفة من هؤلاء لدى المأمون الذي كان متأثراً بما ترجم
من فلسفة اليونان ومنطقهم من ناحية والذي كانت نزعة الفارسية التي ورثها
عن أمه ويسته التي تربي بها ذات أثر كبير في اتجاهه ذاك .

فقد أباح المناظرة أمامه في مسائل شأنك منها علاقة الإنسان بخالقه
وطبيعته الألوهية كما أباح للمسيحيين حرية المناظرة في أى الدينين أنضل .

وأدنى منه رجلاً من أسوأ أهل عصره : بشر المريسي وأحمد ابن أبي
داؤد أما بشر المريسي فكان أبوه يهودياً صبأوا بالكوفة في سوق المراضع كما

ذكر الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد قال : حدثني صالح العجلي حدثني أبي قال رأيت بشر المريسي مرة واحدة شيخاً قصيراً دميم المنظر وسخ الثياب وافر الشعر أشبه شيء باليهود .

وكان يدخل المريسي على المأمون وكان الشافعي ، والطوسي يذكرانه في مجلسه بما يكشف عن فساد رأيه : ثم كان أحمد ابن أبي داود ممن قريهم المأمون ، وبذلك استطاعت المعتزلة أن تصبح ذات نفوذ ضخم بعد أن تقبل المأمون رأيهم في خلق القرآن .

وكان بشر المريسي يقول بخلق القرآن لإبان حكم الرشيد الذي توعد به : وقال بلغني ان بشراً يقول القرآن مخلوق والله ان أظفرتني الله به لاقتلته : واختفى بشر حتى ظهر في أيام المأمون واستطاع أن يكون من أهل الطول ، قال الخطيب البغدادي انه ظل يدعو إلى ذلك نحواً من أربعين سنة ويؤلف فيه الكتب .

وقد أظهر المأمون القول بخلق القرآن مضافاً إليه تفضيل علي أبي بكر وعمر فاشتمزت النفوس منه ، وقد تحدث المؤرخون عن البدع المأمونية الأربع :

لبس الخضر وتقريب العلوية ، والقول بخلق القرآن ، وأخذ الجند بالتكبير بعد الصلوات الخمس ، وإباحة زواج المنعة الذي رجع عنه بعد . وقد حمل الناس على القول بخلق القرآن فكانت من أسوأ المواقف في حياته وأسود الصفحات .

(١٠)

بعد سبعين عاماً من وفاة أحمد بن حنبل ظهر أبو الحسن الأشعري مدافعاً عن [الأصول الإسلامية] متخذاً نهج أحمد بن حنبل بعد ان أمضى (٣٢ - المؤامرة على الإسلام)

أربعين عاماً في صف الاعتزال ، ولم يكن أبو الحسن راضياً كل الرضا
عن طريقة الاعتزال لغلوها في التأويل وترجيح المعقول على المنقول .
ولذلك رأى الأشعري أن الأصالة الإسلامية تقتضي أن يسلك طريقاً أكثر
ملائمة لمفهوم الإسلام الجامع ، يوفق بين الدليل العقلي وبين الوحي والسنة ،
وقد هدى إلى أسلوبه الذي اعتمد على النظر العقلي في إطار القرآن والسنة ،
مقدماً السمع على العقل بعد أن كان المعتزلة يقدمون العقل على السمع وقد
كشف أبو الحسن عن انحراف المعتزلة عن منهج القرآن الجامع وطريق الإسلام
المتكامل ، فقال إنهم وجهوا القرآن وجهة تنفق مع تخيلاتهم وأولوه على
حسب مذهبهم ، وخلبت لتفسير عقول المسلمين لما حوت من قوة الجدل
وطلاوة العبارة وبراعة القدرة على الباس الباطل ثوب الحق ، ولذلك فقد
استطاع الأشعري أن يرد عليهم بنفس أدلتهم الكلامية التي تعلما منهم
فاستطاع أن يدحضها ويرد على الحجة بحجة أقوى ، ومن ذلك قوله :

إن أهل الزبج تأولوا القرآن على آرائهم وفسروه على أهوائهم تفسيراً لم ينزل
الله به من سلطانا ولا روه عن رسول الله ولا عن السلف المتقدمين وإنما
أخذوا تفسيرهم عن ابن الهزيل وإبراهيم النizam والقوطي والأسكافي والجبائي
والبليخي وغيرهم من قادة الضلال ، ويقولون إنهم ما أزعجه إن الجبائي
(أستاذه) ألف في تفسير القرآن كتاباً أوله على خلاف ما أنزل الله
وما روى في كتابه حرفاً واحداً عن أحد من المفسرين وإنما اعتمد على
ما وسوس به صدره وشيطانه ولولا أنه استقوى بكتابته كثيراً من العوام لم
يكن لتشاغلي به وجهه .

وبذلك نرى أن الإسلام يصحح طريقه ويحرر منهجه كلما انحرفت به
جماعة أو دعوة تحاول أن تخرجه عن أصالته وتكامله الجامع ، وقد كشف
الأشعري أخطاء المعتزلة في خلق القرآن ونفي صفات الله والقضاء والقدر ،

وكلا مسائل جاءت من الفلسفة اليونانية ومنطق أرسطو الذي فرق المسلمين وفتح باب التأويل فقد أخذ المعتزلة بطرفهم في التأويل العقلي حتى بلغوا مع نفي الصفات الإلهية إلى التعميل وقالت الكرامية بالإنشائية والتجسيم وقالت الجهمية بالجبر وكلا فروع من مفاهيم الفلسفة اليونانية والكلام اليهودي والمسيحي .

يقول السيد أبو الحسن الندوي : ظل الأشعري يتزعم المعتزلة أربعين سنة ثم نار عقله الكبير ونفسه القلقة على مذهب الاعتزال ، ونشأ في نفسه رد فعل ضد تأويلات المعتزلة وإمعانهم في القياس وتحكيم العقل وصار يشعر بأنهم أخضعوا الدين للمنطق الصناعي والمقدمات والأصول التي ظنوا وصور لهم ذكائهم أنها قطعية وتناولوا القرآن على آرائهم واقتنع بأن الحق الصراح هو الذي كان عليه الصحابة رضي الله عنهم وسلف الأمة .

• وقد عكف في بيته خمسة عشر يوماً يفكر ويتأمل ويدرس ويستخير الله حتى أطمأن نفسه واستقر رأيه ورأى أنه لا يسمعه إلا بإعلان البراءة من الاعتزال والزجوع إلى مذهب السلف . فخرج إلى الناس بالمسجد الجامع بالبصرة وركب كرسيًا ونادى بأعلى صوته : من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسى أنا فلان بن فلان كنت أقول بخلق القرآن وإن الله لا ترأه الأبصار وإن أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا نائب مقلع ، معتقد للرد على المعتزلة مخرج لفصائحهم ومعاييرهم .

كان أخطر محاذير الاعتزال الاتجاه إلى تقديس العقل وتحكيمه في المسائل التي لا تقوم إلا على تعليمات النبوة والإيمان بالغيب ، وكان مصدر ذلك هو الفلسفة اليونانية التي وجدت منطلقها في موجة عارمة كادت

تكتسح الايمان بالغيب والاعتماد على تعليم الانبياء . وازدهر الفكر
الفلسفي على حساب القلب والعاطفة وعلى حساب العمل .

وقد رد عليهم أبو الحسن الأشعري وتبعهم في مجالهم ومراكزهم
بمحاول إقناعهم بما اقتنع به أخيراً .

أولاً : لم ينكر الأشعري العقل ولكنه وضعه مكانه الحق . ليس العقل
مقدساً وليس سلطة لا تحد وليس له الحكم على ما يتصل بالذات والصفات
وما وراء الطبيعة .

ثانياً : أعلن أن مصدر العقيدة هو الوحي والنبوة المحمدية والطريق
إلى معرفته هو الكتاب والسنة وما يثبت عن الصحابة رضى الله عنهم وأن
الكتاب والسنة هو مصدر المسائل التي تتصل بالالهيات وما وراء الطبيعة
وليس العقل المجرد والميتافيزيقا اليونانية .

ثالثاً : أثبت القدر لله مبارك وتعالى خيره وشره وأثبت صفات الجلال
لله من قدرته وعلمه وإرادته وحياته وسمعه وبصره وكلامه وأن القرآن
كلام الله غير مخلوق وأن الله تعالى موجود يرى بالابصار يوم القيامة وأقر
السمعيات كلها وعذاب القبر ومنكر ونكير والصراط والميزان والحوض .
وأن أسماء الله لا يقال أنها غير الله .

رابعاً : دعا الأشعري إلى التفويض لله فيما ليس ميسوراً تعامله من الغيبات
ونها عن الجدل والمراء في الدين والخصومة في القدرة ويرى أن على المؤمنين
الصبر على حكم الله والأخذ بما أمر الله والإنتهاء عما نهى عنه وإخلاص
العمل والنصيحة للمسلمين .

وأعلن أن المعتزلة تأولوا القرآن على آرائهم فأوبلا لم ينزل الله به
سلطاناً ولا أوضح به برهاناً ولا نقلوه عن رسول الله ولا عقيدة السلف

وانهم اتبعوا أهوائهم في فهم الدين ولم ينظروا في الكتاب والسنة مجرداً ولم يتخيروهما اماماً ومصدراً لمقائدهم وآرائهم بل كلها تعارض القرآن مع ما إنفتحوا من آراء وعقائد تأولوا بها القرآن .

هذا وقد تطور مفهوم الأصالة الإسلامية كما رسم الأشعري على يد الباقلاني والجويني والغزالي وبذلك سقط مفهوم المعتزلة الذي انكشف إنحرافه وزيفه .

ولم يعد في الإمكان انبعاثه مرة أخرى بصورته الأولى المحرفة ، التي اعتمدت على فلسفات الأديان وعلى مفهوم الفلسفة اليونانية والكلام اليهودي والمسيحي والتي توحى بأن وراءها هدف من أهداف إحتواء الإسلام ، وما كان في الإمكان فصل هذا المفهوم الذي قاومه أحمد بن حنبل ثم كشف عن زيفه الأشعري وتابعه رجال أمثال الجويني والغزالي ما كان في الإمكان فصله عن سياقه للدعوة إليه مرة أخرى في العصر الحديث باعتباره مفهوماً فلسفياً أو نظرية مجردة بينما لم يكن هو كذلك وفي ضوء ذلك الواقع الآليم الذي فرض فيه المعتزلة مفاهيمهم المضطربة بقوة السلطان والتي لم تستطع مواجهة ضوء الحق ولا نور العلم والتي تخلى عنها الذين حملوها ، ما عدا أصحاب المطامع والأهواء ، ثم كيف جاءت الأبحاث الصحيحة فاسفة لكل دعاوهم الباطلة .

ان مطالبه بعض الكتاب والمفكرين بالعودة إلى فهم المعتزلة ، يوحى بما وراء هذا المذهب في أوله من أهواء اليهودية وخطط الهاطنية والمجوسية لهدم الإسلام ، وإعادة اصطناع هذا الأسلوب مجدداً في العصر الحديث وما فلان وفلان وفلان إلا خلفاء المربسي ، وابن أبي دؤاد ، وجهم بن صفوان .

الإسلام والعقلانية

قال الإمام الشافعي : « ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا بتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان ارسطوطاليس ». وقد كانت الترجمة هي مصدر استعمال التيار العقلي الذي كان واحداً من عدة تيارات أخرى ، كالإيمان والوجدان فلما استعمل التيار العقلي بالذات ، كان ذلك ولا ريب راجع إلى أثر الفلسفة اليونانية التي استطاعت إحتواء الفكر اليهودي والفكر المسيحي من قبل وضعت ما سمي باللاهوت المسيحي بحيث أصبح العقل أساساً للإيمان ، أما الإسلام فقد كان له مفهومه الواضح عن العقل كأداة بجوار عدة أدوات أخرى للإيمان منها الوجدان والإحساس القلبي .

لقد حاولت المعتزلة الخروج عن فهم الإسلام الجامع بتقديس العقل واعتباره السبيل الواحد في البحث ، ولقد واجهت هذه النظرية معارضة كاملة من الإصالة الإسلامية على مدى العصور وكلما تجدد القول في العقلانية وخاصة في العقل الحديث وكانت حجة الباحثين أن العقل والقلب في القرآن مترادفان ، وأن العقل سراج زيته الوحي ، ولذلك فإن سيادة العقل كمصدر وحيد للمعرفة إنما يعني في حشد ذاته انتقاص شأن الوحي . ولا ريب أن تصكيم العقل وحده وطلب سيادته على أحداث الحياة واتجاهاتها من شأنه أن ينتقص من تكامل العقل والوحي ، وتلاقى العقل والروح . ولا ريب في تقدير الباحثين أن العقل غير كاف ولا بد من الاحتياج إلى نبي ووحى ، هذا النبي يعاضد العقل يؤكد حكمه ويجعله وثوقاً فيما يستقل العقل بمعرفته فيكونان دليلين على مدلول واحد ويكون الوحي مرشداً للعقل وهادياً فيما لا يستقل بمعرفته مثل الغيب والمعاد ويكشف عن وجوه الأشياء التي لا يدرك العقل حسنها وقبيحها .

كذلك فإن الإسلام لا يقيم فاصلاً بين العالمين الروحي والديني ، فليس في الإسلام شيء من قبيل اعط ما لقيصر لقيصر ، وما لله الله ، فكل شيء في الإسلام هو لله ، وليس في الإسلام فاصل واضح بين العالمين الروحي والديني .

ولا ريب أن هذا الجو الذي دعا إلى الفصل بين العقل والنقل في المسيحية ليس موجوداً في الإسلام فما يزال النص القرآني موثقاً حياً نابضاً بالحياة لم يعبث به شيء من تغيير من شأنه أن يجعله موضع الشك كما يحدث في النقل من الفكر الغربي سواء في المسيحية أو اليهودية .

ولقد كان العقل دائماً في الإسلام جارياً في إطار الروحي ، وقد أشار الإمام الغزالي إلى هذا المعنى حين قال : وظيفة العقل أن يشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز ، فالعقل لا يرشد إلى النافع والضرر من الأعمال والأقوال والأخلاق والعقائد ، ولكن إذا عرف فهم وصدق فالعقل خادم الدين المطيع وقد أجمعت الأصول العامة كلها على أن الوحي هاد للعقل ، وأن الدين يقود العقل إلى الصواب .

ويسأل أحد الباحثين فيقول : لماذا لا ينجح العقل الإنساني في أن يكون بديل الحكمة الإلهية في تقرير النظريات الأساسية والأصول التنظيمية في المجتمعات الإنسانية وبجيب حل ذلك بقوله : إن الإنسانية تتطلب ممن يقرر أسس نظرياتها وأصول أنظمتها أن يكون فوقها ، لا أن يكون بينها ليهيمن على احتياجاتها من أفق أعلى فإذا كانت بينها انحصرت أنفقه في ثنيه بعينها فيمنعه ذلك من استشراف الحقائق العليا ، والإنسانية في حاجة إلى من يطل عليها من فوق فيصل بصره إلى كل شيء ويحترق فواصل الزمان والمكان فيستوعب تقدير العالم كله والعمر كله : عمر العالم ، لا عمر جيل من أجياله والإنسانية كلها على اختلاف شعوبها وقبائلها فهل هذا ممكن للإنسان .

هل يمكن أن يكون العقل وحده في الميدان بعيداً عن رعاية الله ، أن العقل في شرعنا مناط التكليف ومناط الفهم في تقبل العقيدة .

والإنسان عقل ونفس . فبأن عقله قد آمن بالخطأ فهل ترى نفسه قد برئت من الهوى : الحكمة الإلهية وحدها التي تستوهب كل زمان ومكان وسع ربى كل شيء علماً ، الحكمة الإلهية هي التي تقنزه عن التحير أو التعمال لأن صاحبها غنى عن العالمين . العقل المخلوق الذي لم يشهد كيف خلق وكيف خلق الكون . ونحن بهذا لا نهدر العقل الإنساني بل نحترمه إذ العقل مصباح ينير إذا وصل بمولد الكمبرياء ذلك أن العقل يوصل الطاقة إذا وصل بربه وخالفه ، ولكن غيرنا يريد المصباح أن ينير بغير أسلاك .

والمؤمن هو الذي يقوم لإيمانه على العقل والوجدان معاً ، أى بين الفكر والشعور ، فالعقل يلتقى مع القلب ، العقل وظيفته النظر في الغايات والأسباب والمسببات والقلب وظيفته الشعور الباطنى ، ولذلك فإن حصر الدين في منطقة الوجدان أو في منطقة العقل زعم غير إسلامى والمعرفة موجهة إلى الباطن وهى معرفة حدسية شعورية ومعرفة علمية موضوعية . والمعرفتان مرتبطتان يكمل بعضهما البعض ويتمم أحدهما الآخر . والعلم الصحيح يقوم الوجدان ، والوجدان السليم من أشد أهوان العلم ، والدين الكامل علم وذوق وعقل وقلب ، وبرهان وإذعان وفكر ووجدان فإذا اقتصر الدين على أحد هذين الأمرين فقد سقطت إحدى قائمتيه وهيئات أن يقوم على الأخرى ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الإنسان الواحد إنسانين .

وهكذا يقيم الإسلام قاعدة التوازن بين مختلف القوى فى الإنسان ولبس بين العقل والقلب وحدهما بل بين الروح والجسد أيضاً فهو لا يقر المادية المفرقة ولا الروحانية المطلقة بل يوفق بينهما فى تناسق وتوازن ومواءمة تجعلهما يتكاملان فى الإنسان نفسه من حيث هو جسم وروح .

وهو كذلك يوازن بينه كفره وبينه كدسه في المجتمع وبذلك يتفادى الإسلام انحرافات الشطط والتطرف وبذلك يقضى الإسلام على ما يسمى بالهرع أو التناقض ويحفظ للإنسان وجوده بعيداً عن الانهيار والتدمير الذي يفرضه الإطلاق ؛ أو الجرد والتعجر الذي يفرضه السكوت .

كذلك فقد رفضت الأبحاث المتجددة ما أورده بعض المنابر بالمعتزلة من أحاديث موضوعية كحديث إقبال العقل وإدباره وأنه أول ما خلق الله . وهو حديث قال بوضعه ابن القيم والسيوطي وضمف روايته كثيرون من الحفاظ في طليعتهم الحافظ الذهبي .

وقال إنما تكن خطورته في الصبغة الرواقية التي تشيع فيه مصورة العقل بصورة مادية ثم في إيمانه بنظرية العقول العشرة التي لفظها الفارابي وشاعت في كتابات الفلاسفة المسلمين وقد واجه علماء الإسلام هذه الأحاديث الموضوعية : واجهها الحارث المحاسبي وقد رسم منها كاملاً قال فيه أن العقل غريزة أو نور ووافقه في ذلك الإمام أحمد ، ووافق ذلك الأشاعرة وهو ما يقره العلم الحديث وقد فرق ابن تيمية في رسالة (الفرقان) بين النظريتين الإسلامية واليونانية في العقل فقال أنه يراد بالعقل عند المفكرين المسلمين : الغريزة التي جعلها الله تعالى في الإنسان يعقل بها .

وكذلك أجمع الأبحاث المتجددة على :

(أولاً) : يحجز العقل عن إدراك الأسرار الإلهية التي جاء بها الوحي الإلهي عن طريق الأنبياء . وعلى العقل أن يتخذ من الوحي هادياً ومرشداً وإلا فإنه يعجز كل العجز عن الوصول إلى المعرفة الصحيحة لما وراء الطبيعة

(ثانياً) : حاجة العقل إلى المعونة الخارجية لإرشاده إلى الأمور الإلهية التي لا يمكنه الاطلاع عليها إلا بطريق الوحي أو الإلهام .

(ثالثاً) قدرة العقل على تفهم المسائل كلها بعد الاطلاع عليها من الشرع
ولذلك فإن العقل محتاج إلى الاهتداء بالشرع .

(رابعاً) ثبت عجز العقل بذاته على معرفة الله والتمييز بين الحسن والقبيح
والخير والشر .

(خامساً) أن العقل لا يستطيع أن يحكم على شيء حتى يحصره في اثنين :
الزمان والمكان فيقول متى وأين فالمرحوم بينهما لم يكن للعقل عليه
سلطان .

ولذلك فإن العقل لا يستطيع أن يحكم على الألوهية ولا على القضاء
والقدر ، وكل عمله ينحصر في فهم نصوص الوحي الذي جاء من خارج
العقل .

والعقل محدود ولا يستطيع أن يتصور غير المحدود ولا يحكم على غير
المتناهى والعقل لا يتصور الخلود (والله عز وجل غير محدود فالعقل لا يستطيع
أن يحكم عليه) فإذا حاول العقل الحكم على غير المحدود اختل ميزانه ووقع
في التناقض والعقل لا يصبح حكمه إلا في الأمور المادية ، أما (وراء المادة)
أي عالم الغيب (الميتافيزيقا) فلا حكم للعقل عليه .

(سابعاً) لا يحق لنا أن ننكر وجود أشياء مجردة أننا لا ندرکها بحواسنا
وقد أعطانا الله تبارك وتعالى قوة نصل بها إلى حيث لا تصل الحواس هي
قوة الخيال وهذا الذي قاله علماء الإسلام رده الفيلسوف الألمانى كانت في
كتابه نقد العقل بعد ثمانمائة سنة من تاريخ ما أورده الغزالي في مؤلفاته وقال
برجسون : إن الذهن البشرى وحده لا يستطيع فهم حقائق الحياة .

(ثامناً) محاولة الفلسفة لاستخدام العقل وحده في فهم الكون والطبيعة
هي مهمة يقصر دونها العقل ويرجع ذلك إلى محدودية العقل وعدم إحاطته

بإله الله ، بما يجعله قاصراً في الحكم على ماهية المصلحة الحقيقية للبشرية لما يراه عقل أحدهما صالحاً يراه عقل الآخر غير صالح .

ولذلك نرى تعقيد البشرية في فلسفات متناقضة ، نتيجة اختلاف العقول ومقاييساتها في تحديد وتعيين السلوك الفردي والاجتماعي .

(ثامناً) أطلق الإسلام العقل الإنساني وجعله حراً ولم يحدده وإنما أوضح له العقيدة الصحيحة وإطار الحركة معها حتى لا يخطئ .

(عاشراً) كان الفكر الغربي وجدانياً كلياً ، ثم تحول إلى عقلياً كلياً ، هذا مصدر الاضطراب ومصدر القلق الغربي تتج الآن من التفاوت بين علوم المادة والعلوم الانسانية ، وهو خلاف في أصله بين القلب والعقل ، استعلى فيه العقل الحديث استعلاءً حجب به كل شأن من شئون الروح والمعنويات فأمن بالمحسوس وحده ، ووقف عند المادة كمصدر للقوة والسعادة ، وغفل عن أن العقل محدود والمادة ليست كل شيء . .

(حادى عشر) استقلال العقل الانساني بتوجيه الانسان امر غيره . أمّا الاسلام فيضع العقل في إطار هداية الله من الوحي والشرع التي هي صمام الأمن للعقل من الانحراف أو الخطأ أو الميل إلى الهوى الانساني وتهميره ، أو الاستكانة إلى الشهوات والخضوع لها .

هذا الفهم لا يحول دون المتاع المادى بل يحول دون اقتصار الانسان عليه باعتبار أن هناك متاعاً آخر غير مادي يشوق النفس الانسانية فهي تتراوح بينهما ولا تقف عند واحد منهما .

(ثاني عشر) أكبر أخطاء العقلانية المجردة هي اعتبار محيط الذات الانسانية القيمة النهائية والغاية التي يتوقف عليها نشاط الانسان وسعيه في الحياة ، وإنكار غيرها وماعداها من قيم أخرى تتجاوز حدود الذات

الفردية إلى النوات الأخرى وإلى المجتمع وإلى الله تبارك وتعالى وإلى مشاع الحياة الأخرى وهو ما يطلق عليه اسم القيم العليا .

فالإسلام يحقق القيم الذاتية ويؤكد الفردية ثم يدفع الإنسان إلى أفاق أوسع نحو الجماعة ونحو الآخرة . وهو يحقق المتعة المادية ولكنه يدفع الإنسان إلى استكمال حقيقة وجوده بتحقيق المتعة المعنوية الروحية . فالنزعة العقلانية هي في ذاتها نزعة مادية لأنها توقفت السمع عند الفردية والمادية وحدهما وتحول بين الإنسان وبين تحقيق الشطر الثاني من تكوينه وكيانه وهو الجانب الروحي والمعنوي والإسلام يدعو إلى تكاملهما والموازنة بينهما ولا يعلى واحداً منهما على الآخر .

(ثالثاً عشر) سيطرة النزعة العقلية فحبس النفس الإنسانية في جمود المادة ، وظلامها فتحول بينه وبين روح الإيمان والنفاؤل والتطلع إلى الآمل والمضلم لا ييأس من روح الله ولا يعيش أموره على الواقع أو على الحاضر وحده وإنما يرى أن هناك عنصراً آخر وبانياً يغيب عن التقدير المادى والعقل له قدرته في تغيير الواقع .

« فان مع العسر يسراً ان مع العسر يسراً »

فان من أهم الحريات التي يصددها العقل : حرية الآمل وهدم اليأس فالعقلانية في حقيقتها سجن كبير ودائرة موصدة ، وطابع اليأس والتشاؤم التي يتمثل في الفكر الغربي والآدب الغربي مرده في الحقيقة إلى مقاييسات العقلانية الصرفة التي تجردت من المعنويات ومن رحمة الله .

(رابع عشر) من شأن النظرة العقلانية : حصر البشرية في « غانة » الآثانية والعزلة بما يحول دون انفساح أفاق الرحمة والعطاء والبذل . والإنقطاع عن الإنسانية العامة وهذا قصور إزاء أفق عظيم يقدمه الإسلام والدين بعامة وهو بعد وحدة البشرية وتعاطفها وبعد الآمن والرحمة والسلام .

(خامس عشر) ان النظرة الاسلامية هي نظرة إنسانية ونظرة متكاملة وليست نظرة محصورة في الفردية أو المادية وحدهما ولكنها تجمع بين المادية والروحية والفردية والجماعية دون أن تفقد إحداها عطاءها الصحيح .

(سادساً عشر) يرى الاسلام إلى تحرير العقل من كل سلطان إلا سلطان الله ولما كان العقل من خلق الله فهو يخضع له فلا يشترك مع خالقه في النفوذ أو التأثير . وقد أودعه الله في الانسان لا ليعبده من دون الله ، بل ليعرف الكون ويكتشف ما يلزمه منه ، ويهتدى به في الظلمات التي ليس للعقل قدرة في كشفها إلا في ضوء الدين والعقل واسطة لا غاية ، وهو آلة تنكسر على ما يتعدى ميدانها ولا تستطيع أن تتحدى ما يقوله الله .

والعقل ليس له قدرة التفرد بالنظر ، وإنما هو نور مصباح يكشف الظلمات ولكنه ينكف أمام نور الله . والعلماء المسلمون يرون أنه ما دام العقل أضال من نور الله فلماذا لا يتخذ نور الله كاشفاً له في ميدان العلم والفلسفة فيسير نور العقل وراءه .

(سابعاً عشر) لقد استطاع المفهوم الاسلامي الاصيل أن يقلب مفهوم الاعتزال والعقلانية وان يبين فساد نظريتها لقصورها وجزئيتها وكيف أن العقل لا يتمكن من إقامة البرهان إلا من طريق السمع أى النقل من الوحي ، وان العقل له حد يقف عنده وأن في أمور الدين ما لا سبيل إلى معرفته إلا عن طريق السمع وذلك هو الايمان بالغيب (بما فيه الايمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار والصراط والميزان والبعث والجزاء) وبما فيه الايمان بالملائكة والرسل والكتب .

فالعقل لم يمنح هذا كما أنه لم يمنح القدرة على معرفة كنهه الله وصفاته . ولقد كان في إنحراف المعتزلة القدامى والجدد إساءة إلى الاسلام السمع

اليسير وإساءة إلى منهجه القرآني السانع ولا ريب أن الهدف هو في النهاية
إنكار الخالق ، والوحى والنبوة .

ومقطع الخطر أن يكون العقل مهيمنا على الشريعة قاضياً فيها بأهواء العصر
مهراً لأوضاع المجتمعات المنحرفة .

والاسلام لا يواجه الواقع أياً كان ليقره ، أو يبرره ، وإنما يواجه
الواقع ليزنه بميزانه فيقر منه ما يقر ويلغى ما يلغى وينشئ واقعاً غيره في
ضوء الحقائق الأساسية .

الباب الثاني

إحياء الفكر الصوفي الفلسفي

د أسدل الزمان ستار النسيان على كتب التصوف القديمة فظلت في رسمها حتى جاء المستشرقون يتقبون عن مادة جديدة للفتنة يؤججون بها نيران الخلاف بين المسلمين من جديد فوجدوا ضالهم في آثار الصوفية فأقبلوا عليها وقرءوا في ضوء العقلية المسيحية وعلقوس الرهينة أخبار المتصوفين وكتاباتهم واستهوتهم أفكاره لجمعوا من أقوال الصوفية في فنههم كل شاردة وواردة وعنوا بتنظيم موضوعاته وترتيبها حتى يمكن القول أن بحوث التصوف الحديثة وكتاباته كلها ترجع إلى عمل المشتشرقين الذين اهتموا فوق ذلك بالتعليق على موضوعاته وتوجيه مسائله الوجهة التي يرضونها بما عرف عنهم من مهارة وصبر وإهداف إلى غاية . وهدفهم تشكيك المسلمين في معتقداتهم ومناهضة تعاليم الإسلام الصحيحة ، بالظعن فيها وترويج الزائفة من المفتريات التي قامت حولها ، فعلوا ذلك لحسب المسيحية ودوغم الطامعة في تراث البلاد وتذرعوها من أجل ذلك بتعليم اللغات الشرقية ، .

الإسلام والتصوف الفلسفي

(١)

استهدفت المؤامرة على الإسلام في العصر الحديث انبعاث الفكر الصوفي
الفلسفي ممثلاً في نظريات وحدة الوجود والحلول والاتحاد والفناء والتناسخ
والإشراق وهي في مجملها مفاهيم دخيلة على الفكر الإسلامي الأصيل
ومستمدة من الفكر الفلسفي اليهودي والمسيحي واليوناني والمجوسي والهندي
يستهدف انبعاثها زلزلة مفهومه التوحيد الأصيل وخلق جو من
الشكوك والريب في قلوب المؤمنين لزعزعتهم عن أصول عقيدتهم
السليمة القرآنية الربانية القائمة على الفطرة البعيدة عن التعقيدات
والتهويمات .

ولا ريب أن الدعوة الملحة إلى إعادة بحث هذه الجوانب من الفكر
الصوفي الفلسفي التي أثبتت في زمن معين وتخطت واندثرت ، لا ريب أن
إعادة الاشتراق لها وتجديدها إنما له غرض مبيت وماكر وخبيث ، وهو
الانحراف عن مفهوم الإسلام القائم على الفطرة والتوحيد والجامع بين
العقل والقلب ، والقائم على التوحيد الخاص إلى شبهة الربانية والخروج
عن التكليف والاستسلام للجبرية وبذلك تعزل المسلم عن مجال الحياة العامة
وتقصره على الجانب الروحي المهوم المفرق في التهويم ، وهذا ما يتطلع إليه
مخطط المؤامرة على الإسلام من إخراج المسلم من مفهوم الإسلام الجامع
إلى مفهوم العبادة والصفاء الروحي ، فالصوفية الفلسفية بمفهوم الاتحاد
والحلول ووحدة الوجود والفناء والإشراق هي بمثابة ضروب من تحريف
الإسلام وتدميره وإخراجه من حقيقته الأصيلة وجوهره الخاص إلى مفهوم
الوثنيات والنحل التي جاء الإسلام لهدمها وكشف زيفها وإبراز فسادها .

وقد تخصص عدد من المستشرقين لهذا النوع من الفكر الاسلامي
اهمهم : ماسنيون وجولدنزيهر وجب وبرون وماكدونالدومار جايوت
ونيكلسون وفون كريمير ، وقد جرت المحاولات لخلق تيارين مختلفين
أحدهما يقول بأن التصوف الفلسفي مصدره الاسلام ويقول الآخر إنه ليس
إسلامياً وقد اهتم المستشرقون بدراسة الفرق المنحرفة فدرس ماسنيون
التصوف الفلسفي والباطنية والقراطة والنصيرية واهتم بأهل الباطن والتأويل ،
واهتم أكثر من غيره بدراسة الاتحاد والحلول والاشراق ووحدانية الوجود .

وهم يصدرون عن مفهوم الاعجاب بهذه الانحرافات عن مفهوم الاسلام
الاصيل ويرون أن الفقه الاسلامي جاف وأن هذا المفهوم من التصوف هو
الذي أعطى الاسلام روحاً لطيفة ، وهم يحاولون قضايا التصوف في ضوء
الرهبانية المسيحية وبمقياس رياضيات الهنود وبعضهم يجعل المسيحية أصل
الصوفية عند المسلمين ويحاولون في كل هذا الغرض من قدر مفهوم الاسلام
الاصيل والادعاء بأنه ليس إلا واحداً من عدة مفاهيم ، وهم في هذا يطرحون
شبهات خطيرة يهدفون منها إلى تزييف الاسلام .

وجرى الكتاب التابعون لحركة التنوير وراء خطاط الاستشراق
وتوسعوا فيها واهتموا بانبعث هذه النحل المنحرفة والاذاعة بها وكتب
في ذلك لطفى جمعة في البلاغ عديداً من المقالات كما كتب توفيق دياب عن
قناسخ الأرواح وروجت الجمعية النيو صوفية لهذه المفاهيم .

وحاول محمد توفيق دياب أن يقول بأن النعيم والعذاب في الآخرة
معنوي بحيث ، وتصدى له أحد العلماء فدحض فكرته واستعرض الأدلة
القرآنية على أن النعيم والعذاب في الآخرة حسي ومعنوي معاً .

وما تزال قضايا التصوف الفلسفي تتجدد في الفكر الاسلامي جيلاً بعد

جبل وتجد لها في الجامعات مجالا لدراستها وإثارة صدور الشباب بشكوكها وزيفها تحت اسم العلوم الفلسفية .

ولإريب أن هناك غاية عميقة وراء تشجيع الغرب والغزو الثقافي والتفريب للتصوف الهدام والفلسفي في بلاد المسلمين بتأليف الكتب عنه ونشر المؤلفات المليئة بمفاهيمه المسمومة وخاصة مؤلفات الحلاج وابن الفارض وابن عربي .

فإنه ولا ريب يفسد مفهوم الاسلام الأصيل ويصرف عن طابعه الحقيقي ويهدم مقوماته وخاصة مفهوم الجهاد والتضحية والبذل والارادة الحرة القوية المناهضة عن الحريات والحق .

ذلك أن هذه المذاهب الصوفية الفلسفية إنما تحاول أن تهدم في النفس المسئلة أبرز مفاهيم التوحيد الخالص بالدعوة إلى الزهد المبالغ فيه المستمد من آثار المسيحية ، أو بالالتكاف على الجوانب الروحية الخاصة وهو الجامع بين المادة والروح والاسلام لا يقر مذهب القول بحلول الله في جسد إنسان أو فناء الذات الانسانية في الذات الالهية ولم يدع الاسلام إلى الرهينة أو الاعتكاف عن الحياة بل هو صريح في إنكار الانفصال عن الحياة والمجتمع بل يوجه دعوته إلى العمل والعبادة ومراقبة الله في العمل والعبادة .

وليس في الاسلام أهل باطن وأهل ظاهر فالاسلام جامع بين الظاهر والباطن معاً ، وجامع بين الفقه والأخلاق معاً ، فليس هناك فقه جاف وتصوف لطيف ، وتلك كلها مفاهيم غربية ومسيحية استمدها المستنشقون من دياناتهم وثقافتهم وألقوها كسموم زاعقة في أفق الفكر الاسلامي ليخدعوا بها البسطاء السذج والذين لم يكتمل فهمهم للاسلام الصحيح . والقرآن لم يذكر كلمة الزهد على أنها من الدين ، كذلك فإن الاسلام ينكر الرموز والشحطات والتهويمات الغامضة كلها كما ينكر التأويلات التي تدور

رجال التصوف الفلسفي للنصوص القرآنية لأنها خارجة عن مفهوم الاسلام الاصيل .

وما ورد في الطواصين للحلاج وفصوص الحكم أو غيره من كتب ابن عربي أو السهروردي أو شعر ابن الفارض ليس اصيل بالنسبة إلى الاسلام .

ولا ريب أن ضخامة هذا العدد من المستشرقين الذين ركزوا على التصوف واشتغال البعض منهم بشخصية واحدة ، زهاء أربعين سنة كما فعل ماسنيون بالحلاج ليكشف عن الفرض المسموم الميت ، ولا ريب أن ما يقرره نيكلسون وماسنيون من أن المنصوفة المسلمين أخذوا بعض نظرياتهم وتعاليمهم من النصرانية مثل نظرية الحب الالهي أو من الثقافة اليونانية (الافلوطينية) كنظريات الاشراق والمعرفة والخبور أو ما يراه برون وجولد زيمر وغيرهما من أن الصوفية المسلمين تأثروا بالبوذية والهندية تأثراً كبيراً في نظرية الفناء ، كل هذا صحيح ، ذلك أن الاسلام في مفهومه الصحيح ودعوته القائمة على التوحيد والقطرة لا يمكن أن يقر مثل هذه الشبهات المعقدة .

مصادر التصوف الفلسفي هي : الفلسفة الاغريقية ، والديانات الهندية ، والفلسفة الفارسية والبوذية واللاهوت المسيحي :

(أولاً) تسرب إلى التصوف مفهوم الفلسفة اليونانية الذي يقول بوحدة الوجود والتي لا تفرق بين الله تبارك وتعالى وبين خلقه ، وإنما ترى أن الوجود كله هو الله .

(ثانياً) تسرب إلى التصوف مفهوم الفلسفة الهندية والهندوكية في التناسخ ، القائل بجميع النفس الواحدة إلى الحياة مرات متعددة والغاية في نظام من التناسخ أن تتاح فرص متعددة للنفس حتى تهذب ، كما تسرب إليها من الفلسفة الهندية مفهوم الفناء وهي الزفانا التي هي عديم حال من فقدان

الشعور تتخلص النفس في أثناءه من الاحساس بالآلم الذى يسببه لها اتصالها بالاجسام . والزفانا ليست وجوداً إيجابياً ولكنها تخاص من الوجود المؤلم يقوم بها مقام السعادة والتنعم .

(ثالثاً) تسرب إلى التصوف الفلسفى من المسيحية : تعذيب النفس وترك السعى فى الدنيا وكذلك فإن الحلول مأخوذ من المسيحية .

(رابعاً) دخل التأويل الفلسفى على التصوف من الفلاسفة اليونانية ، ودخل الحلول والاتحاد والتناسخ من التصوف الهندى ودخلت فكرة قهر الجسد بالتقشف والانقطاع عن التماسك من المسيحية .

(٢)

لا شك التصوف الفلسفى يتعارض تعارضاً تاماً مع مفهوم الاسلام الاصيل والذين قالوا به (الحلّاج وابن عربى والسهروردى وابن الفارض وابن سبّين) تأثروا بالافلاطونية المحدثة وبالعناصر التى أدخلها إخوان الصفا من إغريقية ومسيحية وفارسية الاصل ، ومنها المذهب المائوى والزرادشتى وفلسفة فيلون اليهودى وفلسفة الرواقين .

وقد دعا الحلّاج إلى الحلول والاتحاد وجاء بعده ابن عربى الذى دعا إلى وحدة الوجود .

ودعا السهروردي إلى الاشراق . ولا ريب ان فكرة الحلول والاتحاد ووحدة الوجود والاشراق كلها غريبة على الاسلام .

وأبرز ما تحمله هذه الفلسفات مصطلحات : التجلى والصدور والاشراق ووحدة الوجود والاتحاد والحلول والفتاء وكلها مصطلحات دخلت على الفكر الاسلامى من الفلسفات اليهودية والمسيحية والافريقية والفارسية والهندية .

ومرد هذه المصطلحات والفلسفات إلى الفكر الوافد ،

دعا ابن عربي إلى وحدة الوجود ووحدة الأديان مستمداً أصوله من الحلاج ودعا ابن الفارض إلى الاتحاد . وكان ابن عربي وابن الفارض على مفهوم وحدة الوجود الذي يرفضه الاسلام وهو ان الله والعالم شيء واحد ودعا السهروردي إلى الاشراق .

وقد نقد ابن تيمية ابن الفارض وابن عربي وابن سبعين والحلاج وكشف عن زيفهم ورأى أنهم أتوا في الدين بشيء جديد ليس من جنس كلام الله ولا رسوله ولا الصحابة .

وقد انصهرت أفكار الباطنة في الشيعة والتصوف ، كما انصهر فيها اللاهوت المسيحي والفلسفة والمنطق الاغريق والفلسفة الاشراقية المنبثقة من العقائد الاسبوية وفلسفة الحلول المنبثقة من الفلسفة الهلنسية .

ولا ريب أن إعادة صياغة هذه القضايا من جديد في العصر الحديث يستهدف إضعاف مفهوم الإسلام الاصيل وإنارة الشبهات وتمزيق وحدة المفهوم السني الاصيل .

أولاً : وحدة الوجود

أخطر هذه المذاهب التي أحياها الاستشراق في التصوف الفلسفي مذهب وحدة الوجود ، وهو مذهب هندي برمى ، أصوله ماثلة ومستمدة من كتب الهندو الدينية وأفكارهم الفلسفية . وهو معارض تمام المعارضة لمفهوم الإسلام القائم على الفصل بين الخالق ومخلوقاته . ويعنى مفهوم وحدة الوجود تأليه المخلوقات واعتبار الكون هو الله . وهذا هو سر اهتمام المستشرقين بابن عربي والحلاج .

والإسلام يفرق تماما بين الله (جل شأنه) وبين العالم ، وهو ما نقول به الفطرة الصافية والعقل السليم فكلهما يأتى أن يجعل الله هو العالم كله بما فيه ، وهو قول لا يتفق مع إقامة الأخلاق على أساس وثيق ويحول دون المسؤولية والجزاء .

ونظرية وحدة الوجود ليست أصيلة المصدر ، وليست مما عرف العرب أو أصحاب الأديان السماوية المنزلة ، إنما هى فكرة ترددت فى الفلسفات البشرية وهى من أهواء الإنسان التى تحاول أن تحرر الإنسان من تبعه أعماله ومن مسؤوليته الأخلاقية ليؤدفع لشهواته إلى غير غاية فهى لا تفرق بين الخير والشر ولا بين التقوى والفساد ولا بين الزهد والجمع ولا بين الفضيلة والرذيلة ، وهى فى صميمها دعوة إلى إنكار الله .

ومفهوم الإسلام هو مفهوم الأصالة : إن الله جل شأنه واجب الوجود منزّه عن الاتحاد بمخلوقاته أو الحلول فيها والكون شىء غير صاحبه ، والعالم شىء غير الله ، ولقد خلق الله الخلق وكلفهم ورتب على التكليف مثوبات وعقوبات وانزل بذلك كتباً وبعث رسلاً ، قالقوله بوحدة الوجود نفى للألوهية وإثبات للكانات وحدها . يقول الأستاذ محمد الغزالي : إن (وحدة الوجود) عنوان آخر للاتحاد فى وجود الله وتعبير ملتو للقوله بوحدة المادة فقط وما دام لا يوجد شىء وراء هذا العالم قالقوله بأن الله داخله هو صورة أخرى للقوله بنسكرائه .

ولو كانت الأرض أولوا ومرجانا ما صح أن تكون ذات الله . إن الصاروخ شىء غير الإنسان الذى أطلقه ، وكذلك قالعالم شىء غير الرب الذى أبدعه وسيره ، الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ، له مقاليد السموات والأرض .

ويقول الأستاذ عبد المنعم خلاف : لقد غزا مذهب وحدة الوجود

عقول بعض الفلاسفة والصوفية الذين آفتهم أن طلبوا أن يدركوا الله وما وراء الطبيعة بالحواس التي يدركون بها الطبيعة وبالعقل البشرى المخلوق لإدراك النسب بين الكائنات الطبيعية وحدها أولاً ، فلما عجزوا عن رؤيته تعالى وإدراكه كما هو المنتظر ذهبوا إلى أنه لا بد أن يكون الله هو هذا الوجود الظاهر وأنه يحل فيه وليس له وجود منفصل عنه وهكذا تجد الوثنية التي حاربتها الأديان والفلسفات منذ أعظمها من هذه الفلسفة .

وقد أرشدنا النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المجال فقال : تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا .

وخطأ وحدة الوجود القول بأن الكل هو الله أو أن الله هو الكل والحقيقة أن الكل لله . فالله سبحانه وتعالى هو الحقيقة الوحيدة وراء هذا العالم ، حقيقة لانهاية سرمدية ، فالله سبحانه لا يندمج في العالم ولا يندمج العالم فيه ولا يندمج في المادة ، ولذلك فإن قول أصحاب مذهب وحدة الوجود بأن الله والمادة وحدة لا تنجزاً هو خروج عن مفهوم الإسلام الحق . الذي يقول بأن كل مسبب لا بد له من سبب وكل معلول له لا بد له من علة والمسبب لا يقوم بنفسه وإنما يقوم بالسبب وكذلك المعلول فإنه لا يوجد بذاته وإنما يوجد بوجود العلة فإذا زال السبب أو العلة زال المسبب وزال المعلول .

والله تبارك وتعالى قديم وهو أول وهو آخر ، والحدوث مستحيل عليه باعتباره من صفات المعلولات والمادة معلولة وحادثة ولها خالق ، فإذا قيل بقديم المادة شاركت المادة الله في قدمه .

والمسلمون يؤمنون بثنائية الوجود : وهو أن الكون موجود ومنفصل عن الله . وأن الله تبارك وتعالى ذاتية قائمة مستقلة بذاتها عن الكون المادى . والكون كله ملكه وقبضته وهو المتصرف فيه وهو الذى يمسكه لحظة بعد

أخرى ولو تخطى عنه سبحانه لانتفى وبالجملة فإن الإسلام لا يقهر القول بوحدة الوجود أو أن الله تعالى عما يقولون علوا كبيرا هو مجموع هذه الموجودات.

وقد قال بهذا المذهب ابن عربي وتأثر في ذلك بنظرية افلاطون ونظرية الحلاج في اللاهوت والناسوت. ولا ريب أن كل ما يؤدي إلى وحدة الوجود أو الحلول لا صلة له بمفهوم الإسلام الأصيل، ولم يكن معروفا على عهد السلف الصالح ولم يتكلم عنه كبار الصوفية وقد يؤدي لصاحبه إلى الخروج عن عقيدة الإسلام،

ولقد كان النظر في التصوف بهذا المعنى كما يقول الدكتور محمد البهي : سببا لبلاء كثير من المسلمين ونكاه لكل إباحي يلتبس السبيل إلى نيل شهواته تحت ستار من العقائد أو ملحد يريد أن يهدم الإسلام بتصيد الشبهات أو معطل يحاول التخلص من تكاليف الكتاب والسنة .

[شخصية ابن عربي = وحدة الوجود]

ابن عربي هو من أجرا من عرف في التعبير ، وكانت مراوغته أبرز معالم أسلوبه المجازي الذي خدع به الكثيرين وسر ذلك هو خوفه من القتل ، وحرصه على إفساد العقيدة وقد فتن به كثيرون وبعد كتابه الفتوحات المكية وفصوص الحكم من أخطر كتاباته وقد استمد نظريته في وحدة الوجود من (الفنوصية + الافلاطونية المحدثة + المسيحية) .

وقد أثارت فكرة وحدة الوجود موجة من الصراع الفكري العنيف واعتبرها أصحاب الأصالة الإسلامية من محدثين والفقهاء والمفسرين والصوفية عقيدة متناقضة مع عقيدة الإسلام تناقضا مطلقا بحيث لا يمكن التوفيق بينهما بأى وجه من الوجوه وقد سمي أسين بلاسيوس كتابه عن ابن عربي : مفكر الإسلام المتنصر . ولا ريب أن ابن عربي اتخذ من أسلوب التصوير العاطفي والرمز والاشارة والاهتمام على مغربات الخيال في

الذمير طريقاً عفوفاً بالشوك بعيد الخطر في نفث السموم وهو يراوح بين
أرائه المسمومة وبين آراء أهل السنة فتجذع بعض الناس ، ويحاول بذلك
أن يحد له ملتصقاً إذا ما حوكم أو كشف زيفه وهذا أسلوب أكثر خداعاً
من أسلوب الحلاج .

يقول الدكتور محمد يوسف موسى : عبي الدين بن عربي ليس على
الاطلاق في تصوفه الفلسفي صوفياً مسلماً وإنما يشبه في التصوف ابن سينا في
الفلسفة ، فإن سينا لا يمثل الإسلام في شيء وإنما هو إمتداد للفلسفة اليونانية ،
كذلك عبي الدين بن عربي ليس صوفياً مسلماً وإنما هو فيلسوف لا يمثل
الإسلام في شيء . إن تصوفه ينتهي بسرعة خطيرة إلى مذهب فاسقي يخالف
الإسلام ويخالف كل دين ، أنه ليس رجل دين ولا رجل زهد ، ولا تصوف
بل فيلسوف غنوصي صناعي يجمع موفق منسق ، فهو كافلوطين وفيلون وقد
بعدت فلسفته النظرية والأخلاقية عن الدين (أولاً) لأنه بما ذهب إليه من
القول (بوحدة الوجود) وما يستلزمه هذا القول من اعتبار العالم كله صوراً
ومجالي ومظاهر لله الذي وحده الموجود قد أتى الأخلاق من قواعدها ،
إذ لا معنى للمسئولية الأخلاقية التي هي مناط الثواب والعقاب لأن الآثم
أخلاقياً أن يقول : ما دام الذي اتخذني مظهر له هو الذي فعل حقيقة
ما يظن أنه فعل بي فكيف يستقيم أن أكون أنا المسئول .

(ثانياً) يظهر أن عبي الدين بن عربي لا يتهيب أن يصل مذهبه إلى هذا
الحد فيما يتصل بالأخلاق ، أنه يرى أن الذي يصل إلى درجة المحبة الحق
يباح له أن يتجاوز حدود ما أنزل الله بهد أن لازم زماناً طويلاً حفظها
ولاريب أن عبي الدين بن عربي قد جاوز أصالة الإسلام بهذين الأمرين
الذين عدا بهما شريعة الله . وتلك أخطر جوانب دعوته هو أن يجعل ظاهر
الشرع بمن نصيب العامة . وإن لأهل التصوف باطناً خاصاً لهم وحدهم وهو
في هذا يصطنع أسلوب التأويل الذي اصطنعت به الباطنية .

ثانيا : الحلول والاتحاد

فكرة الحلول والاتحاد استمدتها الصوفية من المسيحية التي استمدتها من الهندوكية ، ذلك أن جانبا كبيرا من تعاليم المسيحية - على حد قول البيروني منشأ هندي ويقول ماكس مولر : إن الديانة المسيحية والديانة البوذية مشابهة في بعض الوجوه : وخاصة الحلول والتجسد ، وقد استمدت الثيوصوفيا الحديثة نظرية الحلول من المسيحية ، وهناك قرابة وثيقة بين التصوف الهندي والمسيحية المثلثة . وقد تطرق هذا الرأي إلى التصوف الفارسي من الاسماعيليين القائلين بالحلول وأهلية الأئمة ، ولذلك أخذ الصوفية عنهم القول بالإمام وهو المعروف عندهم بالقطب .

وقد قال الحلاج بالحلول المسيحي واستخدم مصطلحاته وبذلك أدخل إلى الإسلام المفاهيم المعارضة والمنافضة للتوحيد الخالص .

وعنه أخذ عبي الدين بن عربي نظرية الحلول الذي أخذها عن المسيحية المتأثرة بالبوذية كما أخذ بن عربي بفكرة التثليث وذكر عبارات الكلمة والحقيقة المحمدية وكلها مفاهيم مستقاة من الفلسفة المسيحية .

وقد أشار آسرين بلاسيوس في كتابه عن عبي الدين بن عربي إلى تأثير النصرانية في مفاهيمه وقال إن ذلك الأصل المسيحي كانت تشويهه أحيانا بعض أفكار أجنبية أثرت فيه بطريق المجاورة والعدوى ، فتناولها ابن عربي بدون تمحيص ولا انتباه لأصلها ، وهكذا انصفت صوفيته فوق انصافها بروحانية النصراني ببعض مظاهر يستند فيها إلى الأدلاطونية الحديثة الاسكندرية وإلى نظريات القنوص وما فيها من مزيج مضطرب وإلى المزدكية الفارسية بل إلى البوذية الهندية ، .

ولا شك أن هذا المفهوم يخرج ابن عربي من دائرة مفهوم الإسلام
الأصيل خروجاً تاماً .

وقد ركز المستشرقون حول فكرة الحلول والفناء والحب الإلهي لهذا
الفرض ، ولأنهم يرون أن هذه المفاهيم من شأنها أن تخرج المسلمين عن
حقيقة دينهم وعن التوحيد الخالص وعن الجهاد في سبيل الله . ذلك أن
الاعتقاد بالحولية يسقط التكليف كلها ، ومن بينها الجهاد . ومفهوم الحب
الإلهي ، وهو حب الفناء يصرف دعائه عن الاحتفاظ بما يسمى وحدة
الجماعة الإسلامية التي يدعو الإسلام إلى صيانتها ودفع الاعتداء إليها ولا ريب
أن فكرة الحب الإلهي تناقض فكرة الجهاد في سبيل الله تماماً كما تعارض
مبدأ الزواج وتكوين الأسرة .

وقد تنبه المستشرقون إلى مدى خطر إذاعة هذه الآراء وترديدها ، ذلك
لأن فكرة الاتحاد إنما هي في جوهرها تعطيل لأحكام الشرع ، وإنها
تنقض رسالة الإسلام في وحدة الله وتنزيهه عن الخلق وصفاته وهي لكونها
تستتبع فكرة التناسخ تجمع — من الله — علا وجل — موجوداً مستقلاً
وذلك يتناقض مع صفاته جل شأنه وهي البقاء والقيام بالنفس ، كذلك فقد
استهدف الاستشراق بالدعوة إلى الحلول والاتحاد الترويج لفكرة المسيحية
نحو تأليه عيسى النبي والدعوة إلى شيء لا يقره الإسلام وهو التقاء الألوهية
والبشرية أو الالتقاء بين الألوهية والنبوة في إنسان وهذا ما ينشده رواد
المؤامرة على الإسلام وغاية من أكبر غاياتهم .

إن مذهب الحلول يرى خلاف ما يرى الإسلام والدين الحق المنزل
من رب العالمين أياً كان ، ذلك أن مذهب الحلول يرى أن الله والعالم امتزجا
وأن الله والقوى الداخلية الفاعلة في العالم مترادفان ، وهذا ما يسمى بمذهب
الاتحاد بين الله والعالم ، أما الدين الحق المنزل فيرى أن الله والعالم والخلق

والخلق ، والروح والمادة : عنصران اثنان لا عنصر واحد . ولا يقر الاسلام الواحدة التي تقول بأن الله والعالم والمادة والروح والخالق والخلق شيء واحد .

وقد رد المسلمون قول ابن عربي الذي قال إن ذاته وذات الله قد أصبحتا ذاتاً واحدة أو إن مظاهر العالم المختلفة هي مظاهر الله تعالى ، أي ليس لله وجود إلا الوجود القائم بالخلق . والمسلمون يؤمنون بأن الله هو صاحب كل شيء وخالق كل شيء ومالك كل شيء ، ولكنه جل شأنه ليس حالاً أو متحداً بهذه الأشياء كلها ولا بالإنسان ولا يقر الاسلام مذهباً بحلول الله في جسد الإنسان أو الأشياء .

وما قاله ابن عربي من أن الخالق محل فيهم ، هذا المفهوم أجنبي عن الاسلام والعقيدة الاسلامية ، والعقيدة الاسلامية تغايره كل المغايرة .

يقول الامام ابن تيمية : إن الاتحاد بين الخالق والخلق ممتنع ، لأن الخالق والخلق إذا اتحداً فيما أن يكونا بعد الاتحاد اثنين كما كانا قبله ، وهذا تعبد وليس باتحاد ، وإما أن يستحيل إلى شيء ثالث كما يتحد الماء والابن والنار والحديد فيلزم أن يكون الخالق قد استحال وتبدلت حقيقته كسائر ما يتحد مع غيره ، وهذا ممتنع على الله إذ الاستحالة تقتضي عدم ما كان موجوداً والله تعالى واجب الوجود بذاته وصفاته الملازمة له والتي هي كماله ، والتي إذا عدت كان ذلك نقصاً بتنزه الله تعالى عنه .

وقد أشار الامام الغزالي في كتابه فضائح الباطنية إلى فساد فكرة الحلول ووصفها بأنها ضرب من الخماقة ، ذلك أن الحلول لا يمكن تصوره بين عبيد فكيف يمكن تصوره بين الرب والعبد ، ومهما بلغت روح الصوفي من الصفاء فكيف يمكن أن يدعى أن تتكون هي هو ، ولئن سلم أحد بإمكان ذلك بالنسبة إلى نفس واحدة فكيف لا يسلم به لجميع النفوس ،

وعند ذلك يصبح العالم كله آلهة ، فمن المحال أن يحل الله في النفس وأن ينطبع فيها انطباع الحجر في اللبن فإن ذلك من صفات الأجسام .

وعن فكرة الاتحاد يقول الدكتور محمود قاسم مستشهداً بالامام الغزالي :
إن العقل الذي يبرهن لنا على بطلان فكرة الحلول هو الذي يبرهن لنا على أن فكرة الحلول أظهر بطلاناً لأن قول القائل أن العبد صار هو هو الرب كلام يتناقض مع نفسه بل ينبغي أن ينزه الرب سبحانه عن أن يجري اللسان في حقه بأمثال هذه المحاولات . . .

وطريقة البرهنة على فساد ذلك عند الغزالي هو أن يورد ثلاث احتمالات لمثل هذا الاتحاد المزعوم وهي :

(١) إما أن تظل كل ذات من الذاتين موجودة .

(٢) وإما أن تنفي إحداهما وتبقى الأخرى .

(٣) وإما أن ينفيا معاً .

وفي الحالة الأولى لا يكون هناك اتحاد ، وفي الثانية كيف يمكن الزعم بأن هناك اتحاد بين موجود ومعدوم ، وفي الثالثة لا يكون هناك حل للحديث عن الاتحاد بل الأولى أن نتكلم عن الانعدام . فالتناقض واضح في جميع هذه الاحتمالات .

والعقل هو الذي يقرر وجود هذا التناقض والعقل نفسه هو الذي لا يستنسخ قبول هذا التناقض بعد أن جاء الشرع يبين فساد فكرة الاتحاد عند النصارى ، فأصل الاتحاد باطل وحيث يطلق الاتحاد ويقال هو هو لا يكون إلا بطريق التوسع والتجاوز .

[شخصية الحلاج = الحلول] .

وتكشف شخصية الحلاج حقيقة أمره ودهوته .

قال صاحب الفهرست أن الحلاج كان رجلاً عتلاً مشعبذا يتعاطى مذاهب الصوفية وينتحل الفاظهم ويدعى عن أصحابه الألوهية والقول بالحلول : وكان يقول : أنا الحق ، وقد استغوى الحلاج العامة بمخاريق كان يمتدحها من قبل لنشاطه المستور بهذه الأعمال يقول صاحب الفهرست : كان الحلاج جسوراً على السلاطين يروم انقلاب الدول وقال لإمام الحرمين الجويني : إن الحلاج كان يريد قلب الدولة والتعرض لافساد المملكة . وقال ابن خلكان إنه كان على اتصال وثيق بالقرامطة وكما أكثر التطواف في بلاد الخلافة الإسلامية وهو يحمل الدعوة الشيعية والدعوة القرمطية وقد هدته الدولة خطراً عليها وأرادت التخلص منه .

والحلاج يقول بالحلول : أى حلول الله في الإنسان ؛ أى أنه هو والله شيء واحد كما تقول النصارى في امتزاج الطبيعة الإلهية بالطبيعة الإنسانية : ولفظ الحلول يقابل عقيدة التجسد ، والتجسد يقوم على أساس ثنائية الطبيعة الإلهية أو كما يعبر عنه باللاهوت والناسوت الذي وصفته به شخصية المسيح في المفهوم النصراني ومن شبهات الحلاج قوله : إن الأولياء أفضل من الأنبياء ، وإن من بلغ الغاية القصوى في الولاية سقطت عنه الشرائع كلها وحلت له المحرمات ولا ريب أن هذا يخرج مفهوم الحلاج عن دائرة الاسلام تماماً ، وقد قال الغزالي عن نظرية الحلاج : إن اتحاد العبد مع الرب هذه قصة مفضوحة عقلاً غير مقبولة نقلاً .

وقد وصف الحلاج بأنه رجل مجوسى الأصل اشتغل بالمخاريق والحيل وادعى العلم بالأسرار ثم تنهى إلى ادعاء النبوة ثم الربوبية واستغوى غلمان قصر المقتدر بالله العباسي لينفذ بهم إلى تحقيق غايته فأدى ذلك إلى قتله .

وذكر إمام الحرمين في كتابه الشامل : أنه كان بين الحلاج وبين الجنابي رئيس القرامطة اتفاق سرى على قلب الدولة وأن هذا هو السبب الحقيقي في قتل الحلاج .

وقد اتهم بمعارضة القرآن .

واعترف نيكسون بأن الشك حام حول الحلاج وأنه كان يدعو للقرامطة ويبشر بمذهبه المؤمنين والكفرة على حد سواء ، ومن هذا كان الحكم عليه بالموت عادلا والمعروف أن الحلاج حوكم أمام الخليفة المقتدر وكانت قائمة اتهاماته هي :

أولا : مراسلاته السرية مع القرامطة أعداء الخلافة والدين .

ثانيا : قوله أن الحج ليس بفرض ديني عام .

ولقد ترك المسلمون الحلاج سنوات طويلة ينادى في سوق بغداد أنا الله ، أنا الحق ، سبحانه ما أعظم شأني . ما في الجبة إلا الله ، لقد تركوه في شطحه يتكلم بهذا في حالات صحوه .

يقول الدكتور النشار : ولم يقتل الحلاج لأنه أعلن الاتحاد بالله . ولكن الوزير حامد بن عبد العزيز قتله أو طلب من الفقهاء الفتوى بقتله ، بسبب سياسي أو بمعنى أدق بسبب علمي ، أنه في الفترة الأخيرة من حياته نادى بإيقاف ركن من أركان الإسلام العملية وهو الحج ، نادى الحلاج بالحج بالهمة والحج بالهمة نوع من المعراج الصوفي تنقل فيه النفس من مكان إلى مكان مخترقة الحجب واصله إلى سدرتها الأخيرة ، وحين نادى بهذا لم يقتله المسلمون ولكن حين أبغى كعبة في بيته ودعا المسلمين أن يحجوا إليها تقدم سيف الشرع إليه فقتله وقد أشار إلى قتله بسبب هذا ما ذكره في التصوف بل أننا نجد عبي الدين بن عربي يذكر هذا وأقبي الفقهاء بقتله لأنه

أبطل الحج وكان قد طلب أن ترفع إليه الزكاة والصدقة وحاول لإبطال قواعده العبادات .

وقد أشار السيد رشيد رضا (المنار ح ٩ ص ٤٤) إلى ما ادعى الحلاج من مواعظ كان الغرض أن يلقى في روح العامة وأعيان العامة أنه ممن آثرهم الله بعلم الغيب والقدرة على المعجز من الأمور وقال أن أكثر مخاريق الحلاج من باب المواعظ والمواعظ جمع مواعظ وهي الاتفاق بين اثنين أو أكثر على أمر ، والمخاريق جمع مخارق . ومواعظ الحلاج أنه كان يتفق مع أناس من رجاله على ما يلبسون به على الناس بدعوى الكرامات وقد اكتشف ذلك في عصره كدأبته التنوخي في جامع النوارنج (نشوار المحاضرة) ومنه أن رجلاً بصفة مسترشد وإنما هو مخبر فقال له الحلاج : اشته على ما شئت ، فقال أريد سمكا طرياً وكانوا في بلاد الجبل البعيدة عن الأنهار والبحر فدخل بيتاً خالياً من داره وأغلق عليه باباً وعاد بعد ساعة طويلة وقد خاض وحلأ إلى ركبته ويده سمكة تضطرب زعم أنه دعا الله فأمره أن يذهب إلى البطائح قال فصبت إلى البطائح ، فصبت إلى الأهواز وهذا الطين حتى أخذت هذه .

فقال الرجل : تدعني أدخل البيت فإن لم تفكشفي لي حيلة فيه آمنت بك . فقال : سأئك فدخل وبعد عشاء وتغيب انتهى إلى دار كبيرة فيها بستان عظيم وفيها صنوف الفاكهة والثمار والنوار وفيها ماليس في وقته ولكنه محفوظ بمحلة صناعية ووجد فيها خزان مليحة فيها أنواع الأطعمة الناضجة والخوانج لما يهيء بسرعة ورأى في الدار بركة ماء مملوءة سمكا فأخذ واحدة منها وخرج فتبعه الحلاج فرمى بالسمكة في وجهه وصدره وهرب وأقسم الحلاج ليقتلنه إن حدث أحداً بذلك ولو في تقوم الأرض ولم يحدث بها الرجل إلا بعد قتله لعلمه أنه لو أمر أحد المفتونين به إن يقتله فإنه يفعل .

ثالثاً - الإشراق

٢ - مذهب الإشراق مذهب يوناني مستفاد من نظرية الأفلاطونية المحدثة قال به السهروردي ، وهو جماع شطائر من الفلسفة اليونانية الوثنية والفلسفة المجوسية الفارسية ، وجماع آراء وتيارات راجت عند السريان وانتقلت إلى الفكر الإسلامي في عصر الترجمة وتنسب الحسكة الإشراقية إلى افلاطون ثم إلى دعاة الأفلاطونية الجديدة في مدرسة الاسكندرية ، ومذهب الإشراق خارج تماماً عن مفهوم الإسلام ويعبر عن الله بالنور ويصف العوالم بأنها أنوار مستمدة من الله . وهو ما لم يقل به القرآن أو رسول الله أو الصحابة .

ولقد اهتم طائفة من المستشرقين بالسهروردي ونظريته ، ونبشوا الكتب القديمة التي كشف المسلمون عن زيف مفاهيمها وتجاوزوها لإبان عصر الترجمة وأعادوها جذعه بأحياء هذه المفاهيم مرة أخرى وطرحوا في أفق الفكر الإسلامي لإثارة الشبهات والشكوك في نفوس بعض المسلمين الذين لم يكتمل مفهومهم الاصيل ، وكان بروكلين و ا . رتين ، وقادى برج من أوائل هؤلاء فترجموا (هياكل النور) للسهروردي وقام ماسنيون صديق الحلاج بالاهتمام برسائل السهروردي التي جمعها تحت اسم الحسكة المشرقية وأولى ذلك اهتماماً كبيراً بأول كراوس وهنري كوربان وقال هؤلاء أن شخصيته السهروردي وكتبه تمثلان لحظات جوهرية في تاريخ الفكر الإسلامي .

وتابعهم في ترجمة ذلك والاهتمام به عبد الرحمن بدوي وإبراهيم مدكور وأحمد أمين وقد وصف رجال الأصالة الإسلامية مفهوم السهروردي بأنه زائف ومضلل ووافد وليس من مفهوم الإسلام ونسبوه إلى التعميل واتهموه بانحلال العقيدة خاصة في قوله بأن الله قادر على أن يرسل نبيا بعد محمد وأنه كان يعني نفسه .

« ويعتبر المذهب الاشراقي في جملته مذهباً افلاطونياً حمل في جوانبه ما اشتملت عليه التيارات الفلسفية الاسلامية السابقة عليه وخاصة كتابات ابن سينا ويدور المذهب حول فكرة الاشراق ، وهو يصف الله جل شأنه بنور الأنوار ، ويستعمل نظرية العقول العشرة : الوثنية اليونانية ، تحت اسم الأنوار . وقد ابتدع عالماً أوسط بين العالم الحسى والعالم العقلى اسماء الهرزخ ، وأخذ هذا من أفلاطون .

والمذهب خليط من الفلسفة اليونانية والفلسفة الفارسية وكلها وثنية لا تؤمن بالله الواحد وستعارض مع مفهوم التوحيد الاسلامى ، وهناك لاتصال واضح بين ابن عربى والحلاج والسروردي فى الاعتماد على الفكر القديم الهليني والعنوصى معاً .

وشخصية للسروردي تعطى المفهوم الحقيقى لمذهبه وقد وصفه أحد المدافعين عنه والناشرين لفكره : سامى الكيالى بما يكفى فى تصوير حقيقته قال : لم يكن مظهره بما يلقى الهيبة أو الاحترام فى نفوس مستقبليه ، أهمل نفسه أو كاد ، وبلغ به الإهمال حتى كان على حد قول بعض من أرخ له : « ذرى الخلقه ، دنس الثياب ، وسخ البدن ، لا يفصل له ثوباً ولا جسماً ولا يدا ولا يقص ظفراً أو شعراً ، وزادوا على ذلك فقالوا : إن القمل كان يتناثر على وجهه ويسمى على ثيابه وإن كل من يراه يهرب منه . »

هذه الصورة تدل على العقلية ، وتدل على الفكر ، ولم يكن دعاة الاسلام يوماً إلا مثالا للنظافة والسكال والخلق ، وكان رسول الله يعرف قبل قدومه بريح المسك ، وقد وصفه تلميذه الشهرزورى صاحب كتاب نزهة الأرواح بأنه كان فى مستوى العامة يضرب شعره ولحيته إلى الشقرة ، وإنه كان يميل إلى السماع وكان يبدى احتقاراً شديداً لكل مظاهر السلطان والآبهة الدنيوية ، وقد أثار كل المصادر التى كتبت عنه إلى « قذارته » ومنها آثار البلاذ

وأخبار العباد للقروينى وأعلام النبلاء بتاريخ حبيب الشهباء ٤ : وكانت آراؤه خارجة على المفهوم الأصيل للإسلام، وقد كشفت مناظراته مع العلماء من جهل وشك وشعوذة وتضارب حتى اتهموه بالزيف وانحلال العقيدة .

وقد خلط في عقله تلك الفلسفات الأغريقية والهندية والفارسية ، وأراد أن يبدع من هذا المزيج ما أسماه الفلسفة الاشراقية .

ولم يكن هذا كله ليضع السهروردي في الموضع الذى وضع فيه لولا موقفه من خصوم الاسلام وتعاونهم ومراسلاته لإيائهم .

يقول الدكتور عمر فروح : إن التهمة الظاهرة هي الإلحاد ولكن يبدو أن السبب الحقيقي هو أنه أثار شكوك الدولة القائمة بكثرة تطوافه ونشاطه السيامى ، ويروى سيف الدين الأمدى قال اجتمعت بالسهروردي في حلب فقال لى : لا بد أن أملك الأرض فقلت : لملك تعنى بالعلم . قال لا : وكان لا يرجع عما وقع في نفسه من أن يملك الأرض فعلا وكان مصدر حماكته وقتله ٦٣٢ هـ .

ولاريب أن مذهب الاشراق بعيد عن جوهر الاسلام فقد قام مفهوم الاسلام الأصيل على أصول ثابتة من القرآن والسنة الصحيحة واتخذ من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وشيأته نموذجاً تطبيقياً لا يتمداه المسلمون إلى هوى أو بدعة ، ولا يطمعون في زيادة عنه ، مؤمنين بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكتم عن أمته شيئاً ما من دين الله وأنه جاء ليتمم مكارم الأخلاق وأنه هو الذى حذر المسلمين من دخول جحر الضب الذى دخله من كان قبلهم : يعنى هذه الوثنيات من الفكر البشرى الزائف الذى قدم من الأغريق وفارس والهند .

٣ - نظرية الفناء : فكرة هندوسية ومستمدة من البوذية، وهى تقول

بفناء النہائی فی اللانہائی ، وخطاها انہا تجعل الخالق والمخلوق شيئاً واحداً
ويقول الباحثون أن كلام للصوفية فی الفناء أدى بهم إلى القول بالاتحاد
دخل إلى الفلسفة الصوفية من كتب البوذية التي أثرت فی ابن سبعين السعدي
الذي تقول أن المحب يغنى فی محبوبه حتى لا يكون فرق بين محب ومحبوب .
ولا يقر الاسلام مذهباً بفناء الذات الانسانية فی الذات الالهية .

٤ - فكرة الإنسان الكامل تأثر فيها المتصوفة بشعر الفرس وتبنوا
ما فيه من نزعات حلولية التقت عندهم بفكرة وحدة الوجود اليونانية
وتبلورت فی شعر ابن الفارض وابن عربي ، وبلغت نہايتها فی نظرية الإنسان
الكامل لابن عربي . وليست فكرة الإنسان الكامل إسلامية المصدر فهي
بما ورد فی كلام أرسطو وأفلاطون ثم ردها الفارابي وجماعة إخوان الصفا
واستعملها محي الدين العربي فی مؤلفاته ، وهي محور تعاليم البرهمية . ومصدرها
المانوية الإيرانية القديمة . كما ترد نفس هذه الفكرة فی فلسفة فيلون وفي
الفلسفة البوذية حيث يكون بوذا أكمل مخلوقات الله .

ونستهدف فكرة الإنسان الكامل لإيجاد قطب أو وسيط للوصول إلى الله
سبحانه وتعالى ولذلك فإن هذه الفكرة يسقطها الاسلام ويرميها بالزيف والفساد
إذ لا يقر الاسلام وجود وسيط بين الخالق تبارك وتعالى وبين الإنسان .

ويتصل بهذه النظرية الكلام عن الحقيقة المحمدية وتصوير النبي ﷺ
بصورة غريبة حقاً بعيدة عن الصفة التي يصفه بها القرآن والتي يصفه بها
الصحابة وكبار التابعين .

ابن الفارض :

فهم ابن تيمية مذهب الفارض على أنه وحدة وجودية مبنية على الحلول
والاتحاد وعنده : أن مثل القائلين بوحدة الوجود كمثل النصاري .

وأن في قول هؤلاء من المكفر والضلال ما هو أعظم مما في قول اليهود والنصارى وقال ابن تيمية أن موقف ابن الفارض لم يكن موافقاً لتعاليم الإسلام ولا ما عرف عن النبي والصحابة والتابعين ومن إلى أولئك جميعاً من السلف الصالح وأن القول بوحدة الوجود والحلول هو من سوء الاعتقاد ما ينافي الإسلام الصحيح .

وهذا الذي يراه ابن تيمية في ابن الفارض هو رأيه في ابن سبعين والحلاج والكرماني وعفيف الدين القلساني من القائلين بوحدة الوجود التي يصدر أصحابها عن أصليين باطلين يخالفان دين الإسلام مخالفتها للمعقول والمنقول وأحد هذين الأصليين هو أن الحلول والاتحاد وما يقاربهما من قول بوحدة الوجود هو مذهب القائلين بأن الوجود واحد لا فرق في ذلك بين الوجود الواجب للخالق والوجود الممكن للمخلوق .

أما ثاني الأصليين فهو الاحتجاج بالقدر على فعل المحذور . والقدر في رأي ابن تيمية يجب الإيمان به ولا يجوز الاحتجاج به على مخالفة أمر الله ونهيه ووعده ووعيده .

وقد ناقش هذا الاتجاه وأدانه كثيرون منهم ابن حجر العسقلاني وبرهان الدين إبراهيم البقاعي الذي ألف كتابين تناول فيهما ابن عربي وابن الفارض وأبان عن ضلال مذهبهما وفساد عقيدتهما وانحلال خلقهما .

— تنبيه الغبي على تكفير ابن عربي .

— تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد .

وقال عضد الدين الأيوبي صاحب المواقف عن ابن عربي أنه كان كذاباً حشاشاً كأوغاد الأوباش وأن قولهم أن وجود الكائنات هو الله تعالى يعني أنه لا نبي ولا رسول ولا مرسل ولا مرسل إليه .

وقال أن ابن عربي له خداع كثير غر به خلقاً فأنى عليه لذلك قوم من المؤرخين خفى عليهم أمره وأن العلماء اتفقوا على تكفيره بحيث أصبح ذلك أمراً إجماعياً ، وقال أنه لم يوجد لابن الفارض في كل عصره من ذكره بحالة ثناء عليه بمقالة أو ولاية ولا ظهر منه علم من العلوم الدينية ولا مدح النبي بقصيدة واحدة مع كثرة سفره فدل بذلك على سوء طويته ، وأن القدح قد نقل فيه نقلاً قطعياً عن محبيه ومبغضيه .

وأن شراح تائيدته وكلمهم من التابعين لطريقته ، والمنتقدون عليه من أهل السنة أن أهل زمانه وكلمهم من أهل الشريعة رموه بالفسق والإباحة وقد عدد البقاعي نحواً من أربعين عالماً كلمهم من دعائم الدين من عصر ابن الفارض إلى عصر البقاعي وكلمهم يرى الرجل بما ينظمه في سلك الكفر أو الزنادقة أو الملحدين أو الإباحيين ويخرج مذهبه فيسلكه في عداد المذاهب الضالة والمقاند الفاسدة . ومن هؤلاء عز الدين بن عبد السلام وابن دقيق العيد وتقي الدين السبكي وبدر الدين بن جماعة وزيين الدين الحنفى وبتهم البقاعي ابن الفارض وابن عربي في خلقهما ويؤيد اتهامهما بما أشار إليه صاحب المواقف من أنهما كانا يصطنعان الحشيش ومن أن ما اتهمنا إليه من تقريره الوحدة ونفى الأثنية إنما هو ضرب من الوهم والخيال الذى يحصل في العقل من فعل الحشيش .

وأن ابن الفارض من المعتنقين لوحدة الوجود والقائلين بالاتحاد والحلول ، وهذا يجعله خارجاً على تعاليم الكتاب والسنة . وأن ابن الفارض يضع ما يسميه الحقيقة المحمدية في مقابل الحقيقة الإلهية .

وقال أن نظرية اللاهوت والناسوت التى قال بها الحلاج ، قال بها ابن عربي وابن الفارض وهى تمثل المنصر المسيحي الذى اختلط بالفكر الفلسفى الصوفى ، وأنه تريد لقول اليعاقبة الذين كانوا يرون أن المسيح هو الله

والإنسان اتحداً في طبيعة واحدة هي المسيح ، وأن اللاهوت والناسوت لم يردا في كلام العرب ولا في الشرع وهي من موضوعات النصارى :

قال تعالى : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم » .

ثم استعملها الحلاج ، استعمل هذا اللفظ وأكثرت استعماله فكان الحلاج بحق ممثلاً لهذا الأثر المسيحي في النصوص الفلسفية ، وصلة ذلك بالأفلاطونية المحدثة .

(ابن الفارض والحب الإلهي : دكتور مصطفى حلى)

وقد أولى المستشرقون ابن الفارض اهتماماً واسعاً ، وترجم إميل در منجم ما أسماه « خمرية الساطن العاشقين » ، وقدم لها مقدمة عن التصوف وقال أنها ستلقى ما لا يقل عما لقيته رباعيات الخيام من الخطوة .

وقد ترجم شعر ابن الفارض إلى اللاتينية منذ القرن السابع عشر ، وإلى الإيطالية والألمانية والإنجليزية .

(٣)

يحاول التصوف الفلسفي تزييف مفهوم الإسلام في عدة مواضع :

(أولاً) لا يقر الإسلام مذهباً يقول بحلول الله في جسد إنسان أو فناء الذات الإنسانية في الذات الإلهية كما لا يقر القول بوحدة الوجود أو أن الله هو مجموع هذه الموجودات والإسلام يقول بأثنائية الوجود أي الله والعالم فاقه خالق والعالم مخلوق والله مدبر والعالم مدبر وليس الله حالاً في العالم وإنما هو خالقه ومدبره والله بيده الخير والشر يثيب الناس ويعاقبهم بما يعملون .

(ثانياً) لا يقر الإسلام القول بإسقاط التكليف ورفع فرضية أداء العبادات عن الفرد - أي فرد - بدعوى أنه من وصل إلى الله تسقط عنه التكليف .

وهذا قول لم يعرفه المسلمون أيام رسول الله وهم قلة المسلمين في كل عصر ،
فقد عاش رسول الله وعاش المسلمون حياتهم يؤدون العبادات والفروض
دون أن تسقط عنهم .

(ثالثاً) لا يقر الإسلام عقيدة الجبرية ولا فكرة الزهد ، بمعنى
السلبية والانقطاع عن الجهاد والعمل ، فإن الإسلام يدعو إلى بناء الإرادة
والكسب وينكر الانصراف عن الدنيا .

(رابعاً) لا يقر الإسلام دعوة التصوف الفلسفي بالتحول من الخوف
من الله إلى الرجاء فيه ، وإنما يقر بقاء الخوف والرجاء معاً في نفس المسلم
يتراوحيان ويحيثان .

(خامساً) فساد القول بأن التصوف لغة عالمية أو أن التصوف أدخل
بمجموعات كثيرة من الوثنيين في الإسلام أو أعطى الإسلام مادة الطراوة في
مجتمع بلغ ذروة الجفاف .

وهذه كلها من سموم الاستشراق والغزو الثقافي ، أما التصوف الذي
أدخل الناس في الإسلام فهو التصوف الأصيل وليس التصوف الفلسفي
الزائف ، أما مسألة الطراوة والجفاف ، فالإسلام لا يعرفها لأنه يجمع بين
العقل والقلب .

أما التصوف الذي يقره الإسلام فهو الذي لا ينكر أصلاً من أصوله
ولا فرعاً من فروعه .

فالإسلام لا يقر الدعوة للانفصال عن الدنيا أو تحقيرها أو اعتزال
الناس أو تعذيب البدن بتحريم الطيبات كما يحرم في نفس الوقت الترف
والامراف ، كما لا يقر رفع التكليف أو إلغاء الشريعة في أي طور من
أطوار المسلم .

وقد ظلت الفطرة الإسلامية دائماً بمنأى عن تعقيدات التصوف الفلسفى وإن هذه القضايا قد هزمت منذ أثيرت وتحقق فسادها ، وتخاصر الفكر الإسلامى منها ومضى فى طريقه ، حتى جاء الغزو الثقافى لابتعاثها من جديد .

(٤)

لا ريب أن هناك شبهات تسكن وراء تاريخ التصوف الفلسفى ، فقد ارتبط هذا التصوف بمواقف سياسية تؤكد أنه كان أسلوباً من العمل لخدمة الدولة الإسلامية وكان ستاراً لحركات هادمة من حركات الباطنية أو القرامطة أو الزنج أو غيرهم ، وإنما استهدفت صرف العامة إليهم وقد حاول الاستعمار فى العصر الحديث الاستعانة بالتصوف لمثل هذه الغاية ولصرف المسلمين عن حقيقة دينهم وإغراقهم فى جو من الغموض والتسكينات بما يرخى عن يمتهم عن الكفاح لتحرير أوطانهم وعن الجهاد وعن الوضوح الإسلامى فى فهم الأمور وعن القوة . وقد كان مستشرقوا التصوف الفلسفى جزءاً من المخطط السياسى الاستعمارى .

وإذا كان الحلاج والسهروردى قد قُتلا فهما لم يقتلا لأيهما وإنما قُتلا لتأمرهما .

(٥)

يقوم المفهوم الإسلامى الأصيل على :

أولاً : إن الله سبحانه وتعالى خالق كل شئ واحد لا شريك له .
خلق كل شئ سواء أكان ذلك الشئ طائفة من الطاقات المحضة كالمغناطيس والارواح والملائكة أو مادة من المواد كالجنادات والنباتات والحيوانات .

ثانياً : إن الخالق الأعظم ليس هو جزءاً من مخلوقاته ولا هي جزء منه ولا تماثله في ذاته وصفاته وأفعاله ، وهي مخلوقة بعلمه وإرادته وقدرته .

ثالثاً : إن دلائل وجود الخالق العظيم تبدو في مخلوقاته لأنها من آثار قدرته ومخلوقاته مهما أثبت من علم فإنها لا تحوط به علماً .

رابعاً : دعا الإسلام إلى الأخذ بألوان من العبادات والمجاهدات لتعميق مفهوم التقوى والورع وهذا لا يعني بأي حال الزهادة بمعنى الانصراف عن الدنيا أو الانقطاع إلى العبادة وترك العمل والكسب ولم يحرم الإسلام سوى الانغماس في الشهوات التي تشغل القلب عن ذكر الله .

خامساً : لا يقر الإسلام إسقاط الشرائع والفرائض لأي سبب من الأسباب وما دعا إليه الحلّاج من إسقاط الشرائع يخرجّه هو عن الإسلام ، وليست رسوم الشريعة في الحقيقة مظاهر تختلف عن أعمال القلوب ولكن العبادات لها مظاهرها والتي هي جزء لا يتجزأ من مداخلها .

(٦)

إن فكرة التقاء الأديان أو أن التصوف لغة عالمية هي من أخطر الدعوات وأشدّها فساداً ، وأبعدّها عن مفهوم الإسلام ، وهي ما يقول به أصحاب وحدة الوجود والتي بروج لها الاستشراق الذي دعا إلى انبعاث الفكر الفلسفي الصوفي في العصر الحديث ، فليس صحيحاً أن الاختلاف في الأديان اختلاف في المظاهر ، وليس صحيحاً أنها جميعاً تسلك طريقاً إلى الله فإن مفهوم التوحيد الخالص الذي يبرأ الله من التعدد والشريك لا يوجد إلا في مفهوم الإسلام .

وكل أشعار جلال الرومي وكتابات ابن عربي في هذا الصدد زائفة ومضللة وليس صحيحاً أن الإيمان والكفر لا يختلفان أو أن أصحاب الأديان وعبداء الأصنام متفقون في هدف واحد ، أو أن التوراة والقرآن واحدة ، ونحن نعرف أن التوراة كتبها أحبار اليهود وليست هي كتاب الله المنزل على سيدنا موسى .

كذلك فإن من أسوأ ما يدعو إليه دعاة التغريب التهويل في الخلاف بين الصوفية والفقهاء ، وهو خلاف زمني انتهى وصفي ، لم يعد الآن موجوداً كذلك فإن القول بتقسيم المسلمين إلى طوائف وجعل أصحاب مفهوم الأصالة الإسلامية طائفة ، هذا لا ريب يمثل مغالطة شديدة فإن أهل السنة يمثلون تسعون في المائة من تعداد المسلمين وهم ليسوا طائفة بمعنى الفرقة ، ولكنهم هي الأغلبية الساحقة التي تمثل جماعة الأصالة الذين يستمدون مفهومهم من القرآن والسنة الصحيحة .

كذلك لا يقر الإسلام المبالغة في الحديث عن كرامات الأولياء وإتيانهم بالحوارق ، ويرى أن هذه أمور خاصة تتعلق بالأفراد وليس لها أثرها أو تأثيرها في المجتمع ، وإنما لا تحول مطلقاً دون أداء الفروض العبادية والالتزام بالشريعة ، وإن المسلم مهما بلغ من درجات الإيمان أو الولاية لا يسقط ذلك عنه فرضاً أو التزاماً .

(٧)

يقف الإسلام من التصوف الفلسفي موقفه من الاهتزال تماماً فكلاهما لا يمثل الإسلام ولا يعبر عنه ، فالصوفية يتخذون القاب أداة للمعرفة وقد أنكروا على العقل قدرته على فهم الألوهية وأسرارها وهم يتحصنون بالقلب في مواجهة المعزلة الذي يتحصنون بالعقل .

والواقع أن مفهوم المعرفة الإسلامى الأصيل : يجمع بين العقل والقلب ، فالقلب يدرك الغيب والوحى ، والعقل يدرك الشهادة ويصدق الوحى .

ولا ريب أن الاستشراق ودعوة التغريب والمؤامرة على الإسلام من شأنها أن تفصل بين المفهومين وتجعلهما فى موقف التضارب والاصراع فيقف جماعة من المستشرقين إلى جانب المعتزلة يعلنون من شأن العقل ويقف جماعة منهم إلى جانب الصوفية يمجدون الحدس والوجدان .

والإسلام فى مفهومه الأصيل يجمع بين القلب والعقل والشريعة والحقيقة وترايط الظاهر والباطن ، ويؤكد أنه ليس هناك معرفة عن طريق للقلب مستقلة أو معرفة عن طريق العقل مستقلة أبداً ، وإنما هناك مفهوم جامع هو الإسلام .

ويؤكد الإسلام فمكرة الاستواء فى السر والعلن حتى يكون باطن المرء متحققاً فى ظاهره وحتى لا يكون هناك فاصل بين ما يسمى بالباطن والظاهر سواء فيما بين الانسان وبين الله أو بين الانسان والناس ويقرر أن أعمال الباطن مبدأ لأعمال للظاهر وأعمال الظاهر آثار لها دلالتها فان كان الرجل صالحاً كانت الآثار صالحة . يقول ابن خلدون : للشريعة حكما على المكلفين من حيث ظاهر أعمالهم وحكما عليها من حيث باطن أعمالهم ، لا ما يجره به بعض الباطنية ويخرقونه من أقوال سفسافة ناقضة لمعاقل الشريعة ، فالشارع لم يظهر حكماً ويبطن آخر (تعالى الله عما يقولون علواً عظيماً) .

ولا ريب أن طريق الحق واحد ، أما الباطل فسيبله كثيرة لهذا اختلفت مذاهب ونظريات الانحراف والمنحرفين وبدأ طريق الله واضحاً (وإن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

كما يؤكد الإسلام بشرية الرسول (صلى الله عليه وسلم) تلك البشرية التي تؤكد للحقيقة الألوهية : حقيقة التوحيد (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما لأحكم إله واحد) وقد فرق الإسلام بين الألوهية وبين النبوة ، و فرق بين عصمة الأنبياء وبين قدرات غير الأنبياء مهما كانوا من صالحين وأقطاب وأولياء فهي لا تنقسم بالعصمة مطلقاً .

وكذلك ربط الإسلام بين الحقيقة والشريعة في مفهومه الجامع : يقول الإمام الطرطوشي : زادوا في الدين أمراً هو هدم الدين ، هو زعمهم أن الشريعة شيء والحقيقة شيء آخر ، فإذا اقرت أحدكم ذنباً فأنكر عليه منكر قالوا في المجرم أنه من أهل الحقيقة فلا اعتراض عليه وفي المنكر أنه من أهل الشريعة فلا التفات إليه وكأنهم يرون أن الله تعالى أنزل للناس دينين وأنه يحاسبهم بوجهين ويعاملهم معاملةتين ، .

ولا ريب أن السنة ترشد في صراحة لا لبس فيها إلى أن الشريعة والحقيقة كليهما ينبعان مباشرة من تعاليم الرسول وأنها متكاملتان .

ويصدق هنا القول : بأنه لو كانت هناك تعاليم مبرية في الإسلام تخفى وتطوى لعرف العلماء والفقهاء هذه التعاليم ولتحدث عنها القرآن المجيد .

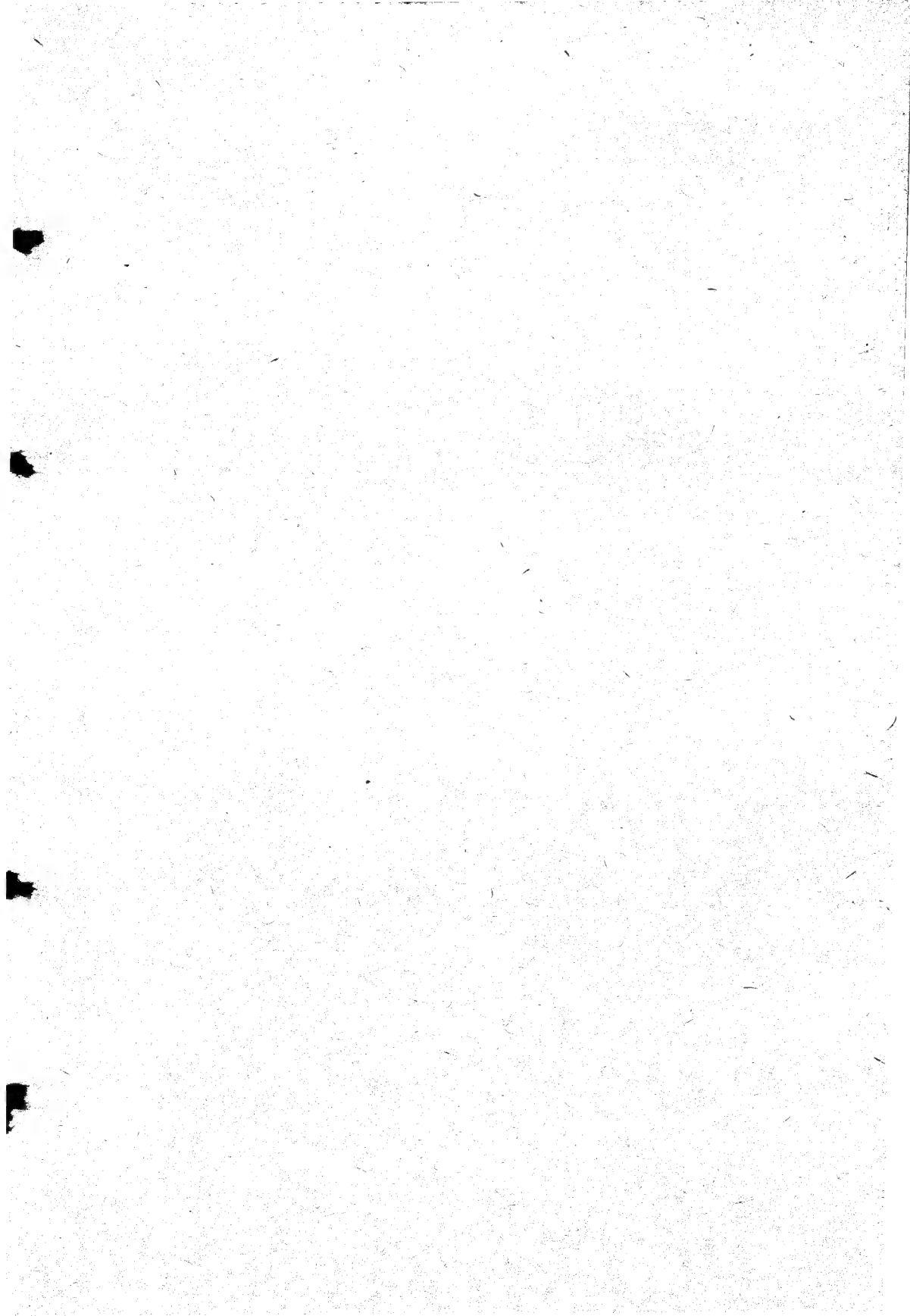
(٨)

هذه المفاهيم أدخلها إلى الإسلام أتباع المجوسية لتحريف الإسلام في ظروف الضعف والانهيار ، وذلك في جملة الحقود على قوة الإسلام وبرغبة هدمه ، وواصل المستشرقون هذه الحملة وأتباعهم من دعاة التعريب لنفس الهدف .

وقد قطع الشيخ عبد القادر الجيلاني في هذا الأمر بقوله :

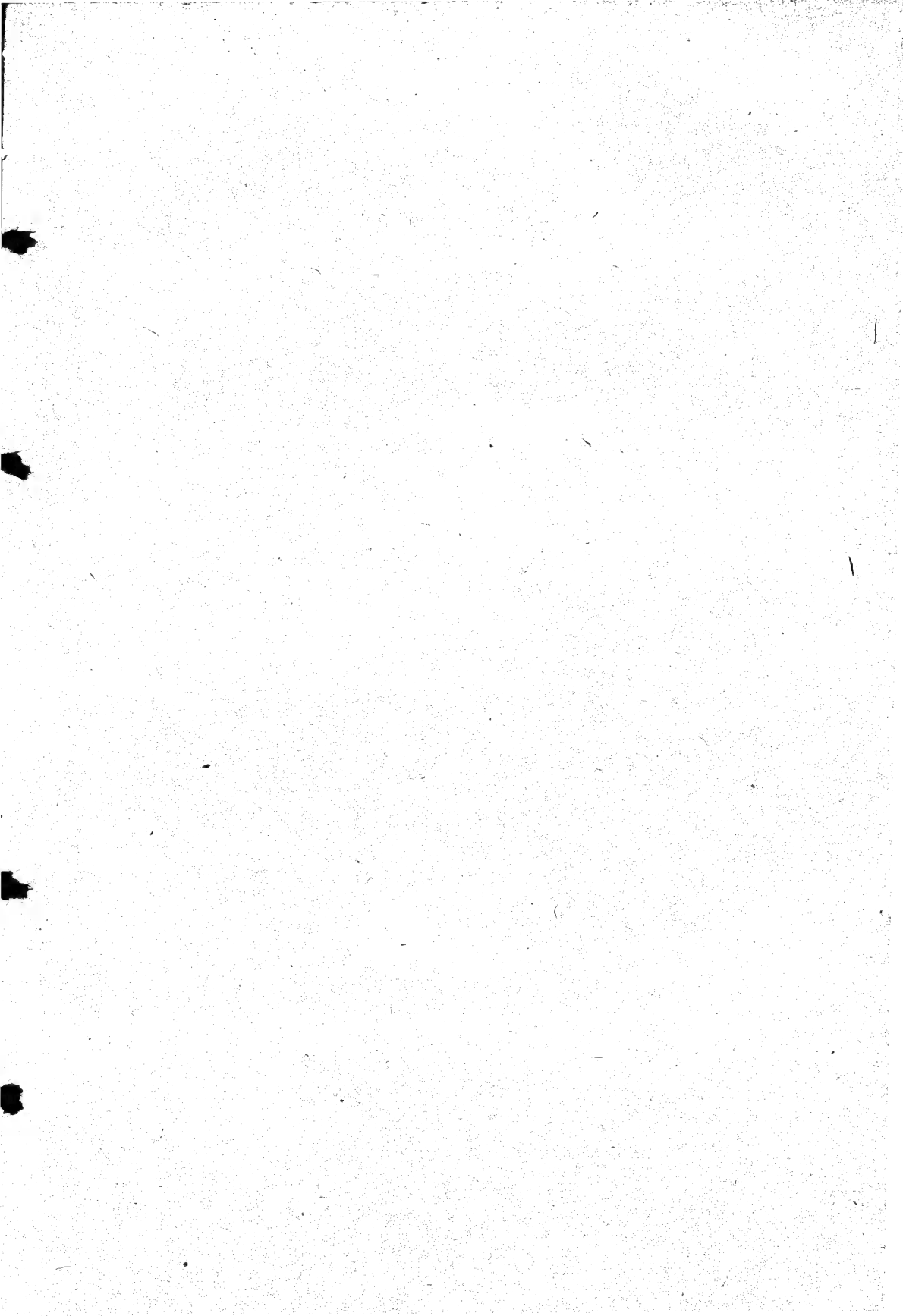
كل حقيقة خالفت الشريعة فهي زندقة : الشرع هو ظاهرها والشرع هو باطنها ، وإذا رأيت الرجل يطير في الهواء فلا تعتبره حتى تزن أقواله بميزان الشرع .

ولا ريب أن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا رهبانية في الإسلام ، كان شجباً للانحراف نحو الزهد المسيحي . وقال عليه الصلاة والسلام : « جنتكم بالحنيضة البيضاء ليالها كنهارها لا يزيغ عنها الاهاالك ، وقد عمل الفسك الإسلامي على توالي العصور على تحرير نفسه من هذه ، المداخلات الوثنية المسيحية واليهودية والفارسية والهندية .



الباب الثالث

إحياء الفكر الفلسفي



وقف الإسلام من تراث الفلسفة المترجم من اليونانية والفارسية
والهندية موقفاً واضحاً صريحاً هو أن هذه المدرسة التي اشتغلت بالفلسفة
وعلى رأسها (الكندي وابن سينا والفارابي) هي امتداد للمدرسة اليونانية
الإغريقية وأنها ليست نتاجاً إسلامياً خالصاً وأن الإسلام منطلقه إلى
الفكر الفلسفي الإسلامي عن الطريق الذي بدأه الإمام الشافعي بكتابه (علم
أصول الفقه) ، وقد تحدد موقف المسلمين من الفلسفة المهادية اليونانية
وغيرها منذ اليوم الأول لترجمتها ، ووقف منها أهل الإصالة الإسلامية
موقف المعارضة الصريحة والشجب الكامل .

وحكم الإسلام على هذا الركام الضخم المتخلف عن دما قبل الإسلام ،
سواء من الفكر الففوصى الشرقى أو الوثنى الهليني هو لأنه لا يمثل المفهوم
الأصيل ولا يعتبر من الفكر الإسلامى وإنما جاء الإسلام لردّه والكشف
عن زيفه وإبطال دعواه القائمة على الأهواء البشرية الطامعة إلى الخروج
عن حدود الله والخطورة الإنسانية وأن البحث الذى قام به علماء المسلمين
(الشافعي ، الغزالي ، ابن تيمية) فى مقدمتهم قد انتهى إلى إثبات شخصية
إسلامية متميزة فى مجال المعرفة والمنطق تختلف اختلافاً واضحاً عن المفهوم
اليونانى الهليني ، كما كشفت أن المحاولة التى قام بها ابن سينا والفارابى فى
تقريب أو تطويع أو ربط الفلسفة اليونانية بالتوحيد الإسلامى هى محاولة
فعلت وعجزت عن أن تحقق شيئاً لأنها حاولت أن تعبر الوثنية
اليونانية وعلم الأصنام فى إطار التوحيد ، وأنها اعتمدت على مصادر ثبت
فساد نسبتها إلى أصحابها وقد دخلها تحريف كثير ، ولقد صفى المنهج الإسلامى
الأصيل هذا الركام الذى ترجم من الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية
جميعاً وحكم عليه فى إبانته ونهاوزه وتحرر من سلطانته ، فلما جاء العصر

الحديث حرصت قوى الاستشراق والتغريب والذو الثقافي على إحيائه من جديد وإثارة قضاياها وتصوير الفكر الإسلامى بأنه فكر قد تفكك متأثراً بالفكر اليونانى وأن أرسطو كان له عند المسلمين مكانا كبيرا . ومنذ جاء المستشرقون يدرسون مادة الفلسفة فى الجامعة وهم يفرضون مفهوما زائفا هو أن الفلسفة الإسلامية هى فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية ثم يحى من يترجم مؤلفات أرسطو بدعوى أن هذا الفيلسوف كان له أثره فى للفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية فى إبان النهضة وأن من شأنه أن يجدد النهضة التى يعيشها العالم الإسلامى المعاصر .

ولم يكن هذا القول صحيحا ، لافى جملته ولا فى تفصيله ، ذلك أن الفكر الإسلامى الأصيل قد رد أرسطو والفكر اليونانى كله وحكم بأنه فكر مجتمع عبودى يختلف اختلافا واضحا عن المجتمع الإسلامى ، ولكن تيار التغريب غذى هذا الاتجاه ونماه على نحو أغرى به الكثيرون وظن بعض المثقفين أن للفكر اليونانى مكانة وأثرا فى الفكر الإسلامى من قبل جديدة بأن تجعل لوليد الفكر الغربى أثرا فى الفكر الإسلامى الحديث .

وتلك هى أخطر الدعاوى التى حملها الدكتور طه حسين وهى قلة المؤامرة على الاسلام ، ولقد كان فى تقدير حركة التغريب والفزو الثقافى أن يحدث هذا العمل فى العصر الحديث ما أحدثت الترجمة فى العصر الإسلامى الأول: وكيف أغرق الفكر الفلسفى اليونانى إذ ذاك فكر الاسلام فى دوامة عريضة عميقة خلال قرنين من الزمان أو أكثر، ولذلك عمدوا على تجديد بحث الفلسفة اليونانية التى تسمى علم الأصنام عند اليونان وفلسفات المجوسية والمزدكية والبابكية وغيرها من الفكر الشرقى الغنوصى وعنوا بفلسفة التصوف القائمة على وحدة الوجود والحلول والاشراق ووجدوا الأبحاث القديمة المدفونة التى رفضها المسلمون ودحضوها وكشفوا زيفها وفسادها وأعادوا النظر فيها

من جديد حتى نرى اليوم هذه الكتابات المسمومة التي تحاول أن تصف الفكر الاسلامي المعاصر بالقصور لانه متخلف في مجال الفلسفة ، وترى هذه المحاولات الجارية لانشاء ما يسمى فلسفة عربية ، حتى يكون لها طريق مستقل عن الفلسفة الاسلامية ، وكل هذا يستهدف واحتواء الفكر الاسلامي بالفلسفات القديمة والفلسفات الحديثة على السواء ، ويرون أن شبلي شبل هو الذي بدأ طريق الفلسفة العربية حين دعا إلى مذهب دارون بتفسيره بغيره ، هذا المفهوم المادى الشديد الحملة على الدين والأخلاق والعقائد . الذي يستهدف أن يسقط الفكر الاسلامي الحديث فيما نحاهم الفكر الاسلامي في الماضى حين تحرر من أضرار الفلسفات الوثنية والمادية وأعاد تركيب نفسه وفق مفهوم الاصلية الاسلامية تحت اسم « مذهب السنة والجماعة » ، وما زالت هذه المحاولات كلها التى تتجدد واتى يقودها جميل صليبا وعبد الرحمن بدوى وجورج حنا ولويس عوض وزكى نجيب محمود ودعاة الماركسية والتفسير المادى للتاريخ ودعاة الوجودية تستهدف هذا الغرض معتبرين أن (الفكر العربى الحديث) هو فكر مستقل لاصلة له بالاسلام وانما هو ابن الحملة الفرنسية والرساليات التبشيرية المسيحية البنانية ، ولذلك فهو حر فى أن ينطلق بعيداً عن الاسلام وأن يطوِّض تجربة الاحتواء الغربى الماركسى الليبرالى الوجودى الخ .

ومن هنا كانت الحملة على الشافعى وابن حنبل والأشعرى والغزالى وابن تيمية لانهم هم القذى فى عيون كل محاولات احتواء وتغريب الفكر الإسلامى ، ولانهم هم الذين فتحوا الطريق إلى اصاله الفكر الإسلامى . وسوف يخوض المفكرون المسلمون التجربة مرة أخرى على نفس مبادئ الإسلام على النحو الذى مهد له الشيخ مصطفى عبدالرازق وسار فيه بخطوات

واسعة الدكتور سامي النشار ومحمد علي زيان ، وهذه المدرسة ومن تابعها على طريق الاسلام الصحيح .

ومن هنا كانت مؤامرة الصمت لإزاء كل من عارض الفلسفة اليونانية من أعلام الفكر الإسلامي مع إبراز وإعلاء كل الأسماء التي حملت لواء الفلسفة قديما بما يسمونهم الشراح فكتبت عشرات الأبحاث فيهم وجلهم لا يسلم في مقياس الأصالة الإسلامية للحكم عليهم ، وأخطر من تصوب إليهم أسمهم الاتهام : الفارابي وابن سينا .

وبما لم يكشف عنه مجدود الفلسفة الإسلامية القديمة : أن هؤلاء الشراح قد أطلق عليهم اسم المشاءون المسلمون واعتبروا امتداداً للفلسفة اليونانية والعقل اليوناني ، ولقد لفظهم المجتمع الإسلامي لفظاً تاماً ، كما لفظ شعراء الإباحة والغلة أمثال أبو نواس وبشار واعتبرهم خارجين عن المجتمع الإسلامي الأصيل ، ولم يدافع عن هؤلاء وأولئك إلا المستشرقون لهُوى في نفوسهم ، هو أن يعمثوا في المجتمع الإسلامي المعاصر والفكر الإسلامي الحديث تلك الفتن والأحن والشبهات والسموم التي أثارها الفلسفة اليونانية التي ترجمها السريان وأرادوا بها إدخال مفاهيم المسيحية بالاضافة إلى مفاهيم الوثنية لضرب قاعدة التوحيد التي هي عماد الاسلام .

(أولاً) هناك إجماع على أن دخول الفلسفة إلى الفكر الإسلامي هو الذي أسقط صرح الحضارة ، فقد كانت طابع شؤم ونذير سوء وإيذانا للعرب بزوال سلطانهم ، انتهى إلى المأمون زمام الخلافة العباسية فشجع للفلسفة وعمل على ترويجها وتمسك من جلب أشهر كتب الفلسفة من اليونان والصين والهند ، وعهد بترجمتها إلى محترفي الترجمة من السريانية والكلدانية والسكسرية والفارسية .

وجرى العمل على ترجمة مختلف المذاهب والفعل الدخيلة وإباحة الجهر

بمختلف الآراء فتشاع في زمنه الشك وراج الباطل وهبى الرياح الصفراء من وراء هذه الإباحية تحمل في طياتها جراثيم المذاهب المختلفة والنحل المتعارفة . وظهرت الفرق التي كادت تؤلف بأرائها وعقائدها أدباً جديداً فلم تلبث الدولة إلا قليلاً حتى حطت على جمعا من المغيرين من التتر والمغول فقوضت دعائمها وكان الكثير من أتباع هذه الفرق أهواناً للمغير على تحقيق هذه الغاية .

وخسر العرب عقيدة الإيمان الفطري وقوة الاعتقاد النقي ، وتركوا الدين إلى أيدي المتكلمين والمتفهمين والمخدوعين ليلبسوه أثواباً حلقة ملونة من الآراء الافتراضية التي أبغضت ذلك وأثارت الفتنة وبلبلت الألبسة .

(ثانياً) إتهام الإمام الغزالي بأنه جحد الإنطلاق الفكري والفتافي عند العرب : حين وقف من الفلسفة الإلهية موقفه المشرف في دحضها والكشف عن ريفها .

والواقع أن هناك حملة منسقة تدعو العرب إلى الفلسفة الغربية وتحرضهم عليها وتدفعهم إلى الجري وراء مطامعها وصراعاتها ، وهي تصور العرب بصورة التخلف لأنهم فقراء في مجال الفلسفة منذ وقف الغزالي موقفه ، وتلك ولا ريب خدعة مضللة ، ذلك لأنه ليس من الضروري أن يضطرع المسلمون والعرب في أنون الفلسفات وهم ليسوا في حاجة إليها حاجة الأوربيين الذين عجزت عقائدهم أن تدمم بالمفهوم المتناقضين الكامل والصحيح والاصيل سواء في علاقتهم بالله تبارك وتعالى أو بالكون أو بفهم الإنسان من حيث هو إنسان ، ومن شأن هذا النقص في الفكر الغربي اللاهوتي ومع اضطرابه لأنه ليس في حقيقته إلا تفسيرات بشرية ؛ اضطرب الفكر الغربي إلى إنشاء هذه المذاهب والأيديولوجيات لسد النقص ، هذه المذاهب والأيديولوجيات المضطربة الذاهبة وراء كل الرياح التي تهب من أهواء النفس سواء في الليبرالية

الفردية أو الفرويدية أو الوجودية أو الماركسية والتفسير المادى والتفسير
الاقتصادى والتفسير الجنسى والتفسير الجغرافى للحياة والتاريخ والحضارة -
أما المسلمون فلهيهم منهج متكامل للبتا فيزيقيا السكونية والإنسانية هو ربانى
المصدر ، وهو في نفس الوقت قادر دائما على إعطاء النفس البشرية أمنا
وسلامتها وطموحها وحاجتها المادية وأشواقها الروحية دون أن ينقصها شيئا
في تكامل وتوازن بعيداً عن سرف الترف أو فساد الرهبانية .

فهذه الحجرة التي نراها في الثقافة العربية ، إنما تصدر عن تلك الصيحات
التي يطلقها التابعون للفكر الغربى المسيحي ، أما في مجال الفكر الإسلامى
فان المسلمون يعرفون أنهم ليسوا في حاجة مطلقا إلى هذا الصيحات العالمية
في الدعوة إلى أسلوب النافسة والمسلمون لا يرون الأسلوب الفلسفى أسلوبا
كاملا ولا صحيحا ، وإنما هو أسلوب مرحلى ، قد يأخذ به المسلمون في فترة
ما كما أخذوا به في أول عهد الاعتزال في مواجهة الكلام المسيحي واليهودى ،
وكما أخذ به جمال الدين وعبد عبه وإقبال وغيرهم في مطالع عصر البقظة
الإسلامية وفي مواجهة تحدى التغريب والغزو الفسكرى .

أما الأسلوب الصحيح والأصيل الذى يراه المسلمون سبيلهم فهو الأسلوب
القرآنى والمنهج القرآنى .

ولقد كشف الإمام الغزالى فساد الفلسفة الإلهية ، ولم يتعرض للفلسفة
الرياضية والطبيعية والمنطق .

وكان هذا هو الذنب الذى لم يفقره له حتى الآن ، كتاب الغرب ولاداة
التغريب ، كيف يقف الغزالى في وجه فكر الوثنية وعلم الأصنام ويمارضة
ويكشف زيفه ولا يدع المسلمين ليغرقوا فيه فيحتويهم كما احتوى اليهودية
والمسيحية . فهذا جرم كبير اقترفه الغزالى مازال رجال التغريب يكتونه به
يوما بعد يوم دون توقف .

والواقع أن الغزالي لم يهاجم إلا الفلسفة الإلهية التي هي علم الأصنام عند اليونان قال : أن العقل يعجز عن الخوض في مسائل ما بعد الطبيعة ، وأنهم (أى الفلاسفة) ماقدروا في الإلهيات على الوفاء بالبراهين التي اشترطوها في المنطق وأنهم يحكمون بظن وتخمين غير تحقيق ويقين ويستدلون على صدق علومهم الإلهية بظهور علومهم الحسابية والمنطقية ويستدرجون ضعفاء العقول ولو كانت علومهم الإلهية متفقة البراهين نقيصة عن التخمين كعلومهم الحسابية لما اختلفوا فيها ، وإن ماشرطوه في صحة مادة القياس من قسم البرهان في المنطق لم يتمكنوا من الوفاء لشيء منه في علومهم الإلهية . وقال : إن أحكام العقل في الرياضيات والطبيعات صادقة ، أما في علم ما بعد الطبيعة فإن العقل المحض عاجز عن الوصول إلى اليقين .

وقال أن مسألة الصفات الإلهية وأزلية العالم وأبديته واستحالة الفناء على النفوس البشرية لا توزن بميزان للعقل البشرى بل يحتاج العقل في إدراكها إلى عامل آخر هو الكشف الباطني والایمان القلبی والوحى الدینی .

وأهم ما اختلف فيه الغزالي مع الفلاسفة إنها هو مايتصل بالمباحث الإلهية التي تقدم أصلاً من أصول الدين .

وقد عارض الغزالي الفلاسفة في ثلاث مسائل أساسية : يختلف فيها رأى الفلاسفة البروانية عن مفهوم الاسلام الاصيل : (وإن كان قد أحصى عليهم الخطأ في عشرين مسألة) :

أولاً : قدم العالم .

ثانياً : أن الله (تعالى) مما يقولون علواً كبيراً (لا يحيط علماً بالجزئيات .

ثالثاً : إنكار البعث .

والاسلام يقول بأن العالم محدث وأنه ليس ثمة قديم غير الله سبحانه وتعالى وأن الله تبارك وتعالى يحيط بالجزئيات (وما تيسر من ورقة إلا يعلمها ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) وأن البعث حق لا مرية فيه .

وقد عارض الغزالي إمامي صطدم بالشرع : وهاجم الفلاسفة الدهريين : الذين جحدوا الصانع وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً وقالوا بتقديم الأنواع الحيوانية (وهم الدهرية والزنادقة ، كما هاجم الفلاسفة الطبيعيين الذين قالوا : أن النفس تموت ولا تعود وأنكروا الآخرة والثواب والعقاب وهاجم الفلاسفة الإلهيين أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو) لأنهم قالوا بتقديم العالم وإنكار البعث وزعموا عدم إحاطة الله بالجزئيات .

وهكذا نرى أن الحملة التي حملها دعاة التغريب والمستشرقين في العصر الحديث باطلة : وقد وصفوا رأي الغزالي هذا بأنه حملة شعواء ، والواقع أنه رأى غاية الانصاف والاعتدال وبالرغم من هذا فإن الغزالي لم يسلم من أهل الأصالة الإسلامية فقال : أبو بكر بن العربي وكان من أخص أصحاب الغزالي : شيخنا أبو حامد ودخل في بطون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منها فما قدر .

ولقد كان هدف الغزالي لإبطال مذهب الفلاسفة في الإلهيات وتوجيه الناس إلى منابع الإصالة الحقيقية في فهم المبتدأ فيقياً وما وراء الطبيعة وهو ما أورده القرآن الكريم . ولذلك فقد أشار إلى أن الفلاسفة قليلو البصيرة في معرفة مسائل الربوبية ، وأن الدين الحق هو وحده القادر على طمأنينة النفس الإنسانية في هذا المجال على النحو الذي يحقق الطمأنينة والسكينة واليقين .

(ثالثاً) فلسفة أرسطو : رد عليها المسلمون وكشفوا اختلاف وجهة نظرها مع مفهوم الإسلام وتعارضها مع المنهج التجريبي .

وعندما حاول الاستشراق والتغريب في العصر الحديث إحياء أرسطو وتكوين حالة ضخمة حوله (طه حسين - لطفي السيد - إبراهيم بيومي مذكور) دحض الفكر الإسلامي هذا المفهوم وكشف عن ما هو أبعد من ذلك ، كشف بطلان وزيف وكذب ما ادعاه التغريبيون من أن النهضة الغربية قامت على مفهوم أرسطو ومنهجه ، فهي في الحق لم تقم إلا بعد أن هدمت مفهوم أرسطو ، وتبنت مفهوم التجريب الإسلامي ، وقد هدم المفكرون الغربيون في العصر الحديث فكر أرسطو بنفس ما هدمه به المسلمون قبل ذلك بألف سنة ، وكان هذا الهدم هو منطلق النهضة الأوروبية التي اعتمدت على منهج التجريب الإسلامي ، ثم جاء الغربيون مرة أخرى يهدعون المسلمين ويزيفون عليهم ويدعونهم إلى منهج أرسطو ، لا إلى منهجهم الذي بنى حضارة الغرب ، لقد كان أرسطو خدعة كهري في عصر الترجمة وفي العصر الحديث أيضاً واستغله المستشرقون وأتباعهم من دعاة التغريب إلى أبعد مدى .

ولقد تبين من الدراسة العلمية الخالصة فساد دعوى الموجة التغريبية الدافعة للقضاء على الإصالة الإسلامية :

ذلك أن حقيقة الأمر هي أن المنطق الأرسطي الذي نقل إلى العالم الإسلامي إنما أثر (فقط) في المدرسة المشائية الإسلامية : مدرسة الشراح (الكندي والفارابي وابن سينا) وبقيت المدارس الأخرى المنبثقة عن الإصالة الإسلامية بعيدة كل البعد عن تجاربه ، وكانت قد وضعت منطلقاً مختلفاً تمام الاختلاف عن منطق أرسطو في روحه وفي جزئياته ، (راجع على ساهي النشار) .

إن سيادة منطق أرسطو إنما بدأت حينما تداعى الفكر الإسلامي في القرن الخامس فاختلط بعلوم يونان ، ومع ذلك لم توافق دوائر الفقهاء

المُتَأَخِّرِينَ وَتَتَكَلَّمُوا الْإِشَاعِرَةَ مِنْ نَاحِيَةٍ وَتَتَكَلَّمُوا السَّافَ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى عَلَى اسْتِخْدَامِ هَذَا الْمَنْطِقِ لِحَارِبِهِ أَشَدَّ حَرْبٍ . وَمَنْ ثُمَّ ابْتَعَدَ فِلَاسَفَةُ الْإِسْلَامِ الْمُشَاءُونَ عَنْ نِطَاقِ الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ رُوحًا وَفَصًا وَعَنِ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ عَقِيدَةً وَفِكْرًا وَحَيَاةً وَمَاتَتْ الْفِلَسَفَةُ الْمُشَائِيَّةُ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ مِنْهُ هَبْدٌ بَعِيدٌ .

وَمَا كَانَ لَهَا أَنْ تَبْعَثَ لَوْلَا مَحَاوِلَاتُ الْاسْتِشْرَاقِ وَالتَّغْرِيبِ الْحَادِثَةِ إِلَى تَدْمِيرِ الْإِسْلَامِ مِنَ الدَّخَالِ بِإِثَارَةِ الْفِرْقِ وَالْمَذَاهِبِ الْفَلَسَفِيَّةِ الْقَدِيمَةِ وَبَعَثَهَا وَفَرَضَهَا كَمَنْهَجٍ عَلَى مَضَالٍ فِي الْجَامِعَاتِ وَالْمَدَارِسِ .

وَفِي ضَوْءِ هَذَا الْإِتِّجَاهِ الَّذِي تَقْدُمُ إِلَيْهِ الْمُسْتَشْرِقُونَ أَوَّلًا ثُمَّ تَابِعَهُمْ دَعَاةُ التَّغْرِيبِ أَمثال طه حسين كَانَ الْهَدَفُ هُوَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ طه حسين صِرَاحَةً :

« لِأَنَّهُ مَا دَامَ أَسْلَافُنَا قَدْ أَخَذُوا بِفِلَسَفَةِ الْيُونَانِ - وَفِلَسَفَةِ أَوْرَبَا وَحَضَارَتِهَا إِنَّمَا هِيَ امْتِدَادٌ لِهَذِهِ الْفِلَسَفَةِ ، فَعَلَيْنَا إِذْنًا أَنْ نَأْخُذَ مِنْ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ الْأَوْرَبِيَّةِ كُلِّ شَيْءٍ » .

وَهَذَا زَعْمُ بَاطِلٍ فِي أُسَاسِهِ تَنْقُضُهُ كُلُّ الْأَدَلَّةِ وَالْأَسَانِيدِ فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَأْخُذُوا بِفِكْرِ يُونَانَ قَاعِدَةً لِفِكْرِهِمْ بَلْ رَفَضُوهُ وَكَشَفُوا زَيْفَهُ ، وَمَنْ ثُمَّ فَإِنَّهُمْ يَقِفُونَ الْيَوْمَ نَفْسَ الْمَوْقِفِ مِنَ الْفِكْرِ الْغَرْبِيِّ وَلِبَدِ الْفِكْرِ الْيُونَانِيِّ .

وَالْمَعْرُوفُ أَنَّ الْمَنْطِقَ الْجَدِيدَ فِي الْفِكْرِ الْغَرْبِيِّ الْقَائِمُ عَلَى هَدْمِ مَنْطِقِ أَرِسْطُو بَدَأَ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ حِينَ نَقَلَ الْمُسْلِمُونَ الرُّوحَ الْعِلْمِيَّةَ وَالرِّيَاضِيَّةَ إِلَى أَوْرَبَا عَنْ طَرِيقِ « رُوجِر بِيكُون » الَّذِي دَعَا إِلَى التَّخْلَاصِ مِنْ مَذْهَبِ أَرِسْطُو لِعَدَمِ كِفَايَتِهِ وَقَالَ أَنَّنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَبْرَهَنَ بِالرِّيَاضَةِ عَلَى كُلِّ مَا هُوَ ضَرُورِي لِعِلْمِ الطَّبِيعَةِ ، وَقَدْ أَعَادَ تُوْمَاسُ الْآكُوِينِي فِلَسَفَةَ أَرِسْطُو مِنْ جَدِيدٍ .

(رابعاً) يبين أن الفكر اليوناني الذي اعتمد عليه الفلاسفة المسلمون (السكندى - ابن سينا - الفارابي) لم يكن سليم المصادر . فقد أكد الباحثون من المقارنات التي أجريت أخيراً أن النصوص الفلسفية التي ترجمت إلى اللغة العربية لم تكن هي الفلسفة اليونانية الأصلية ، وإنما كانت مزيجاً من هذه الفلسفة ومن المفاهيم السريانية المسيحية ، ومن ثم فقد ترتب على ذلك أخطاء كثيرة وتلفيقات صعبة ، وقد أشار إلى هذا عدد كبير من الباحثين : أكد ذلك اسماعيل مظهر الذي يقرر أن الثقافة التي نقلت إلى العرب لم تكن ثقافة لغربية صحيحة ، بل كانت صورة من النصرانية تلونت بلون لغربي عن طريق اليعاقبة والناسطرة الذين بشروا بمعتقداتهم النصرانية في الشرق متخذين من الفلسفة اليونانية سبيلاً إلى التبشير بعقائدهم .

وقال الدكتور عبدالرحمن مرحبا : إن الترجمة من لغة يونان إلى العربية ومن العربية إلى السريانية ومن السريانية إلى العربية قد أدخلت بمواضع المعاني في أبدان الحقائق إخلالاً لا يحصى على أحد ، فقد كانت الترجمات تنكسباً للبال لا حباً للعلم ، بالإضافة إلى إستغلال الترجمة في الدعوة إلى نحلهم ونصرة مذاهبهم ، ويقول الدكتور حمرفروح أن معظم الناقلين كانوا نصارى يعاقبة وناسطرة ، وكانت حينهم الدينية فوق أمانتهم العلمية من أجل ذلك كان هؤلاء يحرّفون ، .

ومن أشد أخطائهم اضطراباً وأثراً إن كتب الربوبية قد عزي لأرسطو ، فلما اطلع الفارابي على هذا الكتاب واعتقد أنه لأرسطو قام بتحرير نظريته المشهورة في التوفيق بين آراء أفلاطون وأرسطو معتمداً في ذلك على هذا الكتاب ، ووقع الفارابي في الخطأ وانهارت نظريته في التوفيق بمجرد أن عرف أن هذا الكتاب ليس لأرسطو وإنما هو فصول أخذت أو لخصت من تساعيات أفلاطون وهو بعيد عن روح أرسطو . وقد بدا أن الفلسفة التي حاول إنشائها الفارابي وابن سينا مزيجاً من الفلسفة الأرسطية

والأفلاطونية المحدثة وقد بدت المحاولة مشوهة وناقصة . وتسمى الفلسفة الإسلامية .

ومن هنا نعرف كيف اندست الكثير من المقررات الفارسية والوثنية والمسيحية واليهودية إلى الفكر الإسلامي ، وحاولت الإندماج به مع الزمن .

(خامسا) وقف الفكر اليوناني من التجريب موقف الاحتقار . بينما أمضى الفكر الإسلامي مفهوم التجريب وبذلك نقل البشرية إلى عصر جديد عجز عنه اليونان .

(١) فالمسلمون بكل أدلة التأكيد والجزم والثقة هم الذين وضعوا المنهج التجريبي واقتحموا تلك العقبة التي وقف عندها الفكر اليوناني حين وقف عند المنطق للصوري . وبذلك جمع المسلمون بين أسلوبيين للنظر والفكر هم الدليل العقلي والدليل التجريبي ، وقد سجل روجر بيكون فضل هذا المنهج الخطير في تاريخ البشرية كلها ونسبه إلى المسلمين .

وأم خصائص المنهج التجريبي الإسلامي انه منهج إدراكي أو تأملي ، فقد أدرك مفكرو الإسلام تمام الإدراك انه لا بد من وضع منهج في البحث يخالف المنهج اليوناني حيث أن منهج اليونان إنما هو تعبير عن حضارة مخالفة وتصور حضارى مخالف .

وفارق بين منهج احتقر التجربة والتجريب وجاء منطق أرسطو أكبر معبر عنه ، وبين منهج دعا إلى التجريب مستمداً ذلك من روح القرآن نفسه الذي دعا إلى نزعة علمية عملية تنأى عن البحث في ذات الله وتدعو إلى البحث في خلق الله . ولذلك فإن موقف المسلمين من منطق أرسطو أو من الفكر اليوناني لم يكن ناشئاً من معارضة ذاتية ، وإنما كان تأكيداً لذاتية الفكر الإسلامي وروحه وإصاليته وطابعه الخاص . ولذلك فإن المسلمين لم يشغفوا

بالجوهر أو الماهية أو التصورات التي شغلت بها الفلسفة اليونانية وإنما اشتغلوا بالخواص ، وأدرجوا هذه الخواص في نسق متكامل ، وهذا هو جوهر الخلاف الذي أوحى بمفهوم الكراهية أو المعارضة لمنطق أرسطو وهي مخالفة ذات جذور أصيلة للأساس الأصيل للإسلام وهو التوحيد ولم تكن النجمة عن ضيق أفق أو تزعم مذهبي .

ومن هنا فإن الدعوة التي تنذر عن طريق حركة التغريب في البحث عن عالم الغيب عن طريق العقل دعوة معارضة تماماً لمفهوم التوحيد الإسلامي . وإذا كان الإسلام قد حال دون الأبحاث الميتافيزيقية على طريقة الفكر اليوناني فإنه قد قدم للمسلمين منهجاً كاملاً لما وراء عالم الفهماء منذ بدأ الخلق إلى نهاية الحياة الدنيا وما بعدها من حياة الجزاء الأخروي ، كما قدم صورة لعالم ما وراء الكون الظاهر من سموات وأفلاك . وبذلك أرضى رغبة الإنسان في فهم هذه العوالم وجعلها أساساً لفهمه لرسائله ومستوياته ومبادئه وأعطى عقله الانطلاقة الحقة لأداء رسالته في نطاق قدرته الحقيقية . وقد كشف الإسلام في هذا عن أن العقل الإنساني بطبيعته قاصر عن التوصل إلى الكنه أو الماهية بقدرته الذاتية التي تعجز عن ذلك ، ولذلك حدد القرآن مسائل ما وراء الطبيعة تحديداً كاملاً وطلب عدم الجري فيما خلفها وأن تبحث في محيط الاقتدار العقلي وحده وهو [تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله فتملكوا] .

والقدرة العقلية هي القدرة على التفكير في أنوار الله الدالة على عظمته ، ومجالها الحس : أما الذات والكنه والماهية فهذا فوق استطاعة العقل ولذلك جاء به الرحي مبيناً ناصحاً :

[البحث في الخصائص وعدم البحث لإطلاقاً في الماهية] :

وكان هذا التوجيه الاسلامي القرآني منطلق العمل الذي حققه المسلمون ولم تستطع تحقيقه الأجيال السابقة كلها : وهو إيجاد المنهج التجريبي .

ومن هنا فإن الدعوة التي تثار عن طريق حركة التغريب في البحث عن عالم الغيب عن طريق العقل هي دعوة معارضة تماماً لمفهوم التوحيد الذي هو دعامة الاسلام الحقة .

(سادساً) لقد ادعى المستشرقون ودعاة التغريب أن المنطق الارسططاليسي عندما ترجم وجد قبولاً وترك أثراً في كل دراسات الإسلام (هكذا ردد المستشرقون وردده طه حسين ولطفي السيد وإبراهيم مدكور) .

والواقع أن هذا مخالف للواقع الذي حدث فعلاً ، فإن الذين قبلوا الفكر اليوناني والمنطق الارسططاليسي هم الشراح ، المتابعون على طريق المشائين اليوم ، والذين أطلق عليهم المشاؤون المسلمون وأبرزهم السكندري والغاربي وابن سينا .

أما العلماء المسلمون في مجال الاصاله فانهم ردوها تماماً . وكشفوا عن أن المنطق الارسططاليسي ^(١) هو منهج البحث في علوم اليونان الفسكرية والفلسفية فيها على الخصوص ، ثم إن هذا المنطق هو أدق تعبير عن الروح اليونانية في نظرتها إلى الكون وفي محاولة إقامة مذاهبها في الوجود ، وقد لفظ الإسلام علوم اليونان الفسكرية لفظاً قاصياً وحاربها أشد محاربة ، ذلك أن الروح الإسلامية تستمد مقوماتها من بيئة مخالفة وجنس مخالف وتصور حضاري جديد وهي تنأى أشد النأى عن النظر في العوالم اليونانية

(١) عن بحث الدكتور علي سامي النشار : مقدمة مناهج البحث من مفكرتي الإسلام :

الفكرية من ميثاقين يقا وفيزياء وغيرهما ، وكان من المحتم أن يكون لها منهج في البحث مختلف أشد المخالفة عن منهج اليونان يستمد مقوماته من حضارتها العلية بحيث يكون طابع تلك الحضارة الأساسي وجوهرها الوحيد .

وكشف علماء المسلمين أن فلاسفة الإسلام المشاؤون إنما بمناسبة دائرة منفصلة منمثلة عن تيار الفكر الإسلامي العام ، وأن مثلى الإسلام الحقيقية هم الفقهاء والأصوليون والمتكلمين وغيرهم من مفكرى المسلمين وهؤلاء هم الذين يرفضون المنهج اليوناني والمنطق الأرسططاليسى كلية ، وقد توصل الدكتور النشار إلى وثائق ثابتة هؤلاء العلماء من خلال أبحاثهم القديمة تكشف زيف ادعاء المستشرقين ومن تابعهم من المتأمرين على الإسلام الذين ادعوا أن المسلمين أقاموا فكرهم على منطق اليونان . وأن المسلمين استطاعوا أن يقدموا أعظم كشف عرفه العالم الأوربي من بعد ، وهو المنهج التجريبي الإسلامي في أكمل صورة .

وقال: إن المتكلمين والأصوليين الأولين لم ينقلوا المنطق الأرسططاليسى على الإطلاق ، وحاولوا إقامة منطق جديد بالكلية في جوهره ، ووقف فقهاء أهل السنة والجماعة من المنطق الأرسططاليسى بل من المنطق اليوناني على العموم موقف العداوة النامة واصطنع بعضهم حجج الشكك اليونانيين وأضاف إليها حججاً أبدعوها ، وأشار إلى أن الشراح الإسلاميين كانوا امتداداً للعقل الهليني في العالم الإسلامي بحيث كانت الوشائج التي تربطهم بالتفكير المنطقي الإسلامي وإهية تماماً ، ولهذا لفظهم المجتمع الإسلامي لفظاً تاماً .

وقال الدكتور النشار بفساد الفكرة التي تقول إن المتكلمين كانوا رجال دين استخدموا منطق أرسطو في جديدهم اللاهوتي وإن المنطق الأرسطو (٧٢ - المؤامرة على الإسلام)

قوبل من المدرسة الكلامية حتى القرن الخامس أسوأ مقابلة ، وهاجمته جميع الفرق الكلامية : معتزلة وأشعرية وشيعية ، وقال ابن تيمية : ما زال نظار المسلمين بعد أن عرب هذا المذهب وعرفوه يعيبونه ويذمونه ولا يلتفتون إليه ولا إلى أهله في موازينهم العقلية والشرعية ، وهذا ما رددته ابن القيم وقال ابن خلدون إن المسلمين لم يأخذوا بالآقيسة اليونانية لمبايلتها للعقيدة .

وألفت كتب كثيرة في نقد المنطق الأرسططاليسى ، منها :

= الدقائق لابن بكر بن الطيب .

= الآراء والديانات لابن النوبختي .

= كتب أبا علي الجبائي وأبا هاشم والقاضي عبد الجبار في نقد المنطق الأرسطى .

(ذكر ذلك أبو حيان في المقاييس ص ٥٥٥)

= أبو العباس الناشئ المعتزلى :

[قال السيرافي لابن بشر متى بن يونس : وهذا الناشئ أبو العباس قد نقد عليكم وتنبع طريقكم وبين خطاكم وأبرز ضعفكم ، ولم تقدروا إلى اليوم أن تردوا كلمة واحدة لما قال وما زدتكم على قولكم : لم يعرف أخصا منا ولا وقف على مرادنا] .

(صاعد طبقات الأمم ص ١١٨)

= ابن حزم :

نقد منطق أرسطو وألف كتاباً أسماه التقريب لحدود المنطق (ذكره صاعد في طبقات الأمم) وبسط فيه فن القول على تبين المعارف واستعمل

فيه أمثلة وجوامع شرعية وخالف أرسطو واضع هذا العلم في بعض أصوله
مخالفة صريحة .

= الفزالي هاجم منطق أرسطو .

= إمام الحرمين هاجم منطق أرسطو .

وفي هذا تمكذيب مريب لما أورده لطفى السيد أستاذ جبل التعريب
حين قال :

« ولقد قوبلت فلسفة أرسطو عند السلف بصدر رحب واستغل بها
الخلفاء وأهل النظر من علماء المسلمين وأصبحوا خلفاء أرسطو ويمثل مذهب
المشائين ، تبين فساد هذا الفهم ، فإن علماء المسلمين رفضوا منطق أرسطو
والفلسفة اليونانية جميعاً لأنها تتعارض مع مفهوم التوحيد عماد الإسلام .

(سابعاً) يعد موقف الامام بن تيمية هو قمة المواقف في مواجهة
الفلسفة المشائية .

فقد أعلن أن الفكر الاسلامي له منطق خاص مستمد من القرآن والسنة
المحمدية ، فاستخرج منهما المنطق الجديد الذي سماه المنطق الاسلامي ، هذا
المنطق الذي كان فيه غنى للمسلمين عن العقلية الغربية في الحكم على الاشياء
وفي الاستبصار والتأمل الفلسفي ، ورد على المنطقيين الذين استحكمت في
عقولهم آثار الفكر اليوناني وطوابعه وهزلها عن الاقتباس من فلسفة
القرآن والحديث النبوي ومنطقهما .

وقد استخلص المنطق الاسلامي من القرآن الكريم بحيث أغنى المسلمين
في قضايا الفكر والحكم الصحيح عن المنطق اليوناني وعن أقيسته وأساليبه
ومسمياته وتطبيقاته ، وقال إن ما عند أئمة النظار من أهل الكلام والفلسفة

من الدلائل العقلية الالهية ، فقد جاء القرآن بما فيها من الحق وما هو أكمل وأبلغ منها على أحسن وجه ميزه عن الأغاليط الموجودة عند هؤلاء .

ولقد كان ابن تيمية رائداً لكل الاتجاهات الحديثة في نقد منطق أرسطو من أرجانون فرنسيس باكون إلى المنطقية الوضعية ، وقد عفى ابن تيمية بنقد فلاسفة الاسلام (الفارابي وابن سينا وابن رشد) وكل من وافقهم في التشجيع لمنطق أرسطو وعرض المنهج الاسلامي الاستقرائي فتنبسح تاريخ هذا المنطق منذ نشأته على يد المسلمين حتى أوج نضجه ثم أضاف إلى عناصر هذا المنهج الاسلامي مناهج جديدة استحدثها هو مستنداً على روح القرآن والسنة وقة ذلك كتابه (الرد على المنطقيين) وقال إن الفكر الاسلامي قد رفض المنطق الارسطي الذي يقوم على القياس والاستدلال النظري ، وأقام منطقاً جديداً أكثر تعبيراً عن خصائصه هو المنهج الحسي التجريبي .

وكشف عن الخلاف بين أرسطو وأفلاطون ومحاولة المشائين المسلمين شراح الفلسفة اليونانية في التوفيق بينهما . وكشف عن الخلاف بين هذه المحاولة وبين العقيدة الاسلامية ، وأبان عبث هذه المحاولة (محاولة الفارابي وابن سينا) وعقم تجربة التوفيق عندهما بين الاسلام والأفلاطونية المحدثة . ورأى أن هدف هذا التوفيق هو هدم الاسلام من الداخل ، وهاجم المتكلمين واتهمهم بمخالفة الكتاب والسنة وكشف عن ضعف أدلتهم التي أرادوا بها مناظرة المخالفين وأهل البدع ، وأجرى محاولة للتوفيق بين العقل والدين . ولكن ليس على أساس أن العقل مرادف للفلسفة اليونانية وملخص رأيه أن صريح العقل لا يمكن أن يكون مخالفاً لصحيح المنقول ، ورفض رأى الرازي والغزالي القائِل بتقديم العقل على النقل إذا تعارضتا إذ من يدعي خلاف ذلك فقد قدح في الرسول وقد ترك منطق ابن تيمية بصمات واضحة في كثير من الاتجاهات المنطقية الجديدة المبينة لمنطق أرسطو

وخاصة المنطق المادى لدى بيكون وهيجل ، والمنطق الرياضى لدى رسل والمنطق السيكلوجى .

وقال مصطفى عبد الرازق : إن الدراسات المنطقية لو سارت منذ عهد ابن تيمية على نهجه فى النقد بل الشرح والعمق لكاننا بلغنا من الرقى مبلغا عظيما .

ويعتبر ابن تيمية فى رده على مناقضة اليونان ومن تابعهم من متفلسفة الاسلام أكبر ممثل لروح الاسلام تجاه الفتنة اليونانية .

(٢) نقد ابن تيمية المنطق الأرسطى وهدمه هدمًا قويا ، فذهب إلى أنه من الخير للإسلام أن لا يستعمل مصطلحات الفلسفة والمنطق ويذكر ابن تيمية استطاعة الحد فى المنطق الأرسطى من الوصول إلى كنهه الشيء أو ماهيته ، ويرى أن عمل الحد ووظيفته التمييز بين المحدود وغيره ، أما تصور المحدود فلا يستطيع الحد القيام به .

ونقد ابن تيمية القضايا الأرسطية ، وذهب إلى أن التجربة والاستقراء وقياس الثقيل باطل ، وقرر أن القرآن هو الذى يمدنا بصور الاستدلال وأنه هو الذى يقدم لنا الميزان ويقدم لنا الأقيسة البرهانية .

(ثامنا) ابرز وجوه التعارض بين الفكر الإسلامى والفكر اليونانى وقال : إن أكبر الخطأ هو القول بأن هناك لقاء ولو جزئى بين الفلسفة اليونانية الوثنية وبين الفكر الإسلامى القائم على التوحيد . وذلك يرجع إلى أسباب جذرية بعيدة المدى وإلى خلاف فى الأصول العامة .

أولا فالاسلام يقرر قصور العقل الإنسانى عن التوصل إلى الماهية والسكنه والشيء فى ذاته ، وقد حدد القرآن موقفنا من مسائل ما بعد الطبيعة وطلب

إلينا عدم الخوض فيما وراءها ، ودعانا إلى أن نترك بحث (الجوهر) الذي لا نستطيع أن نصل إلى حقيقته عن طريق العقل وحده وإن نبحت (الخصائص) وإن لا نبحت مطلقا في المساهية . وهذا ما رسمه كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : (تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا) .

ثانيا : الميتافيزيقيا اليونانية هي نتاج ذاتي قائم على الفردية والتصور الخاص المخالف لروح الإسلام القائم على مفهومه الجامع لكل معتنقيه . وقد كانت الفلسفة اليونانية عملا ذاتيا لا يتفق والاجتماع .

ثالثا : الفارق العميق والواضح بين مفهوم القرآن لوحدة الله وفاعليته وبين مفهوم الفلسفة اليونانية فالله في الإسلام خالق كل شيء ، وإنه خلق كل شيء من لا شيء ، وأوجد العالم من العدم وأعلن بدأ الزمان وأعلن نهايته ، وبذلك هدم مفهوم الفلسفة اليونانية في القول بقدم المادة وعدم فناها .

فضلا عن هذا فإن القرآن لم يترك مفاهيمه مطلقة بل وضع أصولها كاملة ، ولقد كان ما قرره القرآن أكثر قبولا في العقل وأقرب إلى الفطرة .

فإنه هو خالق الأرض والماء والجبال وجعل ذلك كله مسرحا للإنسان خليفة الله الذي خلقه من تراب ونفخ فيه الروح وعلمه الأسماء ودفعه إلى اكتشاف الكون ووضعه في موضع المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي والحساب والجزاء الأخرى .

(قاسما) قدم القرآن الدليل على وجود الله تبارك وتعالى مثلا في هديد من أساليب البحث ومناهجه :

أولا : الدليل الكوني المبني على النظر في هذا العالم .

ثانيا : الدليل العقلي التحليلي (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) .

ثالثا : دليل استنبطه العلماء من الآيات التي تتكلم عن شيدنا ابراهيم
وملخصه أن تغير أحوال الأشياء التي نشاهدها يدل على حدوثها وضرورة
وجود محدث لها لا يشبهها .

(عاشرا) عقيدة الاتحاد وعقيدة وحدة الوجود :

عقيدة الاتحاد لا توافق الإسلام أبه موافقة من حلول الخالق في المخلوق
أو استغراق المخلوق في الخالق ، وهو خير طبيعة كل منهما لهذا أنكر
الإسلام على المسيحية فكرة الحلول وأنكر نفس الفكرة على الصوفية .
ولا يتفق الإسلام مع عقيدة الوحدة لأن فيها انفصالا من عقيدته الأصلية
(لا إله إلا الله) ولا عقيدة التصوف الفلسفي (لا موجود في الحقيقة إلا الله)
وسباق كل منهما يتهى إلى نتائج مخالفة أشد المخالفة لنتائج الأخرى .

تأثر التصوف الفلسفي بالبحوث الميتافيزيقية : الفيدا الهندية، والاشراقية
الفارسية والفيض الأفلوطيني .

أما التصوف السني فقد سار في طريقه ينكر على التصوف الفلسفي
فكرته فقد أخذ من القرآن والسنة وانتهى إليها ، وقد وصل الفكر
الإسلامي بالتصوف السني إلى يقظه الحارس الديديان «الضمير» وهي فكرة
لم تصل إليها أوربا إلا حديثا على يد بتلر الأخلاقي الأنجليزى .

(حادى عشر) لابد من الإشارة إلى الدور الذي قام به رجال الأصالة
الإسلامية في العصر الحديث في مواجهة خطر تجدد إحصار الفلسفة اليونانية
والغربية على التوحيد الإسلامى ، وقد بدأ هذا الاتجاه منذ أعلن الشيخ
مصطفى عبد الرزاق أن الفلسفة الإسلامية تبدأ من الفقه الإسلامى والكلام
وأن كتاب (علم أصول الفقه للشافعى) هو منطلق هذا الاتجاه وأن الشافعى
في الفكر الإسلامى موازيا لأرسطو في الفكر اليونانى واعتبر أن الكندي

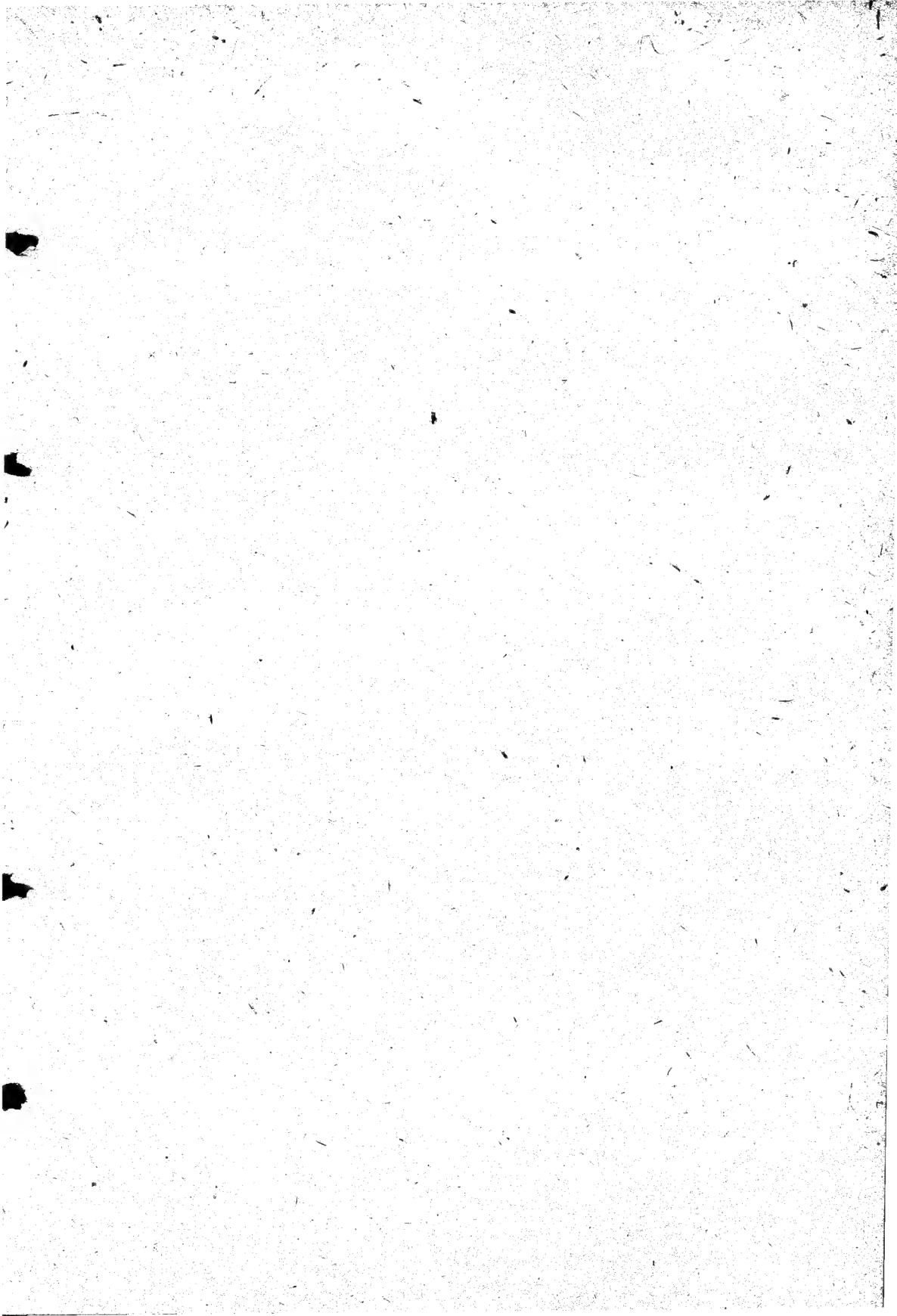
والفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم لا يمثلون الأصالة الإسلامية بل يمثلون امتداداً دخيلاً للشائين اليونان، فهم لا يريدون أن يكونوا شراحاً للفلسفة اليونانية وأن كتابات علم أصول الفقه والمتكلمين هي فلسفة الإسلام، وأثبت أن المنطق الأرسططاليسي : منهج الحضارة والفكر اليوناني لم يقبل في المدارس العقلية الحديثة . وأن المنهج التجريبي الذي عرفته أوروبا بعد قرون من مطلع حضارتها الحديثة هو منهج الإسلام وهو مباين لروح الحضارة اليونانية .

(ثاني عشر) أن الفكر الإسلامي بطبيعته مصادرة وتفكيكه وفانتيته الخاصة القائمة على التوحيد والنبوة والربط بين العقل والقلب كان متفتحاً أمام الفكر البشري ولكنه كان قادراً على التماسك دون الانهيار في أي يوقه ، ومن هنا كان موقفه من الفلسفة اليونانية ، فإذا كان الفكر الإسلامي قد تشكل على أساس التوحيد والأخلاق وإقامة منهجه الفكري على أساس العقل والوحي فقد كان من العسير أن ينصهر في الفلسفة اليونانية القائمة على الوثنية والمجتمع العبودي وإعلاء العقل وعبادة الجسد ، هذا فضلاً عن أن الفلسفة التي ترجمت لم تكن هي الفلسفة اليونانية وأنه قد أصابها عاذير كثيرة من فساد الترجمة وانتحال الكتب وتحريف النصوص ، خدمة لهدف التبشير بالمسيحية ، ومن هنا فقد قامت المعارضة لها منذ اليوم الأول ، وإن كانت طائفة الفلاسفة المسلمين قد حاولت إدخال الفلسفة اليونانية في إطار الإسلام فقد فشلت المحاولة تماماً ، حدث هذا في نفس الوقت الذي نما فيه تيار معارضة الفلسفة اليونانية واتسع نطاقه حتى أصبح يمثل ضمير الفكر الإسلامي كله وانزل دعاة الترجمة والتفسير .

كانت هذه المعارضة مقدمة للشجب الكامل للمفاهيم الفلسفية اليونانية التي تتعارض مع الإسلام في التوحيد والأخلاق وفي بناء المجتمع نفسه . كل هذا يؤكد : أنه ليس صحيحاً ما ذهب إليه طه حسين ولطفي السيد

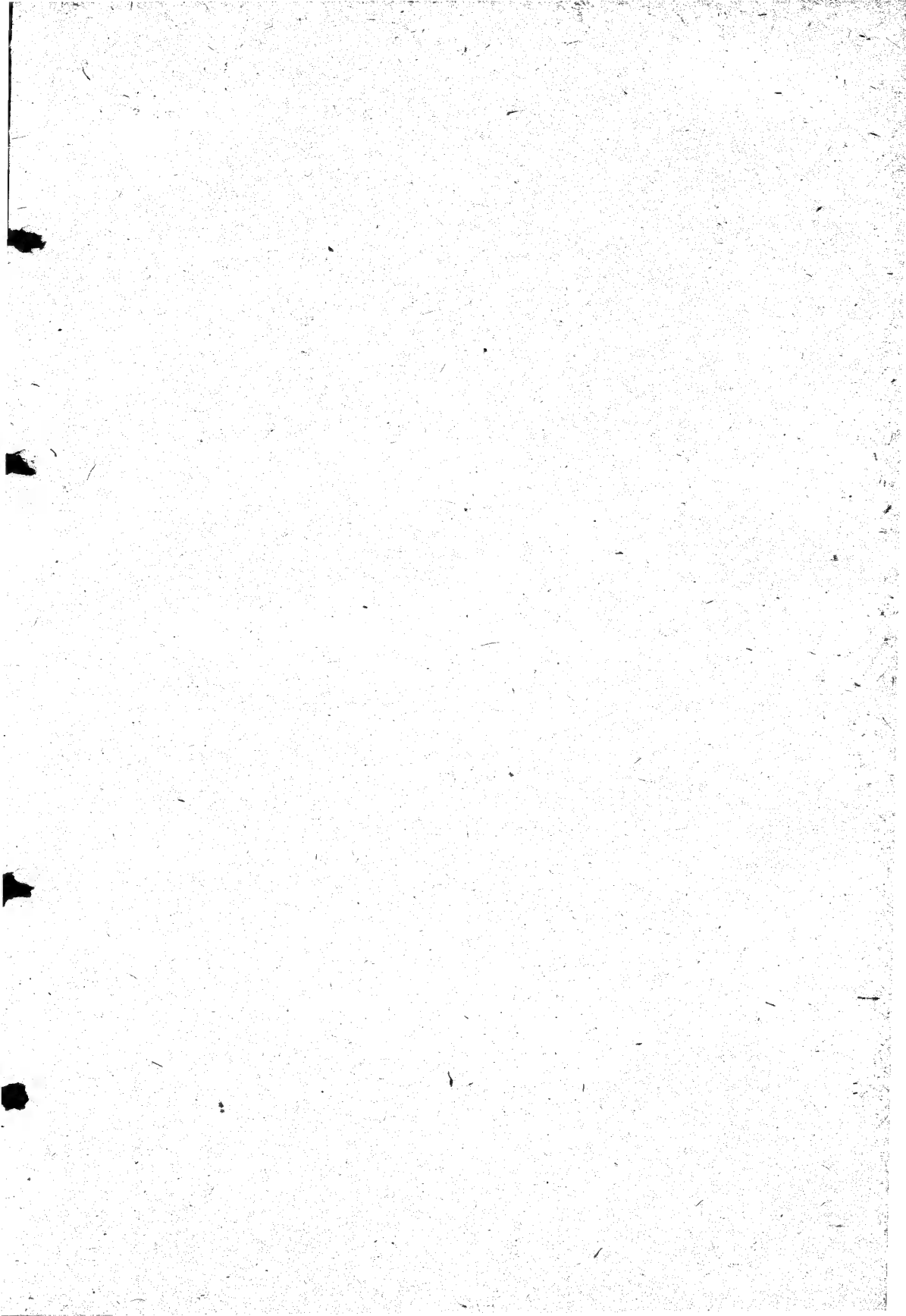
وأبراهيم بيومي مدكور من أن منطق أرسطو سيطر على بعض دوائر الفكر
الاسلامى . وفي العصر الحديث كشف الدكتور النشار هذه الحقيقة في كتابه
مناهج البحث عند مفكرى الاسلام وأثبت إثباتاً قاطعاً عدم قبول مفكرى
الاسلام للمنطق الارسططاليسى ومحاربتهم له وتقديم لجميع عناصره ، وتبين
عدم صدق الفكرة القائلة بأن المسلمين أخذوا المنطق اليونانى واعتبروه
منهجاً لأبحاثهم .

وقد زيف هذا الفهم المدعم بالدليل أحلام الاستشراق وحرر كة التخريب .



الباب الرابع

إحياء الفكر الشعبي والباطني



الفصل الأول

المؤامرة الباطنية

الفكر الشعبي والباطني : هو فكر بشري تسرب إلى أفق الإسلام بعد عصر الترجمة : فقد ترجمت الفلسفات الفارسية والهندية واليونانية فاختلطت وتضاربت وحاولت احتواء الفكر الإسلامي والسيطرة على القيم الأساسية الإسلامية ، ولقد كان هذا الفكر البشري الوثني المادى قد تشكل منذ وقت طويل واستطاع التأثير على المفاهيم التي قدمها دين موسى ودين عيسى ، وعمل على توجيهها نحو التأويل والتبرير والخروج من الضوابط التي جاء بها الدين الحق ، وقد اتجهت هذه المحاولة إلى الفكر الإسلامي واستطاعت أن تجد لها سنداً من الدهاء العتاه في مختلف مجالات العقائد والأدب والسياسة ، ونحوت من بعد إلى مؤامرات خطيرة ، ودعوات هدامة هدت كيان الدولة الإسلامية ، وقد ووجهت هذه الحركة بالمقاومة منذ اليوم الأول وشمر مفكرو المسلمين لمعارضتها وضربها وكشف زيفها ، واستمرت هذه المواجهة قرنين كاملين حتى صفت تماماً وعادت للأصالة الإسلامية إلى مكانتها اعتماداً من القرآن والسنة الصحيحة ولم تعد هذه القصة إلا صفحة من صفحات التاريخ ، غير أن مؤامرات التغريب والغزو الثقافي منذ بدأت في العصر الحديث عملت على إحياء هذا الفكر وتجديده مع ما جدت وأثارت من شبهات في مجال الفكر المعتزلي والصدوقي والفلسفي ، فبدأت كتابات من المستشرقين ودعاة التغريب تدافع عن الباطنية والقراءة والزاج وتعتبر هذه الحركات الضالة دعوات إصلاحية ، وتصورها على أنها ثورات قامت باسم الإسلام ، بل إن الاستشراق والتغريب قد ذهبا في ذلك إلى أبعد مدى :

إلى اتهام رأى السنة والجماعة والفض من قدر أولئك المجاهدين الأبرار الذين وقفوا أمام هذه المؤامرة الخطيرة ، وظهر من الكتب ما يحدد هذا الفكر الباطني الشعوب في إعادة عرضه والدفاع عنه وتزيينه لإغراء الشباب المثقف به وتصويره على أنه فكر مستقل منقطع الصلة بأوضاعه وظروفه والردود التي واجهته ، وإن في الامكان إعادة طرحه في العصر الحديث كفكر عصري تقدمي ، وذلك أقسى ما يمكن أن تقوم به دعوات التغريب والنزول الثقافي من التوبة والزيغ وإشاعة سموم خصوم الاسلام التي سقطت بعد أن واجهت معارضة ضخمة مع الفطرة والعلم والدين والحق .

ولقد توزع التغريبيون على مجالات الأدب والتاريخ فوجدنا أولئك الذين أعادوا الكتابة عن أبي نواس وبشار بن برد وحماد عجرد ومطيع بن إياس ، وأولئك الذين جسدوا عرض حركات القرامطة والزنج والرواندية ، والمقنع الحراساني وبابك الحرمي ، على نحو جديد بادعاء أن هؤلاء كانوا دعاة إصلاح .

وهناك من جدد تاريخ الحلاج والسهوروردي وبعث كتبهم وكتب ابن عربي المليئة بالسموم ، كذلك جدد فكر إخوان الصفا وبعث رسائلهم وقدم ابن سينا والفارابي والرازي وغيرهم على أنهم قم من أعلام الفلسفة والفكر .

ولا ريب أن إحياء هذا الفكر إنما استهدف لإفساد الفكر الاسلامي بغمسه مرة أخرى في هذه الوثنيات والماديات والاباحيات ، حتى لا يستطيع الإسلام أن يعطي عطاءه الحق بتحرره من عقيدته الأصلية ، وفي بعث هذا الفكر دعوة للشبوعية ودعوة للصهيونية واليهودية العالمية حاملة لواء الإمبرائليات القديمة والجديدة .

ولا ريب أن هذه المذاهب تحمل الأهواء المضلة وللنفوس التي لم تعمق

فهم الإيمان والدين أهواءاً شديدة الخطر ، فإنها تحمل الغناء التكليف وإسقاط
الالتزام الأخلاقي ، وإسقاط فرائض الإسلام وإباحة ارتكاب المحرمات
والإغراق في الذات وهي نظريات في أبرز مفاهيمها لا تفرق بين الخير
والشر والنقوى والإباحة والفضيلة والريضة ، كذلك فإنها تقحم على الإسلام
عقيدتان لا يقرهما الإسلام وهما عقيدة الجهرية وفكرة الزهد ، وهي تصل
إلى ذلك عن طريق تأويل القرآن تأويلاً لا يحتمله نظامه الكريم
ولا يتفق مع مبادئه العليا ، ومن هنا كانت أهمية التعرض لهذا الخطر
وكشف هذا الزيف .

(٢)

أخذت المفاهيم الباطنية والشعوبية تقرب إلى الإسلام بتلك السمات
التي أذاعها عبداً بن سبأ لليهودى ، الذى دخل الإسلام وأذاع مفاهيم
الرجعة والوصية ، فقال إن لكل نبي وصياً ، كما أشاع نظرية الحق الإلهى
وهي نظرية فارسية لا يقرها الإسلام ، وكان هذا أول ما فتح باب التأويل ،
ثم كانت مؤامرة مقتل عمر بن الخطاب خليفة المسلمين بيد بعض أعداء
الإسلام من الفرس واليهود ، نفذها (أبوأؤة) وهو فارسى أسير فى خوارند
أصبح ملكاً للبغرة بن شعبه . وكان الهرمزان وهو سيد من سادة الفرس
من المتأمرين ، كان مقتل عمر مقدمة لمقتل عثمان الذى كان لمفاهيم عبداً
بن سبأ أثراً الخطير فى التهديد لها . بل وكان لهذه الأفكار التى بثها عبداً بن
سبأ والسبابة من بعده فى أفق الإسلام تلك الآثار البعيدة فى ظهور حركتى
الشعوبية والباطنية ، فقد أخذت أفكار المانوية والتنبوية تحت أسماء متعددة
مختلفة تطرح من جديد فى أفق الإسلام ، وبذلك تشكل ذلك الجناح المتأمر
من خصوم الإسلام الذى عجز عن هدم الدولة الإسلامية سياسياً ، وعمل
على هدمها عن طريق ضربها فكرياً وإفساد عقيدتها . واستشرت تلك العقائد
الفلسفات والأديان السابقة واستطاعت أن تجد مفاهيم المجوسية والمانوية

والزرادشتية . وكان أن حملت أفكار هذه الدعوات إلى أفق الإسلام فأنارت
كثيراً من الشبهات والشكوك ، وكانت في مجموعها دعوة إلى تدمير جوهر
الإسلام القائم على التوحيد الخالص وعلى الشريعة الإسلامية ذات الحدود
والضوابط والأخلاقيات والإيمان بالمسئولية الفردية والجزاء الآخروي .

وقد أطلق على هذه الحركة اسم (الزنادقة ، الباطنية ، الشيوعية)
استمداً لاسمها من أبرز مفاهيمها ، ولكنها في الحقيقة كانت تمثل مؤامرة
ضخمة في مواجهة الإسلام لها أطرافها المختلفة .

ولقد قدمت هذه الحركة إلى الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي شبهات
وسموماً وفكراً هداماً كان بعيد المدى في إثارة الشكوك وزالة
النفوس :

أولاً : قدمت : أحاديث مكذوبة على الرسول يحلون بها الحرام
ويحرمون بها الحلال ، حتى يقول بذلك أحدهم وسهم عبد الكريم ابن أبي
العوجاء الذي اعترف بذلك قبل موته قال : لقد وضعت أربعة آلاف حديث
أحلت بها الحرام وحرمت الحلال .

ثانياً : قدمت مفهوماً للعبادة مغايراً لمفهوم التوحيد الإسلامي ، سواء
أكان مفهوم الثنائية المجوسى أو المانوى القائم على إله النور وإله الظلمة .

ثالثاً : قدمت نظرية الشيوعية المطلقة بين النساء والأموال والإباحية
بين الناس .

رابعاً : قدمت مبدأ تفديس الحاكم الذى ينبثق عن نظرية الحق الإلهي
والتي يرى معتقوها أن الحاكم يستمد حكمه من الله لأنه ظل الله في الأرض .

خامساً : دعت إلى إسقاط الفروض الدينية كالصلاة والزكاة

والصوم والحج ، وأباح شرب الخمر واللذات والشهوات ، وإباحة زواج البنات والأخوات .

سادساً : ادعو أن لكل شيء ظاهراً وباطناً ، ولكل تنزيل تأويل ، وإلى جانب (١) التأويل كان التحايل على الخروج عن الحدود .

سابعاً : أذاعوا بإباحية الكلمة في شعر بشار وأبي نواس وحماد عجمي ودعبل الخزاعي وصالح بن عبد القدوس وألقوا للخمر ديواناً في الشعر يكاد يطنى على سائر فنونه ، وكذلك أمر فوا في إذاعة شعر الغلمان .

ثامناً : إنكار الوحي المنزل على الرسل والقول بأن العقل الإنساني هو حلقة الاتصال بين المرأ وربّه ، وكان ابن الراوندى في مقدمة الداعين إلى تقديس العقل والإدعاء كذباً بأن العقل هو الوحي من عند الله ، وأنه لا إيمان إلا بما يراه الإنسان .

واستخدمت الباطنية أساليب وألفاظ أجنبية عن اللغة العربية ، مستعارة من مصادر هندية وأفلاطونية كما استعارت كثيراً من الطقوس الدينية التي يمارسها الصابئة والأفلاطونية المحدثة .

وكانوا يرمزون إلى الشيء بضده ، ويرون أن الجسم ليس وجود حقيقي فهو مجاز ، وأدخلوا عن طريق إخوان الصفا نظرية الإمام ونظرية العقول العشرة والتناسخ وقولهم بالنور العلوى والإشراق ونظرية الصدور ، والعقل الكلى ونظرية الفيض . وكلها مما نقلوه من ذلك الركام القديم . وقد أطلق على هذه الأفكار كلمة الزندقة ومعناها التعطيل والإلحاد أى

(١) التأويل غير التفسير . التفسير شرح أو ترجمة للمعنى لكل كلمة ، أما التأويل فيقصد به باطن المعنى أو رموزه أو إشارات ، وكل الفرق الباطنية تقوم على التأويل ويهدف التأويل تغليب المفاهيم الباطنية وتجاهل المفاهيم الظاهرة التي تمثل أصول الأحكام .

نفي وجود إله خالق مدبر للكون . ويقول المؤرخون أن الزنادقة طائفة
تظهر الإسلام وتبطن عقائد الفرس ودياناتهم وتعمل على إحياء المعتقدات
القديمة ومعارضة الديانات ، والقول بالرجوع إلى قوانين الطبيعة .

وأبرز من حمل لواء هذه الأفكار بعد ابن سبأ : ابن المقفع وبشار وحماد
عجرد ومطيع ، واستهدفوا نشر دعوى الإباحية وإسقاط التكليف والسخرية
بأصول الدين والخلق والنظم الاجتماعية وإثارة الجدل والشك حول الخير
وغيرها من المهرمات ، وحمل بشار لواء نشر الفساد الخلق وإشاعة الفسوق
بالفساء ، واشتهر حماد عجرد بالتهتك واللسان البذيء ، وهاجم أهل التقوى
والورع ولا سيما النساك وأهل الزهد ، فسبهم بأقذع ألوان السباب
والافتراء عليهم بما ليس فيهم ، وبالنسبة لآبؤ نواس في الترويج للخمر وحث
الناس على شربها متسقراً تحت اسم النظاهر بالطرف ، وبلغت هذه الموجة
أوجها في نفوس البسطاء والضعفاء ، ولكنها وجدت مقاومة صارمة
ومعارضة صادقة ، كشفت زيفها وأعادت للنفس طمأنينتها إلى مفهوم
الإسلام الحق .

(٣)

أشار الباحثون إلى أن كلمة الباطنية تشمل فرقا عديدة أهمها : الحرورية
والقرامطة والاسماعيلية كما أطلقت على المزدكية وهي فرقة مانوية أسسها
(مزدك) وظهرت في عهد الملك الساساني قباد بن فيروز وهذه الفرقة شأن
سياسي هام حيث أنها أخذت الطريق الديني والتأويل في ظاهر الدين صبغلا
للدس . وتغلب عليهم الإباحة المطلقة ورفع الحجاب وإستباحة المحظورات
واستحلالها وإنكار الشرائع .

وأخطر أصليين من أصول الفلسفة الباطنية هما : (أولا) التفسير الباطني
للكتاب والسنة الذي يهدف إلى تحريف ما اشتمل عليه دستور المسلمين من

أفكار وصرفها إلى معاني بعيدة عما قصد بها (ثانياً) فكرة الإمام المعصوم وجعل هذا الإمام محور ثابت يرتبط به الدعاة بالطاعة الخاصة والانقياد الأعمى حتى يسهل على المتأمرين إقرار خططهم وتنفيذ آرائهم .

ويقول السيد أبو الحسن الندوى : إن فتنه الباطنية نشأت من ثمار الفلسفة اليونانية وكان معظم دعايتها أفراداً وأما : شعوباً قد فقدت سيادتها وحكمها في تيار الفتوحات الإسلامية ، ولا مطلق في استردادها بالحرب ، أو رجالاً يدينون بالشهوات واللذات ويؤمنون بالإباحة وعبادة النفس والإسلام يحد من شهواتهم أو رجالاً يطمحون إلى السيادة المطلقة وقد اجتمع هؤلاء تحت رابطة الباطنية وقد شعروا بأن الإسلام لا يهزم في ميدان الحرب وأن المسلمين لا تصح دعوتهم إلى الإلحاد السافر فإن هذا يلهب غيرهم الدينية لذلك اختاروا للوصول إلى هدفهم أسلوباً لا يزعج المسلمين ولا يثيرهم : وهو الفرق بين الظاهر والباطن ، مركزين على الصلة القائمة بين الكلمات والمصطلحات الدينية ومعانيها وعن طريق هذه المصطلحات تقوم الصلة بين المسلمين وماضيتهم ومنابعهم الصافية فإذا انقطعت هذه الصلة (بين الكلمات والمعاني) وأصبحت الكلمات لا تدل على معنى خاص ومفهوم محدد وتسرب الشك والاختلاف إليها باتت هذه الأمة فريسة لكل دعوة وفلسفة وساغ لكل أحد أن يقول ما شاء .

إن أصول الديانة الإسلامية وعقائدها وأحكامها ومساثلها إنما عرضت في إطار ألفاظ وكلمات تدل عليها وتعبر عنها وكان لابد من ذلك عن كل رسالة جديدة وقد تفتت معاني الكلمات ومفاهيمها وتواتر ذلك عملياً ولفظياً في الأمة واستفاض وعرفته الأمة الإسلامية ودانت به فدخل من كلمات النبوة والرسالة والملائكة والمعاد والجنة والنار والشرعة والفرص والواجب والصوم والزكاة والحج تؤدي معنى خاصاً وتفهم منها مفاهيم خاصة

لا يشك فيها مسلم ولا يختلف فيها إثنان كما أن الحقائق التي تعبر عنها هذه الكلمات ظلت محفوظة في الأمة تتوارثها الأجيال وتنتقل مع الزمان .

ومن هنا كانت مؤامرتهم في التفرقة بين الكلمات ومعانيها : يقول ابن الجوزي في كتابة تلبس إبليس : قلوا : إن لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تخرى من الظواهر يجرى اللب من القشر ولأنها لصورتها توم الجبال صوراً جليلة وهي عند العقلاء رموز وإشارات إلى حقائق خفية وإن من تقاعد عقله عن القوص في الخفايا والأسرار والبواطن والأخوار وقنع بظواهرها كان تحت الأغلال التي هي تكليفات الشرع ومن ارتقى إلى علم الباطن سقط عنه التكليف واستراح من أعبائه .

وقد مضت الباطنية في هذه المحاولة إلى غايتها تميزاً بين الظاهر والباطن وتفضيلاً للباطن واستخفافاً بالظاهر وجعله مصدر سخرية ، واعتباره بمنزلة القشور والباطن بمنزلة اللب ووصفوا الظاهر بأنه متناقض معوج وأنه تقليد محض ولا دليل عليه ولا حياة فيه ويقولون : إن الغاية من الشريعة (التأويل) التي هي من الجسد كالروح وأن (التنزيل) ليس إلا جسماً وقد تأولوا آيات القرآن وسنن النبي وقلوا لأن من ارتقى إلى علم الباطن لم يحط عنه التكليف وأن جميع ما استعبد الله به العباد في الظاهر من الكتاب والسنة أمثال مضروبة وتحتها معان في بطونها ولا ريب أن هذه الدعوى باطلة تماماً وإنما قائمة على مفاهيم الفلسفة اللاهوتية اليونانية فالباطنية وهي من أخطر الأساليب وأكبرها أثراً في جماعات الناس رغبة في إرضاء الشهوات وهي في جملتها محاولة لتدمير لباب الإسلام وجوهره تستهدف إذاعة ثلاث محاذير خطيرة يشكرها الإسلام .

أولاً : إيجاد الوساطة بين الله والإنسان .

ثانياً : القول بالعصمة للبشر في أمور العقيدة والشريعة .

ثالثاً : القول بسقوط التكليف .

(٤)

وقد تبين أن أغلب هذه الفرق كانت ترمى إلى غايلت سياسية ولكنها اتخذت هذا الثوب البراق للخداع والتضليل من ناحية وحتى تستطيع أن تهدم القيم الأساسية التي تقوم عليها الدولة الإسلامية وقد كان وراء هذه الدعوات مؤامرات القرامطة والباطنية وعنداقر بن ميمون القذاح والحسن الصباح الذي بث تعاليم ابن ميمون والقرامطة ودار الحكمة .

وإذا كانت الحركة الباطنية القديمة تهدف من وراء احتضانها الحركتي الشعبية والزنادقة إلى قلب نظام الحكم الاسلامى، مجمدة مجموعة من الهوس والثنية والملاحدة والفلاسفة والحاقدن على الاسلام والعرب تسموا باسم (الرافضة) الشعبية فاننا اليوم نجد مثل هذه الجماعات تنجمع من جديد تحت لواء الاستعمار والشيوعية والصهيونية محاولة بعك ذلك الفكر الوثنى تحت أسماء جديدة وفي كتب براقة تعمل لخدمة مخططات بروتوكولات صهيون التي كشفت عن ترابط عميق بين الصهيونية والشيوعية والاستعمار ، وقد أطلق على هذه الجماعات نفس الاسم القديم الروافض والشعبوية، أعداء كل دين وملة الذين يعملون على إحتواء جماعات الشباب والمتقنين المسلمين في كل قطر عربي .

وإذا كانت الشعبية الباطنية، قد نجحت - مرحلياً في اجتذاب الناس إلى صفوفها بفضل الخدع والمغالطات المنطقية التي استخدمتها - كما يحدث اليوم - فانه سرعان ما ينكشف هذا الزيف ويدهض الحق باطلهم ، وقد تبين اليوم بطلان خدعة الفردوس الماركسى الموعود وانكشف فساد

الأيديولوجيات الديمقراطية والاشتراكية والقومية الغربية التي طرحت في أفق المجتمع الإسلامي .

وكما يتبين فساد الدعوة الباطنية وارتباطها بالمصالح الأجنبية فقد تبين تماماً أن هذه الأيديولوجيات التي يحمل لوائها التخريب والاستشراق لا تهدف إلا إلى إحتواء هذه الأمة وجهرها في آتون الأمية والعالمية .

لم نستطع هذه الأفكار أن تحدث الأثر الذي كان يتطلع إليه دعاؤها وهو تدمير الفكرة الإسلامية القائمة على التوصية كقمة لإسقاط الدولة الإسلامية ، فقد كانت مفاهيم الإسلام أكثر أصالة وأقرب إلى الفطرة والعلم والعقل فصدت هذه المؤامرة بقوة وتصدى العلماء المسلمون لهذه الموجة التعاتية بقوة فكشفوا زيفها وأدالوا منها ، كما انكشف هدف هذه الدعوات وتبين ما وراءها من مؤامرة سياسية ، وتصدى الكثيرون للرد على هذه الشبهات : وتتمثل هذه المواجهة في عديد من الأعمال :

أولاً : المدارس التي أنشأها نظام الملك لإقرار مذهب أهل السنة والجماعة ودخض مزارع الباطنية ، وقد قامت هذه المدارس بدور هام في هذه المقاومة ، وشارك في هذه الحملة علماء كثيرون : منهم الغزالي والباقلاني والشهرستاني وغيرهم وربط كثير من المؤرخين بين الباطنية والمجوس واستدلوا على ذلك من نصوصهم التي تطلق كلمة العقل الأول على الله (تعالى) الله عما يقولون علواً كثيراً) .

ثانياً : ظهرت فرق المتطوعة للنسكير على الفساق : وظهر خالد الدريوس الذي دعا إلى الأسر بالمعروف والنهي عن المنكر ومهل بن سلامه الأنصاري الذي دعا إلى العمل بكتاب الله - يقول الطبري أنه تبعهما خاق كثير وأمكن منع الفساق وكشف عاداتهم ثم جاءت بعد ذلك فرقة الحنابلة فكان لها دورها التاريخي المعروف .

كذلك ظهرت حركة الزهد كرد فعل على حركة اللهو والإنحراف التي قادها الزنادقة .

ثالثاً : عقد الخلفاء المناظرات لمناقشة آراء الباطنية والشعبوية ، وفوهضت أفكار بشار من برد وصالح بن عبد القدوس ورد على كثير مما أثاره أصحاب العقائد المجوسية وقد نكل المهدي بالزنادقة وأمعن في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين وأمر بالرد على ما نشر من كفت ماني وابن ديسان ومرقيون وما ترجم من الفارسية والفهلوية إلى العربية وما صنف في ذلك ابن أبي العوجاء وحماد بن محمد ويحيى بن زياد ومطبيع بن إياس في تأييد المذاهب المانوية والديسانية .

رابعاً : ظهر عدد كبير من حملة لواء الدفاع عن جوهر الإسلام منهم الحسن بن عثمان الخياط الذي ألف كتاب الانتصار والرد على ابن الرواندي فيما قصد به الكذب على المسلمين والعلم عليهم وابن الجوزي الذي ألف في الرد على الزنادقة والباطنية كتابة تلبس إبليس حيث عرض بشبهاتهم ودحضها ورد ابن حزم على ابن النفريلة اليهودي الذي ألف كتاباً يناقض كلام الله . والجاحظ وله مؤلفاته في الرد على الشعبوية والباطنية وأهمها الحيوان والبيان والتبيين وللغزالي في هذا المجال القدر المعلى : فقد ألف عدداً من الكتب : ألف المستظهرى وحجة الحق ومفصل الخلاف والدرج المرقوم بالجدول والقسطاط المستقيم وفصائح الباطنية وعرض لنظرية الإمام المعصوم وكشف عن أن هناك معصوم واحد وهو محمد رسول الله كما رد عليهم الشهرستاني وابن حزم وابن تيمية وابن القيم كما ظهر جماعة من العلماء العاديين في مواجهة هذه التحديات ، كانوا نماذج للإيمان والورع والتقوى : من أمثال عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة وسفيان الثوري والفضل بن عياض وقد هجر هؤلاء مناصب القضاء والسياسة وأقاموا على دعوتهم إلى الله يعبشون من تجارهم ويرفضون العطاء .

(٥)

وفي العصر الحديث نرى مفهوم الباطنية يتجدد في طبع مؤلفات ابن عربى والحلاج وابن الفارض، ودراسة أفكارهم ومناهجهم وأساليبهم وسائل لإخراص الصفا، ويحمل رجال الأدب المعاصر مسئولية هذا العمل الخطير الذى يجرى تحت اسم التوفيق الأدبى أو الفنى كذلك فإن كتاب العصر الذين يأخذون من هؤلاء دون أن يقدرُوا الخلفيات الخطيرة التى تحملها أخطارهم إنما يحملون إلى متغنى العصر سمواً وشبهات تتعارض مع أصالة الإسلام وقيمه التقدمية البناءة.

ذلك أن المذاهب الباطنية في أصلها كانت تستهدف العقيدة الإسلامية من أساسها، وأن تجديد هذه المذاهب تحت اسم الفن أو الأدب أو الفلسفة أو غيرها إنما هو محاولة، جديدة لطرح هذا الفكر الفاسد المسحوم مرة أخرى في أفق الفكر الإسلامى في واحدة من محاولات بلبلة العقيدة وتلويشها ذلك أن ما كتبه الباطنية إنما هو تخطيط شديد الخطر أرادوا به هدم أصالة الإسلام بالشبهات والتأويلات والشكوك القائمة على التأويل والتعطيل والمدهونة إلى رفع التكليف. والفلسفة للباطنية في صميمها مؤسسة على الفلسفة اللاهوتية اليونانية وعلى الطبيعيات استخدمت مصطلحات الفلسفة اليونانية وعقائدها قالوا أن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة. ولاريب أن الفلسفة تنافي النبوة وتعارضها على خط مستقيم منذ النقطة الأولى فهما لا يلتقيان، وإذا ظهرت الفاسفة بدأ احتقار الناس للدين ورغبتهم في التحرر منه ومن تكاليف عقائده.

وما ترجم من كتب الفلسفة اليونانية الهلينية إنما هو كتب الإلهيات والميتافيزيقا وهو ما يسمى علم الأصنام عند اليونان والذى هو وتبنيهم القومية وقد بلغ خطر الباطنية أن قال عنه مؤلف (الفرق بين الفرق): أن ضرر

الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم
بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف .

ولا ريب أن عبد الله بن سبأ هو مؤسس هذا المذهب الباطني الذي
استمدته من المجوسية لافساد الاسلام وإزالة ملك دعائه من العرب ، وعن
هذا المذهب تنفر عت كل النحل المارقة الهدامة كالقاديانية والبابية والبهائية وغيرها
من هذه النحل التي ما تزال ترهق الاسلام وهذا ما يدعو الاستشراق والتغريب
إلى التشييت به .

ولقد وضع عبد الله بن سبأ تعاليم هذه الفرقة وألف تلك الجمعية السرية
التي بثها في مختلف أقطار البلاد الإسلامية والعربية وهو أول من طرح هذه
المفاهيم في أفق الفكر الاسلامي فأنشأ جماعة السبائية الخطيرة التي تولاهما
من بعد عبد الله بن المقفع ثم كانت تلك الجماعات الخطيرة التي حملت لواء
تنفيذ مخططات المؤامرة : كاخوان الصفا والقرامطة والزنج .

(٦)

وفي طريق الالتئام اليهودي يشير بعض المؤرخين إلى المفاهيم التي أخذ
(كعب الأحبار) ينفثها والتي تستهدف تشويه أهداف ركن الجهاد تمهيداً
لقتله في نفس المسلم ، وذلك بإثارة الشبهة حول مقاومة أعداء الاسلام أو
مقاومة النفس وجهادها ، على النحو الذي تقول به القديانية اليوم ويضيف
بعض الباحثين ظاهرة إدعاء بعض اليهود لإعتناق الاسلام ومحاولتهم لإحداث
الفتنة بين المسلمين ومن آثار ذلك كله ظهور (الاسرائيليات) بوضع
الاحاديث أو رواية الاحاديث التي نسبت إلى عبد الله بن سلام أو كعب
الأحبار ، فقد كان ينظر إلى ما يروونه من الاحاديث نظرة إرتياب لما عرف
عندهم وقد أشارت كثير من الدراسات عن أن هناك من دخلوا في الاسلام

ظاهراً وابطنوا غيره وكان دخولهم ليعسدا على المسلمين أمور دينهم ويطشوا فيهم الأفكار المنعرفة .

وقد أظهرت اليهودية في أفق الفكر الاسلامى القول بالرجعة ودعت بعض الفرق إلى تقديس الامام على . فاليهودية قد أثرت في الفكر الباطنى كما أثرت في فكر المعتزلة .

ودعوة الجبرية دعوة يهودية الأصل ، كذلك فإن ما وضع من قصص في كتب التفسير هو من تأثير الاسرائيليات ، وهو قصص أعاد بعث الخرافات والاساطير التى كان متداولة في الديانات السابقة بعد أن دخلها التحريف .

ومن أثار اليهودية مسائل التأويل والمتشابهة من القرآن وما يتصل باتخاذ الافيسة المنطقية والتعليقات الفلسفية وسيلة لاثبات العقائد وهدفها هو إقصاء المنهج القرآنى في العقائد ومن ذلك التصوير المادى في وصف العرش والملائكة وحياة القبر .

ولعل أصدق ما يمثل دور اليهود في الحركة الباطنية ما قاله الشعبى لملك بن معاوية حين قال : احذرك الأهواء المضلة وشربها الرافضة فانهم يهود هذه الأمة يغيضون الاسلام كما يغيض اليهود النصرانية لم يدخلوا في الاسلام رغبة ولا رهبة من الله ولكن مقتناً لأهل الاسلام ونعياً عليهم وقالت الرافضة لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي وقالت اليهود لا يكون جهاد حتى يخرج المهدي .

ومن إمتداد الإتهام اليهودى نجى البهائية والقاديانية والروحية الحديثة . ونجى جماعة الدونمة التى حملت لواء مؤامرة إسقاط الدولة العثمانية ، ويطلق وصف (الدونمة) على يهود من أتراك أزميز وصالونيك حين كانت تابعة للدولة العثمانية اعتنقوا الإسلام في الظاهر وهم يهود في الباطن وقد تبعوا في

اعتناق الإسلام زعيمهم أو نبيهم (شبتاي) الذي ادعى عام ١٦٤٨ أنه المسيح الذي ينتظره اليهود ليعمل على إنقاذهم من تشريدهم وليؤسس لهم ملكاً عربياً ثم ادعى الإسلام ليقلت من الإعدام ، وكان قد قبض عليه عام ١٦٦٦ في القسطنطينية وحكم عليه بالإعدام فأعلن إسلامه إذ نطق بالشهادتين فلما علم السلطان محمد الرابع حاكم تركيا إذ ذاك حملته بساطته إلى الاعتقاد بأنه أسلم حقاً فعفا عن عقوبته وقد تبع شبتاي أتباعه في إدعاء الإسلام وهؤلاء هم من يطلق عليهم وصف الدونمة وقد أشارت الموسوعة اليهودية إلى أن هذه الطائفة كانت تدعى الإسلام جهراً ولكنها تقوم بأداء الشعائر اليهودية سرراً ولما فشلت الحركة الصهيونية في أواخر القرن الماضي في حمل الخليفة العثماني عبد الحميد على السماح بهجرة اليهود إلى فلسطين (التابعة لتركيا) فقد اتجه اليهود ولا سيما الدونمة إلى تحطيم الخلافة العثمانية في تركيا .

ولم يسكن من المصادقات أن يتم تبليغ السلطان عبد الحميد قرار البرلمان التركي بعزله على يد النائب اليهودي (قره صو) نائب سلايك فقد كان هذا النائب ذاته هو الذي سبق أن أوفده اليهود الصهيونيون لمقابلة السلطان عبد الحميد وإغرائه بقبول هجرة اليهود إلى فلسطين في مقابل دفع خمسين مليوناً من الجنيهات الذهبية لخزانة الدولة وخمسة ملايين لخزانة السلطان الخاصة وقد رفض السلطان العرض وكان اليهود ولا سيما الدونمة في سلايك وغيرهما هم مؤسسي محافل الماسونية والداعية إلى الدعوة الطورانية في تركيا وذلك للتخلص من الإسلام واللغة العربية وضم عرى الروابط بين الترك والعرب ولقد كان لذلك أثره في حكم مصطفى كمال أتاتورك (١) .

(١) مصطفى صبرى : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين .

الفصل الثاني

الدعوة الشعبية

الدعوة الشعبية هي واحدة من فصائل مخطط المؤامرة على الإسلام ، وقد انصبت حملاتها على :

(أولاً) مهاجمة العرب حملة لواء الإسلام وأصحاب الدولة الإسلامية في تاريخهم وأسلوب حياتهم وطمس ذاتهم وكيانهم ومهاجمة فكرة الشرف العربي والوطن في نظرهم إلى المروءة ومهاجمة القيم العربية والفضائل الخلقية التي تتمثل في مفهوم الشرف والكرامة .

(ثانياً) مهاجمة التاريخ الاسلامي ، واللغة العربية .

(ثالثاً) الوطن في جذور أصول القيم الاسلامية وجذورها .

(رابعاً) تفسيح القيم الخلقية العربية الاسلامية .

وقد عمدت الشعوبية إلى مهاجمة الثقافة العربية بصورة عامة لإحياء الثقافة الفارسية القديمة وتقليل شأن الثقافة العربية وإظهارها وكأنها غير وافية بحاجة العصر ، وقد ركزت الشعوبية في هجومها على اللغة العربية بحسبانها وعاء الثقافة العربية بعد أن سيطرت على شعوب عالم الاسلام واللغات القديمة ، وأصبحت لغة الثقافة ولغة السياسة معاً ، ولذلك فقد اتجهت حملتهم إلى تحريض أصحاب اللغات بالعودة إلى الانتاج والتأليف بأنفسهم .

كذلك عمدت الشعوبية إلى إذاعة المجون والشراب والمجاهرة بالخلاعة والانحراف الجنسي واعتبرت ذلك نوعاً من التحرر والظرف .

ونحن نجد اليوم نفس الأسلوب يتكرر بظهور الشعوبية الحديثة التي نطمح في العرب ومقوماتهم وعتيدتهم وتحمل لواء الإباحية والاحاد وتستخف بالقيم الأخلاقية في بناء الأسرة والجماعات ، فنجد الدعوة إلى مظاهر الخلاعة والمجون والانغماس في الشهوات الجنسية وشرب الخمر تحت اسم الانطلاق والتحرر والعصرية .

وقد تركزت حملة الدعوة الشعوبية في تزيف التاريخ وظهرت ما أطلق عليه كتب المثالب وقد حملت هذه الكتب صوراً مشوهة وزائفة للعرب بهدف استنفاص تاريخ العرب وقيمهم وحل الأجيال الجديدة على التمهل من ماضيهم واحتقار أمتهم .

وكذلك قامت على بعث الأساطير والحرافات القديمة والتراث الوثني لابعاد المجتمع الاسلامي عن تاريخه الاصيل .

وهذا العمل قد تكرر في العصر الحديث عن طريق كتابات المستشرقين والمبشرين وأتباعهم من دعاة التغريب وقد عاش الدكتور طه حسين عمره كله يجمع صور الفحشاء والانتفاص من تاريخ العرب والمسلمين ويذيعها وتابعه على هذا الطريق عدد كبير من التغريبين: أمثال لويس عوض ولورنس ويوسف الخال وحسين فوزي وزيكي نجيب محمود وسلامة موسى ومحمود عزمي .

ولقد واجه الثعالب والجاحظ في العصر الأول سيموم حملات الشعوبية ودافعوا عن اللغة العربية وأظهروا مزاياها وكشفوا عن مظاهر حيويتها ونشط الكتاب والمفكرون العرب لربط التراث الثقافي العربي قبل الاسلام بالادب العربي بعد الاسلام ، كما عمد البلاذري في كتابه فتوح البلدان إلى الكشف عن الدور الضخم الذي قام به العرب في سبيل نشر الاسلام وتكوين الدولة الاسلامية .

واليوم نجد عشرات من كتاب حركة اليقظة يواجه حملات الشعوبية على اللغة العربية والقيم الإسلامية العربية في الجيل الأول من أمثال مصطفى صادق الرافعي والغمراوي ومحب الدين الخطيب وحسن البنا وتواصل الأجيال حمل لواء المقاومة .

قال السيد المرتضى : نشأت جماعة تنسب بإظهار الإسلام وتظهر شعاره وتدخل في جملة أهله وهم زنادقة ملحدون وبلية هؤلاء على الإسلام وأهله أعظم وأغلظ لأنهم يوغلون في الدين ويموهون على المستضعفين بجأش رابط ورأى جامع والزندقة تعادى الإسلام والعروبة مما : تبدأ بالتهجم على العرب إلى مهاجمة العربية وتنتهى بالهجوم على الإسلام . وقد أدرك الجاحظ الصلة الوثيقة بين الشعوبية والزندقة قال : دقانما عامة من ارتاب بالإسلام إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبية فإن التجاوز عن الدين يؤدي إلى تجاوز كافة القيم .

ويوضح ابن قتيبة أن الشعوبية تدفع أصحابها إلى الغلو في القول والإسراف في الذم وهم حين يركزون على الأمة العربية إنما يتطالعون منها إلى هدم الإسلام نفسه ولذلك فقد عمدت حركة المواجهة الإسلامية إلى تأصيل دور العرب الذين حملوا راية الإسلام إلى الشعوب الأخرى وأعطوا الإسلام نطاقه الجغرافي الأول بالفتوحات وصحب انتشار الإسلام توسع العربية إذ نزل القرآن بلسان عربي مبين وجاء الحديث بالعربية الفصحى وقام العرب بالدور الأول في وضع خطوط اللغة وفي رسم المذاهب الفقهية ، فمروا بالدواوين والإدارة في صدر الإسلام ، وهم الذين عملوا بجد وحاسة لتكوين العلوم العربية والإسلامية ورسم إطارها العام إلى أن جاء دور الشعوب الأخرى لتشارك في هذه الثقافة فلما ساهمت تلك الشعوب فعلت ذلك باللغة العربية .

وكذلك ركزت حملات الشعوبية على الجسدور والأصول فهي تهاجم

العرب قبل الإسلام وفتحهم في كل شيء : في أسلوب حياتهم وفي فصاحتهم وخطبتهم وفي أنسابهم وفي علاقاتهم الاجتماعية وفي مقاييسهم الخلقية .

وقد واجهت الأصالة العربية الإسلامية هذه الحملات فكشفت عن زيفها وأظهرت السجايا العربية الحميدة وكشفت عن المروءة العربية ودافعت عن أنساب العرب وكيانهم الثقافي .

وكانت من أخطر محاولات الشعوبية في القديم ، التي تجددت في العصر الحديث الدعوة إلى العودة إلى اللغات المحلية . وقد ساعد على ذلك نفوذ الاستعمار والتبشير الذي حال بين كثير من أجزاء العالم الإسلامي من اتخاذ اللغة العربية لغة أساسية بعد أن فرض عليهم إحدى اللغتين الفرنسية أو الانجليزية وعمد إلى لغاتهم الإقليمية فدفعهم إلى كتابتها بالحروف اللاتينية .

وقد دافع الجاحظ والثعالبي عن اللغة العربية لأنها لغة القرآن ولغة الثقافة العامة وفي العصر الحديث دافع كثير من رجال حركة اليقظة عن اللغة العربية وكشفوا زيف خصومها (اقرأ كتابنا المساجلات والمعارك الأدبية) .

المفصل الثالث

إخوان الصفا

كانت (إخوان الصفا) هي أولى ثمار الحركة الباطنية فهي الجماعة السرية التي مزجت الفلسفة اليونانية والمقيدة الباطنية لتخرج للناس مذهباً جديداً .
يمزج إلهيات اليونان ونظريات أفلاطون وأرسطو وأفلاطون وفيثاغورس وغيرهم بالمقيدة الإسلامية في خليط متضارب فاسد .

وقد أنتج هؤلاء العشرة ، رسائل إخوان الصفا ، التي أذاعوها بعد أن كتبوا أسماءهم واستتروا وراء تلك الرموز الخفية التي وضعوها هناك وهناك من فصول كتاباتهم واستهدفوا منها وضع برنامج للعمل السري الذي يستهدف القضاء على الإسلام ودولته وتأسيس دولة أخرى على أنقاض الدولة الإسلامية تضم العقائد الوثنية والمجوسية والإباحية التي نسقوها من جماع ركam الفكر البشري الزائف الممتد من فارس إلى الهند إلى اليونان والذي اختلطت فيه الهلينية الإغريقية بالغنوص الشرقية .

وصفهم أبو يحيى التوحيدى في كتابه (الإمتاع والمؤانسة) بأنهم «عصابة» ، تألفت بالعشرة وتضافت بالصدقة فوضعوا مذهباً زعوا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله وذلك أنهم قالوا : إن الشريعة قد دنست بالجملالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال وصنعوا خمسين رسالة (٥١ رسالة) في جميع أجزاء الفلسفة علباً وعملياً وأفردوا

لها فهرساً وسموها (رسائل إخوان الصفا) وكنموا فيها أسماءهم وبشوها في الوارفين ووهبوا الناس وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية والأمثال الشرعية والحروف المحتملة والطرق الموهمة .

وهذه الرسائل تشتمل على الطبيعيات والرياضيات والإلهيات والعقليات يعوزها التعمق والنظام ويظهر فيها الإغراق في الخيال والاعتماد على الأفكار اليونانية من غير فحص ولا انتقاد وبحث في كل علم عن غير إشباع وإقناع، فهي مبثوثة من كل قيد بلا إشباع ولا كفاية، ينكرون فيها البعث بالاجساد ويفسرون الآخرة والجنة والنار خلاف لما تواتر عند المسلمين وفهم من النصوص الدينية القطعية وينكرون الشياطين على الصورة التي يفهمها معظم المسلمين ويقولون : هي النفوس الشريرة الهائمة فيها فلك القمر مع أخواتها من النفوس التي جهلت ذواتها في الحياة الدنيا ويفسرون الكفر والعذاب تفسيراً باطنياً فلسفياً ويشتمل على كثير من الآراء الخيالية بعضها متلفق من اليونان وبعضها وليد الأذهان وبعضها تراث الكهان كأسرار الإعدام والتنجيم والغال والرجز ، والسحر والعزائم والإيمان بطوائف النجوم وتأثيرها ، وموسيقى الإفلاك ونغماتها ويشتمل كذلك على عقيدة الوحي والإمام المستور والتقية وفيها إعداد النفوس والعقول للدولة الجديدة يقوم على إقامة أهل البيت وإخضرار بانتها الدولة العباسية وزوالها وبالاختصار فهي مجموعة غريبة من الحكم والديانة والشعوذة والكهانة والسياسة ، تقوم على أساس الفلسفة اليونانية الطبيعية والإلهية ونظريات وأوهامها وتنتهي بانتهيارها وابست لها أهمية كبيرة ولولا الاضطراب الفكري الذي كان يسود العالم في القرن الرابع والخامس وإجلال كل ما يظهر من المصنعة الفلسفية كالت هذا الاهتمام .

وهكذا نرى بوضوح أن الرسائل كانت مقدمة لتحويل الدعوة الباطنية

إلى مؤامرة خطيرة لتدمير الدولة الإسلامية والفكرة الإسلامية معها ، أو كما قال أحد الباحثين : مجادلة لوضع نظام جديد خلقى إلى على محل الشريعة الإسلامية التي يعتقد إخوان الصفا أنها بشكها الحاضر قد أصبحت عتيقة لا تؤدى رسالتها وقد أخفقت هذه المحاولة إخفاقاً تاماً فلم تفتح نظاماً علمياً ولم تنشئ مجتمعاً جديداً يقوم على أساسها وأصبحت في مدة قريبة من الآثار التاريخية العتيقة التي لا تأثير لها في الحياة ولا عمل لها إلا في المتاحف والمكتبات .

ويرى الدكتور عبد اللطيف محمد العيد : إن إخوان الصفا وخلان الصفا الوفا كانوا يضعون السم في العسل لخدمة أهدافهم ، وأن هذه الرسائل كانت سجلات لمخالفهم السرية وأنها تمثل المذهب الباطني الإسماعيلي في دور السתר ، لما تقوم عليه من تأويلات باطنية عديدة ولقد كان المذهب الأفلاطوني المحدث تأثير بالغ في هذه الرسائل فلم يختلف إخوان الصفا عن أفلاطون في القول بأن العالم وحدة حية متكاملة نابضة بروح سارية في كل أجزائه (وهو ما يسمى مذهب وحدة الوجود الذي ينكره الإسلام إنكاراً شديداً ويعارضه معارضة تامة) .

كذلك فهم في أبحاثهم عن الإنسان (صديقاً وفيلسوفاً ونبياً ورسولاً) يطبقون تعاليمهم الباطنية وينفثون سمومهم الهدامة .

وهم في مفهومهم للإمام يعارضون مفهوم الإسلام الصحيح حين يرون أن الإمام إلهي الذات وأنه معصوم بينما لا يقر الإسلام عصمة إلا للرجل واحد هو محمد بن عبد الله رسول الله وبذلك فقد كانت هذه الرسائل هدم لمفاهيم الإسلام الأساسية وهدم للنيرة وحرب للإسلام وطعن في الصحابة .

وقد استغل الباطنية التشيع في نشر دعوتهم كما استغلوا التصوف الفلسفي وتسترأ وراء أهل البيت والصوفية .

وكانت دعوتهم إلى وحدة الأديان وإلغاء التمهيب لدين ما علامة على انحرافهم وخروجهم على مفهوم الإسلام الأصيل كذلك فقد كان أشد آرائهم فساداً هي قولهم أن الخاصة لا حاجة لهم إلى الشرائع ، ودعوتهم إلى التملل من من الفرائض وقولهم أن الشرائع للعامة وحدهم ولا ريب أن ماسمونه علم الباطن إنما يعني أن الرسول كنتم شيئاً من الوحي عن عامة الناس وحاشا لله أن يكتم صلى الله عليه وسلم شيئاً .

(٢)

أشكل منذ وقت بعيد معرفة مؤلفي رسائل إخوان الصفا فذهبت طائفة من الناس إلى أن الذي ألفها أحد متكلمي المعتزلة أو الإمام جعفر الصادق (جاء ذلك في منهاج السنة النبوية لابن تيمية) وذكر بن حجر في فتاويه أن الذي ألفها هو المجريطي وأيده في ذلك صاحب كشف الظنون وذهب البعض إلى أن جماعة لاشخصاً واحداً هم الذين ألفوا هذه الرسائل في البصرة حوالي منتصف القرن الرابع الهجري وأشار أبو حيان التوحيدي إلى أن وزير مصمم الدولة بن عضد الدولة أخبره عام ٣٧٣ هـ أن من جماعة إخوان الصفا أبا سليمان محمد بن معشر البستي المعروف بالقدسي وأبا الحسن علي بن هارون الزنجماني وأبا أحمد المهرجاني والوقوفي وزير بن رقاعة .

وهناك من نسب الرسائل إلى أحد أئمة العلويين ، ليكون الرسائل معلومة بالتعاليم الإسماعيلية ويقول الباحث الذي نقلنا عنه هذا (مجلة الكلية م ١٨ سنة ١٩٣١) أن الرسالة الجامعة هي خلاصة الرسائل والتعاليم الباطنية اخذ من بقراتها أقطاب الدعوة الإسماعيلية دون غيرهم وقد كان لبول كازنوف الفضل الأول في إظهار هذه الرسالة للعالم الغربي ١٨٩٩

ولا ريب أن اهتمام الاستشراق والتفريب بهذه الرسائل كان بالغاً ولذلك فإن جماعة منهم (نيكلسن - جولدزهر - أولبري) بالإضافة إلى كازنوف أقروا

وضعوا عدداً من الأبحاث حولها وإن كانت كتابات هؤلاء المستشرقين لم
تستطع أن تنسك نسبتها إلى الحركة الباطنية فقال كازنوف :

« أننى على أتم الثقة من أن آراء إخوان الصفا هي برمتها آراء الإسماعيلية
ومحور هذه الآراء هو الاعتقاد بعودة الإمام وقد اتهم القرامطة والحشاشون
من قبل أهدانهم بالكفر ولكن ليس لهذه التهمة ظل من الحقيقة) . ويقول
أوليرى : هناك ما يغرى بالظن بأن حركة إخوان الصفا كانت حركة إصلاح
من جانب بعض الإسماعيليين الذين أرادوا الرجوع إلى تعاليم الإسماعيلية
القديمة ويقول جولدزهر اعتقد أن رسائل إخوان الصفا كانت الأساس
الذى بنيت عليه معتقدات الإسماعيلية . . ولا عجب أن يدافع المستشرقين
عن إخوان الصفا .

ويقول أديب عباسى (الرسالة م ١٩٣٤) معلقاً : أن أول ما يلحظ في
أوجه الشبه بين الإسماعيلية وإخوان الصفا : الأسلوب الذى جروا عليه في
نشر دعوتهم والدعاية لمذهبهم وهو أسلوب الإسماعيلية المعبود (أسلوب
الترجى في بث الفكرة والتلطف في عرضها على الناس) ومن أبواب التشابه
بين الجماعتين اتفاقهما اتفاقاً كلياً في مذهب الحلول فهو في رسائل إخوان
الصفا كما في تعاليم الإسماعيلية المحور الذى تدور حوله هذه الرسائل
والتعاليم . .

ووجه آخر : هو تفسير القرآن تفسيراً مغايراً لما يدل عليه ظاهر اللفظ
وهذا هو الأسلوب الباطن ووجه ثالث هو التشبيع لآل البيت والدعوة
إلى الإمام المنتظر أو المهدي ويرى أن المعنى في كلام إخوان الصفا للفاطميين
وقرآن الأحوال تدل على أنه لهم بهم صلة .

ويقول مالكودنالد : أنه مما يثبت علاقة إخوان الصفا بالإسماعيلية
ومن تفرغ منهم وجود قسم من رسائلهم في كتب الحشاشين المقدسة .

وقد ألقى بعض الباحثين أضواء أخرى على موقف إخوان الصفا تشير إلى أن المثل الأعلى في رسائلهم ليس مثلاً أعلى إسلامياً (وإنما هي عبراني في مخبره مسيحي في منهجه يوناني في علمه) (مجلة الرسالة الإسلامية م ١٩٧٢) وأخطر ما يدفعهم هو أنهم لم يقفوا عند عقيدة واحدة ، وإنما أخذوا من كل دين وعلم وفلسفة ومذهب دون إطار ثابت هو في حـد ذاته دليل على مؤامرتهم ضد الإسلام .

وكون أنهم لم يعلنوا أسمائهم يدل على أنهم دعاة لاعلماء .

كل هذا يكشف أن لهم غاية سياسية يخفونها كالوصول إلى الحكم أو القضاء على الدولة القائمة ، ولذلك فهم يكثرون من ذكر رموز وإشارات معينة لها تفسيرها الخاص وهذه الظاهرة واضحة في كتابات ابن سينا الذي يستعمل الرموز والإشارات :

ولاريب أن تفهمهم للدين مخلوطاً بالفلسفة هو في حد ذاته خروج عن مفهوم الإسلام الصحيح .

وقد ذكر السيد محب الدين الخطيب (مجلة الفتح م ١٨ - ١٢٦٧ هـ) عن أغاخان في كتابه [نور مبین جبل متین] أن مؤلف إخوان الصفا من أئمة الإسماعيلية وهو أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق .

ويقول الدكتور حسين الهمداني أحد دعاة الإسماعيلية البهرة : أن الإسماعيلية يرون القرآن كتاب العامة ورسائل إخوان الصفا ، كتاب الأئمة .

(٣)

كان من أبرز أعمال التغريب والغزو الثقافي ممثلاً في الاستشراق والتبشير إعادة طبع وإحياء رسائل إخوان الصفا من جديد بعد أن دفنت وماتت

وكشف زيفها أكثر من ألف سنة فقامت المطبعة الكاثوليكية في بيروت بإعادة طبع هذه الرسائل . ثم جاء الدكتور طه حسين من أوروبا ١٩٢٩ ليعيد طبع رسائل إخوان الصفا ويقدم لها وليس هذا عيباً في ذاته إذا ماروعى فيه أصول البحث العلمى ووضعنا هذه الرسائل في موضعها الحقيقى من حيث أن هذه جماعة إخوان الصفا ظهرت في القرن الرابع الهجرى في البصرة على هيئة جماعة سرية من الباطنية والمجوس والنادقة الحاقدين على الإسلام واللغة العربية .

وقد كان هدفهم من هذه الرسائل وضع مخطط لتقويض المجتمع الإسلامى لو أن الدكتور طه كشف عن هذا الهدف لكان صادقاً في التصح لقومه ولكن الدكتور طه كذب على الناس وادعى أن إخوان الصفا قوم مجددون مصلحون قدموا للمجتمع الإسلامى الفلسفات الهندية والفارسية واليونانية لإنشاء ثقافات جديدة وهى الثقافة التى يجب على الرجل المستنير أن يظفر بها .

وهكذا خدع طه حسين قومه وهو يعلم فى أعماق نفسه أنه إنما يعمل على هدم القيم الإسلامية بإعادة إذاعة هذه الرسائل كجزء من مخطط التغريب والغزو الثقافى .

وينضم إليه زميله زكى مبارك ليقول : من الذى يصدق أن رسائل إخوان الصفا هى أعظم ذخيرة أدبية وفلسفية ، هكذا عليهم المستشرقون ، أما المطبعة الكاثوليكية فهى تقول أن من أسباب عظمة هذه الرسائل أن كتب عنها طه حسين وفروخ وجبور والدسوقي وصليب والهمزانى والعوا ومايسينيون ولكن هؤلاء جميعاً لم يكونوا فى درجة واحدة فى الإعجاب برسائل إخوان الصفا وفيهم من كشف عن علاقة إخوان الصفا بالمؤامرة الباطنية .

ولقد كان حقاً على هؤلاء جميعاً أن يكشفوا حقيقة رسائل إخوان الصفا

بالنسبة لمفهوم الإسلام الأصيل : وأن هذه الرسائل تعارض هذا المفهوم في عدة أصول أساسية :

أولاً : إنكار البعث بالأجساد .

ثانياً : تفسير الجنة والنار والآخرة تفسيراً مغالطاً لما تواتر عند المسلمين .

ثالثاً : تفسير الكفر والعذاب تفسيراً باطلاً معنوياً .

رابعاً : فساد نظريتهم القائلة بأن النبوة يمكن أن تكتسب عن طريق الرياضة وصفاء القلب .

خامساً : فساد قولهم بأن من ارتقى إلى علم الباطن سقط عنه التكليف واستراح من أعبائه .

ومن أشد فساد عملهم محاولتهم صهر الأديان والعقائد كلها في صورة زائفة ومن ذلك قولهم : الرجل الكامل يكون فارسي النسب عربي الدين عراقي الآداب عبراني المخبر مسيحي النهج شامي النسك يوناني العلم هندي البصيرة صوفي السيرة ملكي الأخلاق .

وهذا يعني وحدة الأديان وهي دعوى اليهودية التلبودية التي حاولت على مدى العصور أن تؤكد للإسلام ، وهي دعوى تتجدد في العصر الحديث حيث نرى دعاة التغريب يقولون بالتقاء الأديان والثقافات في وحدة الثقافة العالمية التي تشهد أصولها من الفكر التلبودي الذي احتوى الفكر الغربي والحضارة العالمية .

ولا يبعد هذا عما كان يقوله إخوان الصفا في رسائلهم : حين يقولون : ينبغي لإخواننا ألا يعادوا علماً من العلوم أو يهجروا كتاباً من الكتب ولا يمتصبوا على مذهب من المذاهب لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم كلها ، أما مفهومنا الإسلامي فإن الإسلام له ذاتيته الخاصة

وأصلاته المفردة التي تجعله قائماً بذاته مستمداً من طوابقه وفيه ، وحدها ولا يقبل الانصهار في الفكر البشري أو الآمية والعالمية القائمة على الوثنية والمادية .

وقد وصف أبو حيان التوحيدي رسائلهم : بأنها مبثوثة في كل فن بلا إشباع ولا كفاية وهي خرافات وكفابات وتلفيقات وتزيينات ، حملتها إلى شيخنا أبو سليمان المنطقي السجستاني محمد بن بهرام وعرضتها عليه فنظر فيها أياماً وتبحرها طويلاً ثم ردها على وقال .

تعبوا وما أغنوا ، ونصبوا وما أجزوا ، وحاموا وما وردوا ، وغنوا وما أطربوا ونسجوا فهللوا ومشطوا فقلقلوا ، ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا استطاع ، ظنوا أنهم يمكنهم أن يدرسوا الفلسفة التي هي علم النجوم والأفلاك والمجسطى والمقادير وأثار الطبيعة والموسيقى التي هي معرفة النغم والايقاعات والفقرات والأوزان والمنطق الذي هو اعتبار الأقوال بالاضافات والكميات والكيفيات في الشريعة وأن يضموا الشريعة للفلسفة وهذا مرام دونه حدود ، وقد توفر على هذا - قبل هؤلاء - قوم كانوا أحد أنبياء وأعظم أقداراً وأرفع أخطاراً وأوسع قوى وأوثق عرى فلم يتم له ما أرادوه ، ولا بلغوا منه ما أملوه ، وأوصلوا على لونات قبيحة والخطات ناضجة ، وألقاب موحشة وعواقب مخزية ، وأوزار مثقلة .

ويقول أبو سليمان المنطقي بعد ذلك : وكما لم نجد في هذه الأمة من يفرع إلى أصحاب الفلسفة في شيء من دينها فكذلك أمة هيى عليه السلام وهي النصارى وكذلك المجوس وما يزيدك وضوحاً ويريك عجباً ، أن الأمة اختلفت في آرائها ومذاهبها ومقالاتها فصارت أصنافاً فيها ومزقاً كالمرجثة والمعزلة والجوارح فافزعت طائفة من هذه الطوائف إلى الفلسفة ولا حققت مقالاتها بشواهدهم وشهاداتهم ولا اشتغلت بطريقتهم ولا وجدت عندهم ما لم يكن عندها بكتاب ربها وأثر نبيها ، وهكذا الفقهاء الذين اختلفوا في الأحكام

من الحلال والحرام . منذ أيام الصدر الأول إلى يومنا هذا لم نجد من نفاهروا
بالفلسفة فاستنصروهم ولا قال لهم أعينونا بما عندكم أو اشهدوا لنا أو علينا
بما قبلكم .

وهكذا نجد أن هذا العمل قد وجد من علماء المسلمين معرفة لهدفه
وكشف لزيغ بهما أسقطه في نظر المثقفين ، حتى جاء دعاة التغريب فجردوه
في العصر الحديث وادعوا أنه علم وفهم وثقافة وما هو إلا سموم عرفها أهل
الأصالة الإسلامية وضلال كشفوا عنه وأبانوا فسادهم وكان خليقا بأهل
عصرنا أن يعرفوا هذا فلا يتردوا في خطر النظر أو المتابعة لهذه الأعمال
الضالة المضلة .

الفصل الرابع

دعاة الباطنية

حظى دعاة الباطنية الذى حملوا سموم هذه الفحلة المضلة بتقدير كبير من رجال التغريب والغزو الثقافى وكان لهم القدح المعلى لدى حركة الاستشراق والتبشير فكتبت الأبحاث الطوال حول عبد الله بن سبأ وعبد الله بن المقفع وابن سينا والغاراني وابن الراوندى والرازى والمأمون ووضعوا جميعاً موضع التمجيد والتقدير ، واحتفل بهم فى ميادين مختلفة منها ميادين الأدب والتاريخ والفلسفة وألف الدكتور طه حسين كتاباً ضخماً تحت اسم الفتنة الكبرى ليعبرى اليهودى ابن سبأ من المؤامرة التى قام بها والطائفة التى تشكلت باسم السيئة والتى كانت تقول بالوهمية على بن أبى طالب بينما تجمع المصادر التاريخية الإسلامية كلها على أنه يهودى من اليمن يلقب بابن السوداء أظهر الإسلام ورحل إلى الحجاز فالبصرة فالكوفة ودخل دمشق فى أيام عثمان فأخرج أهله فأنصرف إلى مصر وهو فى كل مكان يؤلب على عثمان ويدعو إلى خلعهم ويؤلب عليه .

وقد كان عبد الله بن سبأ هو أول من أدخل فى أفق الفكر الإسلامى مفاهيم الرصية والرجعة والتناسخ وقد قال برجعة النبي ودعا بالوهمية على ، عن ابن عباس كره أنه لما بويغ على قام إليه ابن سبأ فقال له :

أنت خلقت الأرض وبسطت الرزق فنفاه إلى ساباط المدائن حيث القرامطة وغلاة الشيعة وقبل إنه قال أن محمداً خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء . قال ابن حجر العسقلانى أن ابن سبأ من غلاة الزنادقة .

وقد بث عبد الله بن سبأ في البلاد الإسلامية دعاته وأشار عليهم أن يظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والطمع في الأمراء فأخذوا يشيرون الناس على ولايتهم تنفيذاً لخطة زعيمهم ويضعون كتباً في عيوب الأمراء ويرسلونها إلى غير مصرهم من الأمصار وتنتج عن ذلك قيام جماعات من المسلمين بتحريض السبائيين وقودهم إلى المدينة وحصار أمير المؤمنين عثمان في داره وقتله .

وتكشف كتب التاريخ الإسلامي عن دور عبد الله بن سبأ الواضح في إثارة الفتنة وتنظيم الاتصال بين الثوار في مختلف مدن الأمصار .

وقد نقل الطبري (٥ - ٦٦) وأكثر المصادر الإسلامية أن اليهودي ابن السوداء عبد الله بن سبأ ورد الشام فلقى أبا ذر فقال له : يا أبا ذر ألا تعجب إلى معاوية يقول المال مال الله أن كل شيء لله ، كأنه يريد أن يحتججه دون المسلمين ويححو اسم المسلمين فأتى أبو ذر معاوية فقال : ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين : مال الله فقال معاوية يرحمك الله يا أبا ذر ، أسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره ، وأنى ابن السوداء الصحابي الجليل فقيه أهل الشام أبا الدرداء فقال له ما قال لأبي ذر فأجابه أبو الدرداء : من أنت أظنك والله يهودياً ، وأنى ابن سبأ الصحابي المجاهد عبادة بن الصامت فتعلق به معاوية فقال هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر .

وكان للسبائيين موقف آخر خطير ، فإنهم مارأوا المسلمين قد بايعوا علياً وخرج طلحة والزبير إلى البصرة لحرب الجمل ، ووجد السبائيون أن رؤساء الجيش أخذوا يتغاممون ولأنهم إن تم ذلك سيأخذون بدم عثمان فاجتمعوا ليلًا وقرروا أن يندسوا بين الجيشين ويشيروا الحرب بكره دون علم غيرهم فاستطاعوا أن ينقذوا هذا القرار قبل أن يبدأ الجيشان المتقابلان فتناوش

المندسون من السبائين في جيش على من كان يذاثمهم من جيش البصرة ففرغ الجيشان وفزع رؤساؤهما وظن كل بخصمه شراً .

قال رشيد رضا : من راجع أخبار واقعة الجمل في تاريخ ابن الأثير فلا بد يرى مبلغ تأثير إفساد السبائين لذات البين دون ما كان يقع من الصلح .

وقد وصف ابن سبأ بأنه كان مبشراً متجولاً يغوى المسلمين ويورد مورداً للخطأ وألقى عصا الترحال في مصر حيث استقر هناك يدعو الناس إلى الاعتقاد بالرجمة .

ويشير الأستاذ محمد سعيد الأفغانى إلى أن الجمعية التي أنشأها عبد الله بن سبأ كانت تعمل لحساب دولة أجنبية هي دولة الروم التي انتزع منها المسلمون لسنوات قريبة قطرين كبيرين واسمين غنيين : مصر والشام ، يقول : أقطع بأنه أحد أبطال جمعية سرية مخفية غايتها تقويض الدولة الإسلامية والقضاء على الإسلام . وأن هذه المؤامرة كانت منظمة محكمة مهيأة عليها بأبوالصمة خيريون وتمهدوها في جميع الأقطار حتى أتت ثمرتها وإن هذه المؤامرة لم تلق من عامة المؤرخين ما يستحق من التوضيح والاهتمام . وعنده أن عبد الله بن سبأ أراد تصف العقيدة الإسلامية من أسامها حين اختلق للمسلمين عقيدتين غريبتين هما الرجمة والوصاية في قوله : العجب من يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع وقد قال الله تعالى (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) ومحمد أحق بالرجوع من عيسى فقبل ذلك منه ووضع لهم الرجمة فذاغت في المجتمع . ثم قال لهم بعد ذلك : إذا كان ألف نبي ولكل نبي وصي وكان على وصي محمد ومحمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء (تاريخ الطبري ٣ - ٣٧٨) وجمع بين إفساد الميدان الديني والسياسي في إذاعة قوله (فن أظلم ممن لم يحو وصية رسول الله ووثب على وصي رسول الله

وتناول أمر الأمة) ثم قال أن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصي رسول الله
فأنهم ضلوا في هذا الأمر لحركوه وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
تستميلوا الناس وادهوهم إلى هذا الأمر . ثم طاف الأقطار العربية فطأ
قطر أو بدأ بالحجار باناً ضلاله ثم انمطف إلى الشام يومئذ بصير بأمره معاوية
الذي فطن إلى خطره فأبعده إلا أنه على ضرره أصابه رشاش من إفساد
والطبري زعم أن ابن السوداء لم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام
فأخرجوه حتى أتى مصر ، والصحيح أنه قدر وزرع وحرك على معاوية
صحابيا جليلا أذعن عامة الشام لأقواله حتى اضطر معاوية الداهية الحلبي أن
يطلب إلى الخليفة عثمان لإخراجه من الشام : ذلك هو أبو ذر الغفاري
وحادثه معروف .

واستقر في مصر ، بؤرة الناقين - إذ ذاك - ، وأحكمت هذه الجماعة أمرها
وأرسلت إلى الأمصار كتباً مزورة بما شاءوا من شكوى واستنجداء بأهل
الأمصار وتحريض لهم على الثورة والخلع وجعلوا هذه الكتب على لسان على
وطلمحة والزبير وعائشة . وملا ابن السوداء البلاد نفقة وفساد ولسالت جموع
الناشرين على مدينة الرسول فقتل الخليفة عثمان وبعد أن سقط الخليفة عثمان وضع
الناس من هول المفاجعة بدأ حلقة أخرى : وأخذ يتحفز لأحكام مؤامرة أكبر
وسوق هذه الجماهير نحو فاجعة أكبر وكارثة لا تذكر إلى جانبها كارثة عثمان
فقد انضم هو ومن تابعه إلى علي ابن أبي طالب حين خرجت السيدة عائشة
للمطالبة بدم عثمان .

قال لهم : إذا التقى الناس غدا فانشبوا القتال ولا تفرغوه للنظر فإذا
من أنتم معه لا يجد بدا من أن يمتنع ويشغل الله عليا وطلمحة والزبير ومن
رأى رأيهم عما تكرهون فابصروا الرأي وتفرقوا عليه .

(الطبري ج ٣ ص ٥٠٧ - ٥٠٨ حديث هذه المؤامرة)

خرج مضريهم إلى مضريهم وربيهم إلى ربيهم ويماينهم إلى يماينهم
فوضعوا فيهم السلاح فثار أهل البصرة وثار كل قوم في وجوه أصحابهم
الذين بغتوهم وحيرتهم الصدمة ، وخرج طلحة والزبير فسألا : ما هذا ،
فقالوا : طارقتنا أهل الكوفة ليلاً ، فقالوا : قد علمنا أن علينا غير منته حتى
يسفك الدماء ويستحل الحرمه وأنه لن يطاوعنا واستطاع أهل البصرة أن
يصلوا أولئك المعتدين حتى ردوهم إلى عسكرهم وقال على قد علمت أن طلحة
والزبير غير مذتهين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمه ، والتحم الناس
بعضهم ببعض وبدأت المعركة ثم انحصرت عن خمسة عشر ألف من القتلى
وما لا يحصى من الجرحى وكان ممن قتل رءوس المهاجرين والأنصار وزعماء
الناس وعدد جم من القراء والعلماء والمجاهدين .

وجملة ما قام به ابن السوداء وأخلافه في مختلف الأعصار والامصار :
(١) الدس في الدين (٢) تفسيق الكلمة (٣) الاستهانة بالتاريخ
(٤) الاستخفاف بالنقايد والمقومات (٥) الوضع في شأن اللغة
(٦) إفساد الأخلاق (٧) التهوين من سلامة النظام (٨) الإشادة بكل
مذهب أجنبي .

ويعلق محمد سعيد الأفغانى على ذلك فيقول : إن هذه المؤامرة ترجع
إلى توسيد أمورنا الصغيرة والكبيرة إلى الذين كانوا مطايا للاستعمار
وجواسيس للأجانب وأجراء لكل دعوة هدامة .

والواقع أنه يمكن الآن الرجوع في كل نظريات التغريب والغزو الثقافي
إلى أفكار عبد الله بن سبا .

ومع هذه الإدانة الشديدة لعبد الله بن سبا يتابع طه حسين رأى اليهودية
التيودية في إنكار وجوده ، والإدعاء بأنه شخصية خيالية حيث يقول إنه

ليس لهذا اليهودى (عبد الله بن سبا) يد فيها وأن ليس لليهود عمل في تأريث ناراها .

(راجع هذه القصة في كتابنا (المساجلات والمعارك الأدبية) .

يقول : هناك قصة أكثر الرواة (المتأخرون) من شأنها وأسرفوا فيها حتى جعلها كثير من القدماء والمحدثين مصدراً لما كان من الاختلاف على عثمان ولما أورث هذا الاختلاف من فرقه بين المسلمين لم يمح آثارها بعد وهى قصة عبد الله بن سبا ويقول : لست أدري أكان لابن سبا خطر أيام عثمان أم لم يكن . ولكنى أقطع بأن خطره ، إن كان له خطر ، ليس ذا شأن وما كان المسلمون في عصر عثمان ليعبت بمقولهم وآرائهم وسلاطنتهم طارىء من أهل الكتاب أسلم أيام عثمان .

وقد دحض دعوى الدكتور طه الاستاذ محمود محمد شاكر حين قال : إن قول الدكتور (الرواة المتأخرون) فيه إيهام شديد وتعمد ، فإن الطبرى ليس من الرواة المتأخرين ، وإن سيف بن عمر الذى روى عنه الطبرى هذا الخبر هو من كبار المؤرخين القدماء فهو شيخ الطبرى والبلاذرى وهو من مرتبة شيوخ ابن سعد فلا يقال عنه ولا عن الطبرى أنهما من الرواة المتأخرين كما أراد الدكتور طه أن يؤم قارئه . وأن ذكر الدكتور (المصادر المهمة) فيه إيهام شديد وإجحاف جارف ، فإذا لم يكن كتاب الطبرى من المصادر المهمة التى بين أيدينا ، وإن كان من حجة الدكتور فى نفي خبر عبد الله بن سبا لليهودى اللعين أن البلاذرى لم يذكره وهو فيما يرى أهم المصادر لهذه القصة وأكثرها تفصيلاً) ، ثم عاد فنفي أيضاً خبر الكتاب الذى فيه الأمر بقتل وفد مصر ، مع أن البلاذرى ذكره وأطال ، وأتى فيه بما لم يأت فى كتاب غيره ولا تدري كيف يستقيم أن يجعل عدم ذكره خبراً ما حجة فى نفيه ثم ينفي أيضاً خبراً آخر قد ذكره ورج فيه .

ثم يشير محمد محمود شاكر إلى اعتماد طه حسين في إنكار عبد الله بن سبا على الجزء الذي طبع من كتاب البلاذرى (أنساب الأشراف) في إسرائيل وقام بطبعه رجل من طغاة الصهيونية ويقول : ليأذن لنا الدكتور أن نشارك أكبر الشك في ذمة هذا اليهودى الصهيونى الذى طبع الكتاب في مطابع الصهيونية في أورشليم . نشك ونتوقف . هذا إلى أن طريقة التأليف القديمة وبخاصة ما كان على غرار تأليف البلاذرى قد يترك المؤلف منها شيئاً في مكان ثم يذكره في مكان آخر وكان أولى أن يذكر في المكان الأول أفلا يكون البلاذرى قد ذكره مثلاً في ترجمة عمار بن ياسر أو محمد بن أبى بكر أو محمد بن حذيفة أو رجل ممن اشترك في هذه الفتنة . وهو يعلم أن الذى وجد في كتاب البلاذرى قسم ضئيل جداً طبع منه جزء في ألمانيا ١٨٨٢ ، ثم تولى اليهودى الصهيونى طبع جزء آخر هو الذى فيه ترجمة عثمان ١٩٣٦ ، ثم طبع جزء آخر ١٩٣٨ ، وقال الناشر في مقدمته المكتوبة بالعربية أن هناك حوادث جرت في عهد يزيد بن معاوية هي واقعة كربلاء وموت الحسين ، أفلا يجوز إذن أن يكون البلاذرى قد أدمج أمر عبد الله بن سبا في مكان آخر كما فعل فيما لاحظته هذا اليهودى ، كل هذا جائز ، ولكن الدكتور حين يريد أن ينفي شيئاً لا يبالي أن يجتاز كل هذا ويغضى عنه ليقول فيه بالرأى الذى يشتهي ويؤثره غير متلجلج ولا متوقف . ثم كيف نرى الدكتور أن من يروى خبراً ما ليس حجة على من روى هذا الخبر وبخاصة إذا كان الرجلان من طبقة واحدة كالبلادى والطبرى ، بل لعل الطبرى أقوى الرجلين وأعلمهما وأكثرهما دراية بالتاريخ وتحقيقاً له ، ان الدكتور قد اشتط وركب مركباً لا يليق بمثله حين نفي خبر عبد الله بن سبا وخبر الكتاب الذى فيه الأمر بقتل المصريين بعد الذى رأيت من تهافت أسلوبه في البحث العلمى .

لقد خالف الدكتور سنة العلم والعلماء في نفي الأطباء وتمكيدهم بلا حجة

من طريق أهل التمهيد ، بل تحكم تحكما بلا دليل يسوقه عن فضيلة البلاذرى
وتقديمه على الطبرى وبلا مراجعة للصورة التى طبعت عليها الكتب
وبلا دراسة لنفس الكتب التى ينقل عنها . كما هو القول فى ابن سعد
وبلاذرى معاً .

إن الهدف هو أن يبنى عن اليهود الشرك فى دعم عثمان والتحرىض على
قتل الإمام ، فركب مركباً وعراً خالف فيه أسلوب العلماء فى جرح الأخبار
وكذب الرواة فى شيء بغير برهان وصدقهم فى شيء آخر بغير برهان .

وهكذا نجد أن الدعوات الشعبية والباطنية الحديثة قد وجدت طريقها
من إحياء مادة الدعوات الباطنية القديمة لزلزلة العقائد وإفساد المفاهيم تحت
اسم إحياء التراث أو النقد الأدبى .

(٢)

ويمثل عبدالله بن المقفع الحلقة الثانية فى ذلك المخفاط الذى رسمه عبدالله
ابن سبأ ، وهو اسم لمع فى العصر الحديث واهتم به دارسو الأدب العربى ،
أهلوا من قدره وحاولوا أن يحملوه على رأس البلاء العربية متجاهلين الدور
الحقيقى الذى قام به بلغاء الصحابة الذين سبقوه على الطريق ، وقد جرت
إحاطة اسمه بهالة من التقدير والإعجاب ليس بوصفه صاحب الأسلوب البليغ
بل وبأنه الرجل الذى ترجم عديداً من ثمرات الأدب الفارسى إلى الأدب
العربى ، ولا ريب أن ابن المقفع كان ما كراً شديداً المكر ، فقد سار فى
طريقه بخطوات دقيقة متقبلاً خطة المؤامرة الشعبية الكبرى ، وإن كان
أمره قد انفضح من بعد ونال جزاءه ، ولكن دعاء التخريب فى العصر
الحديث استطاعوا عن طريق فصل قطاع الأدب عن جسم الفكر الإسلامى
وقيمه ، أن يذيعوا به كثيراً من أعمال الشعبية الخطيرة ، ولقد كشف

الباحثون عن خطره وتأمره وعرفوا موضعه في مطالع هذه المؤامرة الشعوبية الضخمة حتى وصف بأنه أكبر أعداء الإسلام على الإطلاق ، وقد قضى أكبر شئ حياته في عهد الدولة الأموية ، وكان زرادشتياً في قول لاشتهاره بالقيام بطقوس المجوس عامة ، وكان في قول آخر مانوياً أو مزدكياً وقد قال بترجمة كتاب مزدك المعروف باسم ديستاو إلى العربية لنشر العقائد المزدكية فسرعان ما تسكونت في أول العصر العباسي فرق مزدكية كثيرة ، كما أنه كتب (الدرة البقيمة) في معارضة القرآن ، وترجم كتاب كلىة ودمنة ، ولخصه باب برزويه أخطر الأبواب يعارض فيه الأديان ويشير الشبهة بعدم إمكان التوصل إلى اليقين ، ويعتبر العقل وحده أعظم وسيلة وأفضلها للمعرفة ، وما يزال كتاب كلىة ودمنة في أيدي شبابنا في مطالع دراستهم يشير هذه الفسبات منذ قرره الدكتور طه حسين على طلاب المدارس الثانوية ، وهو موجود في أيدي الشباب تحت اسم البلاغة العربية مع ما فيه من سموم وكان ابن المقفع يرى إلى نشر الإلحاد والتحطل من الإسلام بالذات قاصداً تشكيك ضعيفي العقائد في الدين ودعوتهم إلى مذهب المساوية ، وقد أشار العلامة البيروني في كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة) إلى مانوية ابن المقفع وقد سجل ما قاله الخليفة المهدي عن ابن المقفع حين قال : ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع .

(ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٨٧)

يقول البيروني : وبودي لو كنت أتمكن من ترجمة كتاب (رينج تندر) وهو المعروف عرفاً بكتاب كلىة ودمنة فإنه تردد بين الفارسية والهندية ، ثم بين الفارسية والعربية على السنة قوم لا يؤمن تعبیرهم إياه كعبد الله ابن المقفع في زيادته باب برزويه فيه قاصداً تشكيك ضعيفي العقيدة في الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب ماني ، وإذا كان متهماً فيما زاد لم يخل عنه فيما نقل .

والمعروف أن حركة الترجمة التي قامت في صدر الإسلام كانت تستهدف ترجمة الإيجائيات من العلوم اليونانية القديمة ، ولكن المجوس الذين تولوا هذا العمل وفي مقدمتهم ابن المقفع ، حولوا الاتجاه نحو الفلسفة الإلهية التي هي علم الأصنام عند اليونان ، وبعد ابن المقفع في نظر المؤرخين هو أول من ترجم من إلهيات اليونان وفلسفاتهم ، ثم تولى الترجمة بعد ذلك النصارى من النساطرة واليعاقبة (حنين اسحق وآله) ، كما ترجم ابن المقفع من الفارسية أيضاً كتب أديانها القديمة ثم لم تلبث الترجمة أن انحرفت نحو الوثنيات والإباحيات من الفلسفات القديمة ، ومن أبرز من عملوا في هذا المجال عبد الله بن المقفع ، وآل نوبخت وموسى بن خالد والحسن بن مهمل والبلاذرى وزادويه بن هاشويه وكلهم من المجوس ، وقد قاموا بترجمة كتب المجوسية والأساطير .

يقول الدكتور على سامى النشار في كتابه مقدمة مناهج البحث عند مفكرى الإسلام : إن (روزبه) القديم (عبد الله بن المقفع) وكان أكبر ضاغن على الإسلام في القديم قدم أول ما قدم للقضاء على نظام الإسلام الاجتماعى كتاب (مزدك) ثم كتاب (برزديه) ليثبت تناقض الأديان وبخاصة الإسلام ، وعدم يقينيتها وما يظهر له فيها من تناقض بينا يؤكد يقينية الفلسفة ووصولها إلى الحق المطلق ، ثم قدم أو دفع ابنه محمد بن عبد الله المقفع ليقدم أول ترجمة لعلم ظن أنه الصورة الكبرى لليقين قانون يهتدى فى نظره فى أفق فوق الخطأ فإذا أعلن المسلمون إن كتابهم المقدس لا يأتى به الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أشار لهم إلى (باب برزديه) الذى يقرر خطأ الكتاب وتناقضه وإن طريق الفلسفة هو طريق اليقين ثم يدعم كل هذا بصورة المنطق الأرسطاطليسى البناء المتكامل اليقيني فى نظره . لقد غرس روزبه مجوسية الفرس وأتى ثمرة منشآت مجاميع الغنوصية الخطيرة

على أثر روزه كما تناول المنطق من فلسفة ظهوروا في الإسلام ومجدوه ورفعوه
فوق كل يقين ، وحاولوا مزجه بكل علم إسلامي ولم تسكن الجماعة الإسلامية
خافته من كل هذا فسرعان ما تناولات المنطق الأرسطي بالدراسة والتحجيس
فوقه إياه كل عزم وأنشأت منهجها ، بل كان المنهج قد يكون منذ البدء
مستنداً على القرآن والسنة والعهود إلى قانونهما .

ويقول الدكتور علي سامي النشار : إن خلفاء زوربه كثيرون في عصرنا
وقد تعددت أشكالهم وتنوعت صورهم ولكنهم هم جميعاً نسخ مشوهة
منقنة لابن المقفع الكريه ، لقد فشل ابن المقفع من قبل ولم أيضاً
فاشلون .

وقد تصدى كثيرون لابن المقفع وكشفوا زيفه وفضحوا سمومه
بالإضافة إلى ما أورده البيهقي وابن خلكان فقد قام القاسم بن إبراهيم الزبيدي
المثوفى عام ٢٤٦ بوضع كتاب (الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع) وقد
أشار القاسم إلى ما نويه ابن المقفع .

وقد وصف دعاة التخريب ابن المقفع بأنه علم من أعلام الفكر الحر ،
وأنه مصلح اجتماعي ، وهذا كله من الزيف الذي يراد به إضفاء صورة
البطولة على هذا العموي الخطير ، الذي تؤكد المراجع كلها على أنه بق أميناً
لعميدته المعوسية إلى زمن الدولة العباسية حيث أسلم على يد عيسى بن علي
عم المنصور ، قال لعيسى بن علي : قد دخل الإسلام في قلبي وأريد أن أسلم
على يدك قال له عيسى : ليسكن ذلك بمحض من القواد ووجوه الناس فإذا
كان الغد فاحضر ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم فجلس يأكل ويزمزم
على عادة المجوس فقال له عيسى : أتزمزم وأنت على عزم الإسلام : قال
أكره أن أبيت على غير دين ويروى البعض أنه مر ببيت النار بعد إسلامه
فتمثل بقول الأحوص :

يا دار هاتك التي أنزل
حذر العدا وبك الفؤاد موكل
إني لأمنحك الصدود ولأني
قسما إليك مع الصدود لأميل

وهكذا نجد أنه كان مخادعاً في إسلامه ، ويقول الجاحظ إنه كان يجتمع على الشراب مع مطيع بن إلياس وواله بن الحباب وبشارد بن برد وأبان اللاحق فيهبو بعضهم بعضاً وكل منهم متهم في دينه وقيل إنه عارض القرآن .

وقد اتهم بالزندقة في آخر أيامه فقتله سفيان بن معاوية والى البصرة ، وقد كشف الأستاذ جويدي الإيطالي في كتاب إبراهيم أبو القاسم الذي نشره وهو كتاب الرد على اللعين عبد الله بن المقفع ، في هذا الكتاب عن فقرات من كتاب معارضة ابن المقفع للقرآن وقد كان يكتب باسم النور الرحمن الرحيم ، يمدح النور ويقول إنه منبع الخير من حيث إنه منزل على محمد وأشار إلى ما نقله ابن المقفع من الفارسية من كتب عاني وابن لايسان ومرفيون .

ولقد حاول الدفاع عن ابن المقفع في العصر الحديث كثيرون من دعاة التغريب من أمثال طه حسين وأحمد أمين وبطرس البستاني ورأيهم مردود لآراء هذه الوثائق التي لا شبهة فيها .

ولاريب أن مؤلفاته التي ترجمها تكشف وجهته: ترجم خدای نامه أو سير ملوك الفرس ، وآمین نامه أو كتاب المراسيم والتقاليد وكتاب (التاج) في سيرة أبو شروان ، كما ترجم كتاب مزدك في الأدب والمثل الاخلاقية المجوسية مما لا يأتلف والمفاهيم الإسلامية وكتاب كلیلة ودمثة الذي أضاف إليه باب (برزويه) فاصداً تشكيك ضعفاء العقائد في الدين فضلاً عما يقال من أنه

ترجم كُتب أرسطو المنطقية الثلاثة وكتاب إيساغوجي الفرفوريوس الصوري
وكلها كتب تشكك في العقيدة الإسلامية .

وقد أشار هلال إلى ناجي أن عبد الله بن المقفع الذي سبق أن ترجم كلية
ودمنة هو الذي نقل هزار أنسانيه (ألف خرافة) إلى العربية والتي كانت
فواة كتاب ألف ليلة ولا ريب أن ما قدمه عبد الله ابن المقفع في كتاب
ألف ليلة ما زال قائماً حتى اليوم يشير التشبهات في النفوس حول وثنيات
المجوسية وفساد الصور التي قدمها والقصاص المليئة بالسموم والإباحيات .

وقد حاول البعض أن يصفه بالبطولة في نقد نظام الحكم والملك وإنه
كتب نص الأمان الذي سيمنحه الخليفة لعمه الناصر عبد الله بن علي فوضع
ابن المقفع في الأمان الشرط الشديد التالي (فإن لم يف أمير المؤمنين عما جعل
له فهو يرى من الله ورسوله والأمة في حل وسعة من خلعه) .

والباحث في كتاباته عن نظام الحكم والملك في الدرة البهية والادب
الكبير والصغير يجد الهدف الواضح من التأمر على نظام الحكم الإسلامي
بنية هدمه وإضافته لحساب المؤامرة الباطنية والقرطبية التي كانت
ترمم وتدبر .

قال المقرئ إنه كتب أماناً تعدى فيه ما يكتبه الخلفاء من الأمانات
وقد جمعت هذه الوقائع كلها لتكون في صفحة اتهامه :

١ - ما قاله الخليفة المهدي فيما روى ابن خلدون أن كل كتاب
زندقه يعود في أصله إلى ابن المقفع .

٢ - باب برزويه التي أضافه إلى كتاب كلية ودمنة فاصداً به تشكيك
ضعفاء العقيدة في الدين .

٣ — ما قاله حين مر بعد إسلامه ببيت من بيوت النار مبدياً حنينه إلى ديانته القديمة .

٤ — ما أورده القاسم بن إبراهيم في كتابه المرسوم (الرد على الزنديق اللعين) عن معارضته للقرآن وقلة احترامه له .

٥ — ما أورده المسعودي في مروج الذهب من أن ابن المقفع وآخرين من الملاحدة ترجموا مؤلفات ماني وابن ديسان ومرفيون كما أن ابن المقفع ترجم كتاب مزدك ويعلق الصفدي بأن كتب الزنادقة الممنوعة تحوى كثيراً من آراء ابن المقفع

٦ — ما أشارت إليه روايات عديدة وأكيدة عن اتصال ابن المقفع بخلفاء الشعوبيين والمجان المتهمين بالزندقة من إقبال البقل (الذى أنكر البعث والقيامة) وعمار بن حمزة وإبان اللاحق وسهل بن هارون وحماد عجرد .

٧ — ارتبط اسم ابن المقفع بتهمة الزندقة عند المسعودي وابن خلكان والبيروني والصفدي ، وقول جويدى إنه كان قليل الاحترام للقرآن الذى حاول أن يعارضه .

وفي كتاب ابن المقفع للمستشرق جبريللى هذه العبارة التى تدين ابن المقفع حتى فى نظر المستشرقين زعماء عنهم فقد أشار جبريللى إلى أن الفقرات التى تنتقد الدين فى باب برزويه هى من وضع ابن المقفع التى حشرها دون أن يسفر بوضوح عن عقيدته الالحادية وقال : إن القطعة كلها بما فيها من جرأة فى التفكير ومغزى نهكى لا ذع لا يمكن أن تكون قد كتبت وانشرت باسم مؤلفها فى دوائر بلاط فارس الساسانية ودينها الرسمى هو المزدكية أو فى المجتمع الاسلامى فى القرن الثامن الميلادى . ولكن من

المحتمل جداً أن عقلاً يسوده الشك كما كان عقل ابن المقفع قد أظهر في هذه القطعة أراءه ناسياً لإياها إلى شخص أجنبي . إن علينا أن نرض أن يكون ابن المقفع وهو في سن الرجولة والنضج قد تعلق بالمجوسية وآمن بها إيماناً عقلياً ، ولولم أنه من الممكن أن يكون ابن المقفع مع ذلك يميل إلى دين الفرس القديم من ناحية العاطفة والحضارة ، ويؤكد جبري إلى عقيدة ابن المقفع المانوية وصحة نسبه (باب برزويه) في كلية ودمية إليه وكذلك الكتاب الذي رد عليه القاسم بن إبراهيم ويقول : بأن ابن المقفع رد على مادة القرآن بطريقة فلسفية جدلية وبراهن عقلية أنارت الامام القاسمي أما إثارة غمخته على الرد بنفس الأسلحة التي صنعتها المعتزلة في تلك الفترة وتعني مقالة ابن المقفع : خلو المعارف الدينية من اليقين وتناقض الأديان فيما بين بعضها البعض .

ويقول المستشرق كروس : إن النسخة الأصلية الفهلوية لنفس النص تتضمن أقوالاً شكوكية عن الأديان جعلها ابن المقفع أساساً لما دونه من إضافات بالاضافة إلى هذا كله فإننا نجد الاجماع على اتصال ابن المقفع بالمانوية ودفاعه عن أعداء الدولة وانتقاده سياسة الخلافة في رسالة الصحابة ودعوته لتعليق واقتباس الخط الفارسي للحضارة .

(٣)

ولا ريب أن ابن سينا من ألمع الأسماء التي حاولت حركة التغريب والشعوبية في العصر الحديث دفعها إلى أفق الشهرة والتبريز في محاولة لإحياء الفلسفة القديمة وتجديدها ، ونحن نشهد بأن ابن سينا الطبيب لا غبار عليه وإنه وائد في مجاله وأن الأمر لو اقتصر على هذا الجانب العلمي في حياته لما وجد عليه من ملام ولكن المستشرقين والمبشرين ينفخون في آراء ابن سينا

الفلسفية ويعلمون من شأنها ويضعون شخصيته فوق كل الشخصيات ويحجبون به الأعلام ذوى الأصاله من أمثال البيرونى وغيره .

بينما تثبت الوثائق أن ابن سينا كان على طريق إخوان الصفا والباطنية وأنه قد أودع كتاباته تلك الأسرار والرموز التى يعرفها أصحاب المخططات السرية لقلب الإسلام ، ولقد أعلى ابن سينا من شأن العقل علواً شابه به المعتزلة وزاد عليهم فقد دعا إلى ما أسماه سلطان العقل وتقديس العقل بما هو باطنى فى النظرة الإسلامية الصحيحة. وليس هذا الذى يقوله ابن سينا إلا متابعة لمناهج الهلينية اليونانية وليس له أساس اسلامى ما ، وهذا هو موضع اتهام ابن سينا وهو فى نفس الوقت موضع تقدير الاستشراق والشعبوية له . ولم يكن ابن سينا متورطاً فى اتجاهه هذا وإنما كان قاصداً إليه قصداً يقيناً لأنه كان من دعاة الباطنية وزعمائها المستورين .

ولقد كانت محاولة ابن سينا فى التوفيق بين الفلسفة اليونانية وبين الإسلام - من الأعمال التلقيفية المغرضة التى لا تصدر عن مؤمن بالإسلام - إذ كانت تستهدف إخضاع العقيدة الإسلامية القائمة على التوحيد للفلسفة اليونانية الوثنية الإباحية ولقد كانت تلك كبرى مقائله ، لأن هذا الاتجاه الذى سار فيه هو والفارابى إنما كان الطريق الذى رسمته الباطنية ودعت إليه وأشار إليه إخوان الصفا . وقد اعتبره الإمام الغزالى فى كتابه (تهافت الفلاسفة) كافراً خارجاً عن الإسلام بسبب قوله بقدوم العالم وعلم الله بالكليات دون الجزئيات ونفى البعث والمعاد .

وبالرغم من أن ابن سينا حاول الدفاع عن نفسه ونفى تهمة اتصاله بالمؤامرة الباطنية فإن وقائع حياته تكشف هذا الاتهام كما تؤكد المصادر الإسماعيلية على باطنيته . فقد تأثر بفلسفة المعتزلة التى انكشفت على نفسها شرقى فارس بصورة خاصة أثر الضربة التى تلقتها على يد المتوكل .

ويحدث الأستاذ إبراهيم الخمال عن باطنية ابن سينا (مجلة الرسالة العراقية : أيلول ١٩٧٢) فيشير إلى أنه أضاف إلى الفلسفة نظرية الفيض الأفلوطنية التي ورثها من الفارابي وإخوان الصفا ويقول : إن فلسفة ابن سينا كانت ثمرة شجرة غرسها مؤسسوا الدعوة الإسماعيلية في أرض يونانية .

ويفصل القول في هذا الصدد فيقول : إن الذي يظهر من سيرة ابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨) أنه رجل دنيا وسياسة كما كان فيلسوف في عصر كانت فيه السياسة والدين وجهين متلازمين للدولة والحكم تولى منصب الوزارة لبعض الأمراء البويهيين .

وكان هؤلاء زبديّة وتعرض للسجن والقتل غير مرة لأسباب سياسية وأصبح طبيباً وندباً لعلاء الدولة الذي اتهم بالزندقة لملازمته إياه .

وكان الناس في أصبهان ينظرون إلى ابن سينا كزنديق ، لحياة اللهو التي كان يجيها فقد كان من أصحاب السكّاس والطّاس وكان ينزع في حياته الشخصية نزعة ابيقورية مفرقة في اللذة والحس والشهوة ، وقد وصفه ابن خلكان في أيام حياته الأخيرة بالإفراط في الشهوات والأكل . واقد كان ابن سينا من أكبر أعداء السلطان محمود الغزنوي ، وكان الغزنويون أعداء الاهتزان والباطنية والفلسفة الإلهية . ولو كان السلطان عثر عليه في الرى لقتله على وجه التحقيق ، وقد هرب ابن سينا من الرى قبل وصول السلطان وكان دائم الهروب من كل أرض يمتد إليها يد الغزنويين ، وكان الغزنويون موالون للدولة العباسية ومسنودين من دار الخلافة وكان ابن سينا بذلك من أعداء الدولة العباسية ، ولم يكن ابن سينا من الشيعة الاثني عشرية إذ كان والده باطنياً إسماعيلياً كما أن البيت الذي نشأ فيه كان مفتوحاً للدعاة الإسماعيليين أي لرسل الفاطميين الذين يحكمون مصر ويطمحون إلى حكم الشرق الاسلامي

وكان ولاء ابن سينا للفاطميين الاسماعيليين سرّاً وكان ابن سينا قد وجه منذ مطلع صباه وجهة إسماعيلية باطنية صرفه عندما دفعه أبوه إلى دراسة الرياضيات والفلسفة وكان ذلك هدافع عقائدى من أبيه وهى القاعدة الأساسية للعقيدة الاسماعيلية وهى الوجه الثانى الذى يقابل الوجه الروحانى لها .

قال باطنيون يعتقدون عن إيمان بأن تراث الفكر اليونانى إنما هو تراثهم الخاص ، وإن الفلاسفة (سقراط - أفلاطون - فيثاغورث - أرسطو - أفلوطين) هم فلاسفة إسماعيليون فعلاً فالباطنية من إحدى نواحيها فى معتقداتهم فلسفة ومدرسة فلسفية نما فيها وازدهر الفكر اليونانى (عارف نامر = أربع رسائل إسماعيلية - دار الكشف) إنهم يفسرون الطبيعة وما يتعلق بها من حرارة ورطوبة ويبوسة ومن جهات أربع وفصول السنة ومكونات جسم الانسان ثم ما فيها من كواكب وبهار ومعادن على أساس من خواص الاعداد كالعدد ١٢/٧/٤ طبقاً لما جاء فى نظريات إخوان الصفا المستوحاة فى الفلسفة للفيثاغورية فى الرياضة والحساب (مصطفى غالب = تاريخ الدعوة الإسلامية) .

وتؤكد هذه المراجع الباطنية أن رسائل إخوان الصفا قد وضعت من قبل علماء إسماعيليين بأمر من الامام الاسماعيلى (أحمد الوفى) الذى كان مستتراً أيام المأمون ولأنهم لا يذكرون أسماء مؤلفيها .

أما بخصوص ما وراء الطبيعة (الالهيات) فإنهم يعتمدون نظرية الفيض التى ورثها ابن سينا عن الفارابى وعن إخوان الصفا ونظرية الفيض تعود بالأصل إلى أفلوطين ومدرسة الاسكندرية وخلاصتها عن ابن سينا أن الله عقل محض ولأنه يعقل ذاته ودائم التأمل فيها وحيث أن العقل هو آلة الوجود فقد فاض عن الله بالضرورة موجود واحد هو العقل الأول وعنه فاض

ثان له خواص خاصة حتى العقل العاشر وهو العقل الفعال الذى فاض عنه
هالمنا الأرضى الذى نعيش فيه .

وهذه العقول المفارقة للمادة كانت عند الفلاسفة اليونان أكثر من خمسين
عقلا ولكن الفارابى ثم ابن سينا أوقف الفيض عن العقل العاشر لينفق ذلك
مع مراتب الدعوة والدين لدى الفاطميين .

وهم يرون أن العقل الأول هو رتبة التنزيل (الفائق) .

والثانى : رتبة التأويل (الاسامى) .

والثالث : رتبة الأمر (الامام) .

والرابع : رتبة فصل الخطاب (الباب) .

والخامس : رتبة الحكمة (الحجة) .

(راجع مؤلف تاريخ الدعوة الاسلامية) فقد ذكر المؤلف أسماء الدعاة :
ابن حوشب ، الكرماني ، ناصر خسرو ، ابن سينا ، الفارابى ، إخوان الصفا ،
الرازى ، السجستانى ، والذى يظهر من ذلك أن ابن سينا لم يكن باطنياً عادياً
وحسب وإنما كان داعياً من أقطاب دعاة الباطنية .

فابن سينا عندما تفلسف إذن كان يخضع الفلاسفة لمفاهيم العقيدة الباطنية
الاسماعيلية حيث أنه كان يقابل نتائج بحونه الفاسفية مع مراتب الدعوة التى
كانت موجودة ومقررة وقبل الفارابى ومنذ أيام إخوان الصفا فى عصر
المأمون على أقل تقدير .

ونظرة الفيض الأفلوطينية هذه هى أخطر النظريات الميتافيزيقية التى
تحتويها العقيدة الباطنية لكونها تتعلق بالامام الباطنى المصوم الذى كان
يصل بمنزلته لدى القائلين على العقيدة أحياناً إلى درجة ينبوع المبدعات
أو مبدع الذات أى العقل المحض ودرجة الربوبية .

وفي كتاب إسماعيلي مخطوط بعنوان كتاب المحصول : إن الامام إلهي
الذات ، سرمدى الحياة ، غاية الغايات ، ومبدع الذات ومخترع الصفات وهو
مبدع الابداع .

وقولهم : إذا ظهر الامام بصورة الجسم مكان اسم من أسماء الله وصفة
من صفاته .

وإذا تحدث العلما كان هو الله في الحقيقة :

أما (نظرية الفيض) فهي عماد نظرية العقيدة الباطنية .

ومن هنا كان ابن سينا باطنياً بل داعية باطنياً كبيراً على وجه التأكيد .

ويرى ابن سينا أن الله يعلم الكلويات دون الجزئيات وإفنه إذا علم
الجزئيات فإنه يعلمها بمعانيها وليس بأعيانها وشخصها وهذا يخالف مفهوم
السنة ويمارضة تماماً .

والرجل باطنى النشأة والتربية توجهه فى دراسته الأولى وجهة باطنية ولم
يكن مخلصاً للبرهانيين ومن أعداء الغزنويين والدولة العباسية التى ناصبها
الفاطميون الباطنيون العداء . لأنه يتفق فى فلسفته كل الاتفاق مع العقيدة
الباطنية فى وجهيها الميتافيزيقى والروحانى ، وهو إضافة إلى المصادر الباطنية
الموثوقة التى تؤكد كونه من كبار دعاة الباطنية .

ولا ريب أن هذه المادة التى استخلصها الأستاذ إبراهيم الخال من كتب
الباطنية والتى اعتمدها على كتاب تاريخ الدعوة الاسماعيلية للدكتور محمد كامل
حسين ، هذه المادة كافية لتوضيح موقف ابن سينا وعدائه للفكر الإسلامى
القرآنى وإيمانه بغير ما يؤمن به المسلمون ، ولا ريب أن هذه الفلسفات التى
تتعلق بالمقول العشرة وهى من الفكر الأفلوطينى الفاسد ما تزال تدرس فى

جامعاً فنأورد مدارسنا على أنها نظريات فلسفية بينما هي رسوم معارضة لمفهوم التوحيد ومناقضة للإسلام الصحيح .

ويجب أن نحاط في دراستها بالخلفية التي تكشف تطورها التاريخي ومحاولة مؤامرة الباطنية الكبرى لوضعها واستغلالها لافساد العقيدة الإسلامية والتأثير عليها وقد تجدد هذا الفكر الوثني المضلل في العصر الحديث بواسطة الاستشراق والتبشير وعادة التعريب دون أن يتنبه أحد إلى أخطأه ومحاذيره .

* * *

تتركز فلسفة ابن سينا الخاصة حول مسائل ثلاث :

مسألة الفيض ، والنفس الانسانية ، ونظرية المعرفة الاشراقية وما تتضمنه من نظريات خاصة إلى النبوة والمعجزات والتصوف .

أولاً : نظرية الفيض . لم يكن هو الذي ابتكرها وإنما سبقه إليها أبو نصر الفارابي ولكن ابن سينا وضحها ودعما بحيث ينظر إليه أحياناً على أنه هو الذي ابتدعها وهي محاولة لتفسير صدور العالم وتعتمد على أساس من التوفيق من عناصر أفلاطونية وإرسطوطالسية وإسلامية وبها مسحة من التصوف فمن أرسطو أخذ كل من الفارابي وابن سينا أن الله (جل وعلا عما يقولون علواً كبيراً) عقل محض يدرك نفسه وعن أفلاطون فكرة مراتب الوجود وعن المتكلمين التفرقة بين الواجب والممكن وعن الصوفية فكرة الإتصال بالعقل الدائم وبالذات الإلهية ويرى الغزالي أن ابن سينا استخدم نظرية الفيض لتقرير قدم العالم ويرى ابن رشد أن نظرية الفيض عند الفارابي ثم عند ابن سينا دخيلة على الفلسفة الحققة ويتهم كلاهما بالكذب ويصف الفارابي وابن سينا بأنهما أول من قال هذه الخرافات فقلدهما الناس وهذه كلها خرافات وأقاويل أضعف من أقاويل المتكلمين .

ثانياً : في موضوع النفس الإنسانية استرشد ابن سينا بآراء الفارابي في النفس مع إدخال كثير من التعديل والتفصيل عليها وتكشف قصيدة النفس لابن سينا عن تأثيره الكبير بآراء أفلاطون .

ثالثاً : أما في الفلسفة الإشرافية الخاصة بآراءه في النبوة والوحي والمعجزات والنصوص فانه يربط نظرية الفيض بنظرية مادية هي وحدة الوجود التي تقول بأن الله يتجلى وانه يتحد بكل مخلوق من مخلوقاته (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) ويرى أن كرامات العارفين كمعجزات الرسل . وان العارف متى وصل ذهل ، ومن هنا لا يكلف والتكليف لمن يعقل التكليف .

وهذا القول باطل ومعارض لمفهوم الإسلام الاصيل الذي لا يقر سقوط التكليف عن أى واحد من المسلمين ولا عن النبي .

ويقرب ابن سينا في هذا من أسلوب الباطنية وان البسه ثوباً صوفياً برافاً ومن أخطر آرائه القسوية بين المعجزات والكرامات والسحر التي يستشهد عليها بتجارب الحكماء من الوثنيين وهو مادي في نظره حيث يرجع المعجزات والسحر والكرامات إلى تأثير القوى النفسية للأجزاء السماوية .

ويكشف ابن سينا في ختام كتابه (الإشارات والتنبيهات) عن هويته التي أخفاها كثيراً عن الناس في أبحانه وبدا وكأنه العالم متخصص ، فهو يسجل في الوصية التي يوصي بها أتباعه روحاً باطنية واضحة ، ويقدم منهجاً باطنياً صريحاً شبيهاً بمنهج أخوان الصفا والفلسفة الاسماعيلية ، ويوصي أتباعه بأن لا يذيعوا أسرار الحكمة الشرقية إلا لمن يتقون بنقاء سريرتهم واستقامة سيرتهم وطلب من خلصاته أن يقرأوا في حلقة مغلقة ، وأن يدرسوا الحالة النفسية لمن يريدون ضمهم إلى مذهبهم مع أخذ العهد على

المريدين أن يسلكوا مسالكهم مع الذين سيوكل إليهم فيما بعد مهمة جذبهم إلى هذا المذهب السرى الباطن وهذه الوصايا تشبه وصايا الباطنية .

* * *

وقد تحدث الدكتور محمود قاسم عن ابن سينا وكشف القناع عن حقيقته فقال أنه حرص على تأويل النصوص الدينية تأويلاً باطنياً حتى يجعلها على وفاق مع فلسفته الخاصة وهي فلسفة إشراقية في المقام الأول وهي تلك الفلسفة التي انتقلت إلى أوروبا وأشار إلى حياته الخاصة فقال أنه خصص أمسياته للسمر والشراب والسماع وطالب المتعة ، وكان مسرفاً على نفسه فلم يمن بعلاج المرض الذي أصابه ولم يتحفظ في شربه وطعامه ولم يقتصد في متعته فأشدد عليه المرض ومات في السابعة والخمسين ، وقال إن نظريته في الفيض مأخوذة مما أورده بطليموس عن العقول العشرة كما تأثر في قصيدة النفس بأراء أفلاطون .

(٤)

ولا يخلو الأمر من توجيه نفس الإتهام إلى الفارابي فقد كان باطنياً عميق الباطنية وآية ذلك أنه فسر النبوة على أساس تعاليم الشيعة الإمامية ، وبعد الفارابي أول من أقام نظرية صوفية فلسفية في الفكر الإسلامي ، وصوفية الفارابي لا تقوم على مجاهدة النفس أو البعد عن اللذائذ لقريبه النفس بل هو تصوف نظري يعتمد على الدراسة والتأمل ، وطهارة النفس في رأيه لا تصدر عن طريق الجسم والأعمال البدنية بل عن طريق العقل والسعادة عنده أن تصير نفس الإنسان من السكّال في الوجود بحيث لا تحتاج في قوامها إلى مادة وهذه المفاهيم جميعاً من مفاهيم الفلسفة الهلينية ولست من مفاهيم الإسلام .

(٥)

واقدر اثمرت دعوة الباطنية نماذج خطيرة من الدعاة من أمثال ابن الراوندى الذى هو ثمرة أكيدة للفلسفة اليونانية وقد إدهى ابن الراوندى انه لا يقبل من الأفكار إلا ما يخضع لمنطق العقل البشرى ، وعنده ان رسائل الانبياء لا تحتاج إلى وحى من السماء لأن كل ما قال به الانبياء لا يشق على العقل ويمكن أن تستغنى البشرية عن دعوتهم لأن ما يطالبون به الناس من عبادات وشعائر لا يستسيغها العقل ولا يوجد مبرر منطقي يلزم بأدائها وأن معجزات الرسل لا يصدقها العقل ويحتمل أن روايتها توافطوا على الكذب وأن آيات القرآن ليست خارقة للعادة ويصح أن يتفوق فرد بمهارة أدبية على ناطق اللغة العربية .

هذه السموم والأضاليل التى أوردها ابن الراوندى هى التى حفزت دعاة التغريب على بعثه فى هذا العصر الحديث وتجديده وإعادة الحديث عنه حتى توضع هذه الشبهات تحت أنظار الشباب المسلم فتجرى على ألسنتهم وتكون موضع حديثهم ظانين أنهم بذلك سيفسدوا حركة البقظة التى يمر بها الإسلام اليوم ومن هنا عنى يابن الراوندى كثير من الباحثين وفى مقدمتهم عبد الرحمن بدوى الذى أذاع هذه الآراء، وحسنها والواقع أن هذه الآراء فى جملتها ليست إلا شبهات باطلة يستطيع كل مغرض أن يجمعها وأن يذيعها ولكنها لا تتخذ أحداً وخاصة من يدرس حياة ابن الراوندى ويعرف أنه وجعل فارسي الأصل من أصل يهودى كان أباه يهودياً ثم أسلم وما زال هو متصلاً بالمجوسية الفارسية ، وله إرتباط بالمؤامرة الباطنية وقد عرف بالتفاق وباع قلبه لكل الفرق والمذاهب والأديان فقد ألف لليهود وللرافضة وأجراً كتبه (الزمردة) الذى يحاول به أن يقول ببطلان رسالة الانبياء ، وقد وضع أبو الحسن الخطيب كتاباً فى الرد عليه وكشف زيفه واثبت الحادى ولقد (١١٢ - المؤامرة على الإسلام)

اتصل ابن الرواندى ثمة بالمعتزلة وتعلم منهم الجدل المنطقي المضلل وعرف كيف يستغله في اثاره الشكوك حول الإسلام .

قال الحافظ بن الجوزى : زنادقة الإسلام ثلاثة : ابن الرواندى وأبو حيان وأبو العلاء ، روى أن بعض اليهود كان يقول لبعض المسلمين بشأن ابن الرواندى : ليفسدن عليكم هذا كتابكم كما أفسد أبوه التوراة علينا ، فقد انفق أبوه لأمر ما عن أهل طائفته فأخذ يثير عليهم عجاج الجدل والمشغبة ، كما كان ابنه يفعل فيما بعد فإذا لم يتم له ما أراد انقلب مسيحياً نكابة في بنى دينه اليهود .

قال البلخى أنه كان في أول أمره حسن السيرة حميد المذهب ، ثم انسلخ عن الدين وأظهر الالحاد والزندقة وطرده المعتزلة لوضع الكتب الكثيرة في مخالفة الإسلام .

وكان ابن الرواندى ملحداً في شبابه ولكنه كان أعرف بإعجاز القرآن وسحره من أكثر المؤمنين ، وقد وضع كتاباً لليهود يرد فيه على المسلمين ثم رام نقضه بنفسه فنقضه ووضع كتاب (الإمامة) للرافضة لقاء ثلاثين ديناراً ووضع كتباً غيره في التوحيد وأصله . عارض نظم القرآن بنظم من وضعة ، وضع للرافضة ضد السنة وللشعة ضد الآخرين قال عنه أبو العباس : أن ابن الرواندى كان لا يستقر على مذهب ولا يثبت على حال حتى أنه صنف لليهود كتاب (البصيرة) لأربعمائة درهم أخذها فيما بلغنى من يهود سامراً فلما قبض المال رام نقضه حتى أعطوه مائة درهم أخرى فأمسك عن النقض .

وقيل كانت طريقة ابن الرواندى في حياته المذهبية التلاعب بالفرق والملل وبأهل كل منهما بمدح اليوم مذهباً ويحقر آخر وبما ألف كتاب يطمئن فيه في نظم القرآن نقضه عليه الحياط وأبو على الجبائى وسهل بن نونجمت

ونقصه على نفسه وكان صديقا لابن عيسى الوراق وأبي حفص الحداد وغيرهما من مشهورى ملاحدة ذلك الزمن الذين تسقروا بالرفض ومن كتبه : كتاب (التاج) يحتاج فيه على قدم العالم وكتاب (الزمردة) يحتاج فيه على الرسل ويعرهن على ابطال الرسالة وكتاب (الفرند) فى الطعن على النبى وكتاب (اللزوة) فى تناهى الحركات وقد أعيد منذ قريب طبع كتاب (الانتصار والرد على ابن الرواندى الملحد ما قصد به الكذب على المسلمين والطعن عليهم) بقلم الحسين بن الخياط بتعليق الدكتور ينبرج بجامعة ابساله بالسويد صدر عام ١٩٢٥

ويمثل ابن الرواندى قفة موجة الإلحاد التى أثارها الدعوة الباطنية فى محاولة إنكار الأديان كلها ويقصد بها الإسلام .

وقد كتب عنه كثيرون منهم سليم خياطة (المقتطف ١٩٣١) وعنه نقلنا بعض هذه النصوص وقد أشار هذا الكاتب المسيحى إلى تلك الظاهرة التى عرفها الإسلام ولم تعرفها الأديان ولا الأمم : تلك هى حرية الرأى والسماح لكل صاحب نخلة بأن يتكلم بها دون مصادرة ، فى اعتقاد بأن الفكرة الفاسدة لا بد أن تسقط مهما حشدت لها الجهود ، نقول وأن ما تحشده حركات التغريب من تجديد هذه الآراء سوف يلقى نفس المصير : (ينفقون أموالهم ليصدروا عن سبيل الله فيسيفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغفلون) ويقول سليم : لا نود أن نختم هذه النظرة العجلى من غير أن تبدى إعجابنا بهذه المدنية الإسلامية السمحة التى كانت تأذن لأمثال صاحبنا ابن الرواندى بهذا الإجتراء على عقائدها وبهذا التهمج والتنفص من تفكيرها ودينها وهى ساكنة هادئة تؤلف الكتب رداً عليه ودحضا لما انمال به عليها من حامى اللطامات وأن تاريخ المدنيات القديمة لا يروى لنا سيرة أى جرى منهور بلغ تهوره إلى الحد الذى بلغ بصاحبنا .

(٦)

ويأتى محمد بن ذكرى الرازى : كواحد من أتباع هذا التيار فقد انحرف
هذا الكيمائى الطيب وراء ابن الراوندى ووجه نفس انتقاداته إلى الأديان
فقط دون العلوم ، وأنكر النبوة وقال ان الناس يقساوون فى المواهب
والاستعدادات وأنه لاحق لاحد أن يزعم أنه يمتاز على بقية البشر بميزة
عقلية أو خاصة روحية مثل النبوة وأن المعجزات ما هى إلا أساطير
خرافية قصد بها تفرير العامة وان تعاليم الكتب المقدسة يعارض بعضها
بعضا فقامت الحروب بينها وإن لو اعتمد الناس على العقل الإنسانى فى تعريف
شئونهم ما اختلف اثنان فى أمور حياتهما ولو اهتموا بالفلسفة والعلوم
ما احتاجوا إلى عقائد الدين وتعاليم الانبياء ، وهكذا لم يجد الرازى من
ضروب الثقافة ما يستحق إخضاعه لمنطق العقل إلا الدين ، ولم يلتفت إلى
أن العلوم التى اشتغل بها من كيمياء وطب لا تخلو من عناصر تتعارض مع
أبسط قواعد العقل . فقد كانت الفلسفة اليونانية قد مهدت طريقها إلى العقول
وجعلت الأقيسة المنطقية منهجا للوصول إلى الحقائق فزودت هذا الفكر
الشاك بطرق حقيقة تدعم شكاه وتؤكدده . وكانت هذه التطورات مجتمعة
مقدمة الظهور آراء ابن الراوندى والرازى . فادعى ابن الراوندى أنه لا يقبل
من الأفكار إلا ما يخضع لمنطق العقل البشرى .

وجاءت هذه المقولة المبطله خادعة لبعض البسطاء الذين جروا وراء هذا
البريق وجعلوا أن وحى السماء ورسالات الانبياء لا تخضع لهذه المقاييسات
العقيمة وان العقل وحده قاصر وحاجز عن فهم كل الأمور وأن له مجاله
الخاص الذى يعمل فيه ولا يستطيع أن يتجاوزه .

وقد مزج الرازى بين علم الكلام والفلسفة كما تكلم فى مختلف درامات
المنطق والجدل والأدب والبلاغة والنحو والفقه والأصول والتفسير والتاريخ

والطبيعة والطب والفراصة والسحر وله كتب ثابتة وكتب منحولة وكتب مشكوك فيها .

وقد تعرف الباحثون في آثاره على أمر خطير وهو أن أقواله كثيراً ما تختلف من كتاب إلى آخر خلافاً يجعل بعضهم في أقصى اليمين وبعضها في أقصى الشمال بل أن له آراء متعارضة يضمها كتاب واحد .

وقد أشار الكثيرون إلى أن الرازي رجل مشكوك فيه وليس موضع الثقة العلمية وأنه يمثل الثقافة الاغريقية وأعمال فلاسفتها هذا وقد أعلن براءته من هذه الآراء عند موته .

(٧ .)

ويتصل بهذا شعراء بجان أمثال بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس وأبو نواس وغيرهم من الشكاك الإباحيين وقد تصدى وأصل بن عطاء للرد على بشار بن برد وقابع رسالته في الرد على الزنادقة وتفنيد سائر أعمالهم سواء ، من دعاة المانوية أو المجوسية وله كتاب في الرد على المانوية اشتمل على أكثر من ثمانين شبهة لهم والرد عليها — قال عمرو بن عبيد ليس أحد بأعلم بكلام الباطنية ومارقة الخوارج وبكلام الزنادقة والدمرية وسائر المخالفين من وأصل وقد اشترك تلاميذ وأصل في الرد على رؤساء الزنادقة أمثال صالح بن عبد القدوس ، وأرسل وأصل الوفود إلى مختلف الأنحاء لتفنيد أقوالهم ، كما ظهر الهذيل بن العلاف الذي تعمق أساليبهم الملتوية وخدعهم العديدة وكان بشار بن برد يذهب مذهب عمر بن أبي ربيعة في الغزل المشهور ومذهب الخطيئة في الهجاء الفاحش . وقد واجهه المهدي فقال له : انفض الناس على الفجور وتنفذ المحصنات ، وكان يدين بالرجمة ويكفر جميع الأمة وهو عن صوب رأى إبليس في تقديم النار على العين فالأرض عنده مظلمة والنار مشرقة وإبليس في رأيه خير من آدم وقد

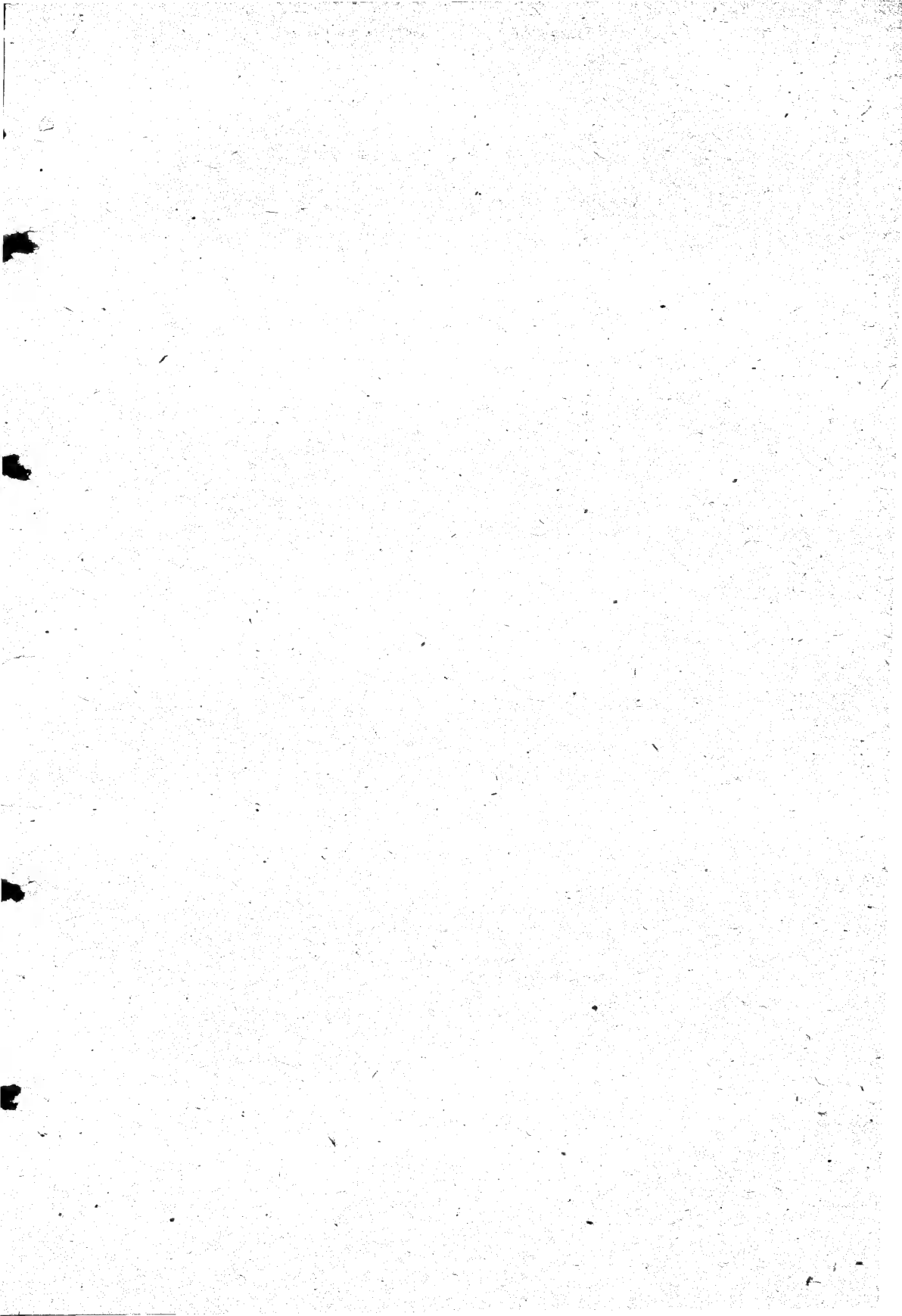
سخر بشار بالأذان وأنكر البعث والحساب وفضل شعره على القرآن وكان أباحى النزعة يقال أن له مجلس يدهى البدان وكانت النساء تحضره قال واصل بن عطاء أن من أخدع حبات الشيطان وأغواها لكلمات هذا الملحد الأعمى وكان متعصباً للفرس مدخولاً بالمجوسية يكره العرب ويشتمهم شتماً مقزحاً وقد ضرب بالسياط حتى مات وألقى في البطيحة لإخاشه في الهجاء والغزل القبيح .

ومع وضوح هذه الحقائق لكل من يدرس حياة بشار بن برد فإننا نجد كتاباً يعنون به في العصر الحديث ويكتبون عنه دراسات أدبية واسعة حافلة بالإعجاب به وتقديره مثل ما كتب عبد الرحمن صدقي وإبراهيم عبدالقادر المازني وكذلك ظفر أبو نواس وهو أشد إباحية من بشار وأشد عنفاً على الإسلام والعرب يمثل ذلك من أمثال العقاد وعبد الرحمن صدقي وغيره بل لقد أصدرت مجلة الهلال عدداً خاصاً عنه استكثبت فيه عدداً كبيراً من أعلام الأدب العربي المعاصر مع الأسف دون أن يلتفت أحد إلى مدى الخطر السامن وراء هذا الإهتمام البالغ والمعروف أن أبو نواس شغل نفسه بوصف الخمر والغلمان ونادم الخلفاء بمدحهم وبضحكهم وله هدف عميق أبعد من هذا الهدف ، هو خدمة مخططات المؤامرة الباطنية التي كانت تستهدف إزالة الدولة الإسلامية وكان أبو نواس ذكياً واسع الحيلة يستخف بالعقيدة وينشر الضلال والزندقة . وقد هذه المؤرخون والباحثون من كبار الثنوية وثبت في تضاعيف شعره تأثيره بالمانوية والمزدكية ، وقد كان داعية عصره إلى التحرر من القيود والتمتع باللذات ، وكان يقول أنه لا يؤمن إلا بما يقع عليه الحس وينسكركم البعث ومن مبادئ المانوية إثارة الشك في العقيدة ومهاجمة جميع الأديان وكان الغزل بالمذكر للذي أوغل فيه أبو نواس جزءاً أساسياً من المانوية .

كما ذكر ذلك البيروني: يقول حمزة الأصبهاني جامع ديوان أبي نواس ،

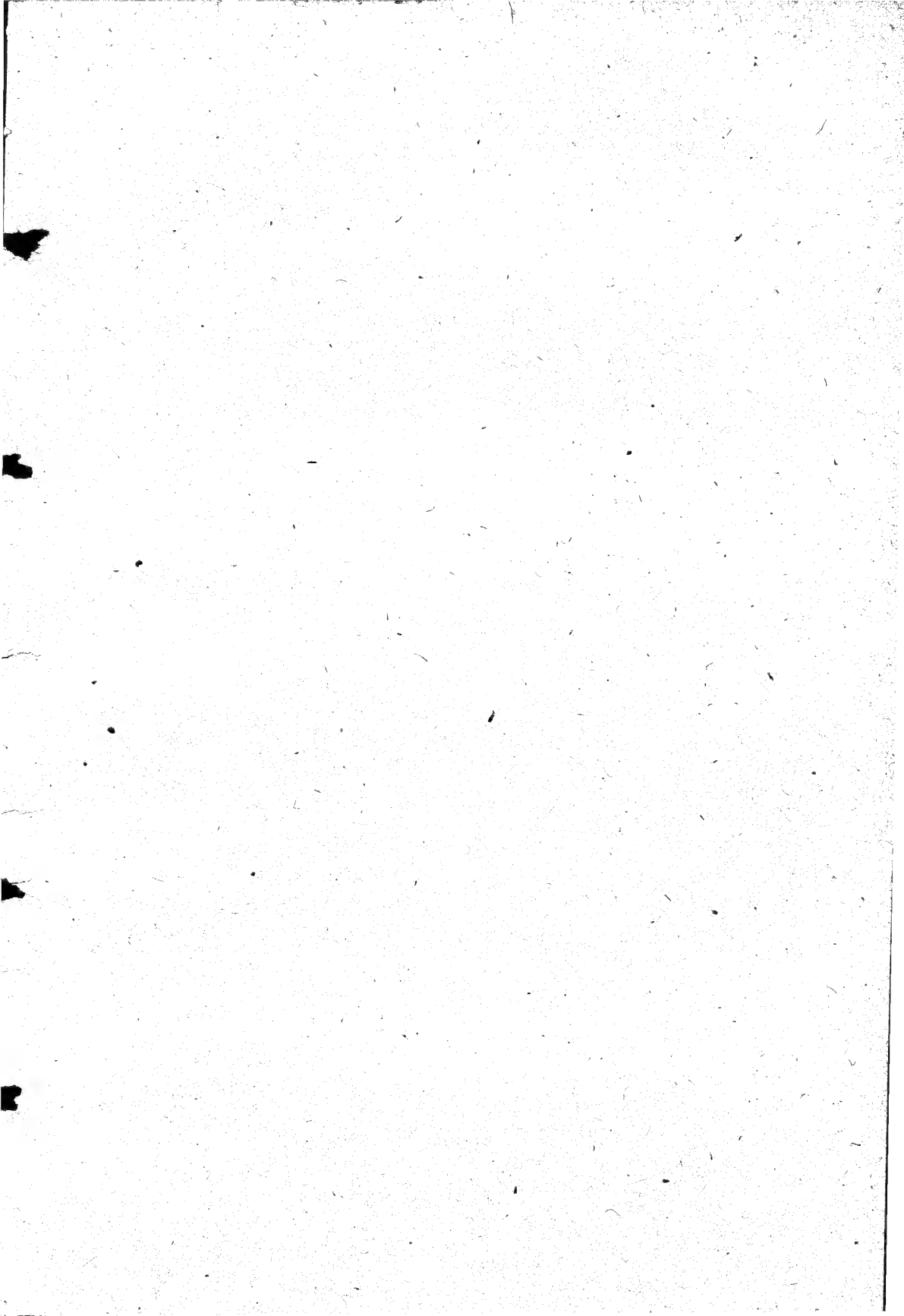
أن أبانواس هو الذى ابتدع قول الذكر وهو الذى أدخل إلى الأدب
العربي إفتتاح القصائد بالخمر بدلا مما كانت تفتتح به من البكاء على الأطلال
والدمن .

وفي شعره مظاهر واضحة من المانوية والمزدكية من حيث إثارة الشك
في العقيدة ومهاجمة الدين والإباحية المطلقة والقول بالذكر، فضلا عن تعصبه
للفرس واحتقاره للعرب ، وقد تناولنا أبانواس وبشار بتفصيل أوسع
في مكانهما في كتابنا (خصائص الأدب العربي) .



الباب الخامس

الجماعات الهدامة



الفصل الأول

مؤامرة القرامطة

تجىء الجماعات الهدامة ثمرة أكيدة للمؤامرة الخطيرة التي رسمتها القوى المضادة للإسلام ودولته وأثراً طبيعياً لذلك الركام الضخم الذي طرح في أفق الفكر الإسلامي عن طريق المعتزلة والفلاسفة والتصوف والفلسفي والفكر الباطني وقد تعددت هذه الجماعات وتنوعت ولكنها كانت جميعها تهدف إلى غاية واحدة هو اقتلاع هذا الكيان الإسلامي أو تمزيقه أو احتوائه أو صهره في أتون الفكر البشري الوثني المادي أو تدمير مقوماته وقيمه وإخراجه عن أصلته ، وقد تمثلت عمليات الهدم في حركات القرامطة والزنج والرواندية والحرسانية والبابكية وحركة المازيارد والأفشين وكلها حركات حاولت أن تشكل وجودها خارج الرقعة العربية مستهدفة إسقاط الدولة وتدميرها بوصفها الاطار الحافظ للدعوة الإسلامية وأن في إسقاطها إسقاط للإسلام نفسه وقد كانت حركة الزنج مقدمة لمؤامرة القرامطة ومدخلا إليها فلم تكن حركة الزنج إلا نتيجة تحرير عن خارجي حاول أن يلتمس مدخلا له في جماعة ساءت ظروف حياتها الاجتماعية وقد ادعى صاحب الزنج أنه من الخوارج وأن له نسباً علوياً وبالرغم من الصورة الخادعة المزورة التي حاولت بعض المصادر أن تصور بها هذه الحركة بأنها تستهدف المطالبة بالعدل الاجتماعي الإسلامي، فإن تصرف صاحب الزنج وجماعته يكشف بوضوح عن أنها مؤامرة تستهدف زعزعة الوجود الإسلامي ولو كانت حركة إسلامية أصيلة لانتس القائمون عليها منهاجاً إسلامياً غير هذه الصورة البشعة التي كانت قتلاً وتدميراً وإفساداً في الأرض دون أن يبدو من ورائها المنهج أي صورة

من صدر العدالة الإسلامية وغاية ما يقال فيها أنها لم تسفر عن نتائج حاسمة غير قتل المسلمين والابادة، كما يقول فيصل السامر في كتابه ثورة الزنج، الذي يرى أن ثورة الزنج لم تمكن خروجاً على الدولة والنظام القائم بل كانت خروجاً على الدين ولذلك تطوع آلاف الناس لحرب الزنج من العراق وفارس والبحرين فسرعان ما فقد الزنج كثيراً من قوتهم نتيجة معاونة أهالي جنوب العراق فضلاً عن مقاومة الدولة، كذلك فإن الأضرار التي تمت على أيدي قادة حركة الزنج والتي تعرض لها أهل المدن زادت من ضراوة مقاومتهم لهذه الحركة وزاد من عداة الأهالي لها.

ولاربي أن دراسة حركة الزنج في ضوء التفسير الاسلامي للتاريخ يكشف عن الحقائق الآتية:

أولاً: أنها حركة متآمرة تحت تأثير هدف خارجي وليست صادرة من مشاعر حقيقية.

ثانياً: أظهرت الحركة بعد القائمين بها عن المنهج الاسلامي وأنهم إنما كانوا يصعدون عن حقد وتآمر، إذ قاموا بفظائع ومكرات لا يقدرها إلا من تصفح كتابية الطبري عنها.

ثالثاً: دمر أصحاب حركة الزنج كثيراً من المدن الهامة منها البصرة والآبلة ولو كانوا دعاء لإصلاح لما هدموا المدن ولاعلنوا منهمجهم القائم على العدالة الإسلامية وهو ما لم يحدث مطلقاً.

رابعاً: خلعت هذه الحركة من برنامج اجتماعي في نطاق الاسلام فقد عجزت عن أن تكون حركة عدل اجتماعي في نطاق الاسلام إذ حرص العبيد الذي حرروا أنفسهم على إذلال العرب عن طريق استرقاقهم والتسكيل بهم.

خامساً: أقاموا سوق رقيق للحرث من نساء العرب وكان ثمن الرقيق

يرتفع ارتفاعاً ملحوظاً إذا كانت أولئك كانت النسوة من أمرى بنى هاشم
بصفة خاصة وهذا يكشف هوية الحركة وغايتها .

ومن هنا أيضاً نعرف كيف فشلت هذه الحركة فإن فشلها نتج عن كثرة
فظائنها وخلوها من منهج شامل في طريق أصيل ولقد تفرغ الموفق شقيق
الخليفة المعتمد لمكائنة ثورة الزنج فأنزل بهم الضربة وراء الضربة حتى حاصرهم
في عاصمتهم المختارة وقطع عنهم الصلة وسقطت عاصمتهم ٢٧٠ هـ وقتل رئيسهم .
ولاريب أن هذه الخطوط العامة كافية في كشف زيف ما جرت محاولات
دعاة التغريب وكتاب الماركسية وغيرها في العصر الحديث من وصف هذه
الحركة بأنها دعوة عدالة وحرية . ومن عجب أن الدكتور طه حسين كان من
أوائل من تحدث عن هذه الحركة ووصفها بالعدل الاجتماعي جرياً وراء
مخطط الاستشراق والتبشير الذي حاول أن يفسد معالم التاريخ الاسلامي
لخدمة مؤامرة جديدة .

* * *

ثم جاءت حركة القرامطة امتداداً لحركة الزنج . كانت حركة الزنج في
الساحة الممتدة بين البصرة وواسط ، وكان القرامطة ينشرون دعوتهم بين
سكان جنوبي العراق من العرب والقبط وقد بدأت بالتقاء عبد الله بن ميمون
القداح مؤسس الحركة الباطنية مع حمدان قرمط الذي قاد الحركة التي سُميت
باسمه ، وكان عبد الله ميمون القداح : قال لا بُدَّ أن الأئمة والأديان
والاخلاق ليست إلا ضللاً وسخريّة وأن باقي البشر ليسوا أهلاً لفهم هذه
المبادئ ، وكانت الباطنية تنشر دعوتها باسم النقيض لآل البيت ثم أضحت
مؤسسة سرية يرهب جانبها فقد قامت باغتيال كثير من رجال الدولة
الاسلامية وفي مقدمتهم نظام الملك الطوسي أبرز وزراء الدولة العباسية في
ذلك الوقت . ونظر الملك . وقد بحث القداح عن أنصاره بين الوثنيين وحلّاب
الفلسفة اليونانية .

يقول بلاشير : أن القرامطة استطاعوا أن يتغلغلوا في صفوف العامة ويجدوا لهم أنصاراً يعتقدون نحلهم ويتحمسون لمبادئهم وكانوا يلبسون حركتهم السياسية ثوباً روحياً عظيم أمهم وقد أسسوا إمارة مستقلة في بلاد البحرين وكان الوزير نظام الملك قد قهر هذه الحركة ثقافياً ولبس عسكرياً وسياسياً فقط ، فقد جابه نشاطهم بنشاط عمائل فأنشأ مراكز ثقافية تقف أمام ذلك النشاط ومعاهد علمية تخرج رجالاً يستطيعون الوقوف أمام الدعوات الباطنية وكانت تلك المعاهد تحمل اسم المدرسة النظامية في بغداد وقد استطاعت المدرسة النظامية أن تقف أمام الدعوات التي كان يشنها أعداء السنة على أهلها .

وقد كشف القرامطة على أنهم لبسوا بتجربة إسلامية أصيلة ولأنهم كانوا بكرهون الإسلام ويحقدون عليه ودليل ذلك على استهانتهم بالمقدسات الإسلامية وكرامة البيت الحرام فقد أغاروا على مكة ونهبوا الحجج عام ١٣٧هـ وقتلوهم وقلعوا باب البيت ، وشرقوا الحجر الأسود .

ولعل هذا الحادث وحده يكفي لأن يزيف ما يقول به دعاة التنزيه والمستشرقين والماركسيين من أمثال جارودي وغيره عن أن هذه الحركة تجربة إسلامية صحيحة .

وقد حاول جارودي أن يصف القرامطة بأنهم دعاة عدل اجتماعي ، وكشف زيف هذه النظرية الدكتور محمود قائم وأبان أن عمل القرامطة لم يكن سعياً إلى تحقيق كرامة الإنسان بل كانت حركة انفصالية تمت في عصر تهيئ الدولة العباسية إلى دويلات متصارعة .

وكان هذا التحلل دخیل على روح الإسلام، يقول الدكتور قائم : كانت حركة القرامطة استمراراً لثورة الزنج التي قامت قبيل منتصف القرن الثالث الهجري : تلك الثورة التي نشأت لتحرير العبيد لكنها لم تكن حركة عدل اجتماعي بل كانت نوعاً من الأخذ بالثأر فقد حرص هؤلاء العبيد الذين

حرروا أنفسهم أن يعملوا على إذلال العرب عن طريق استرقاقهم والتفكيك بهم. أما حركة القرامطة التي قامت في الشمال الغربي لبلاد العراق ثم اتخذت مراكز لها في منطقة الكوفة وفي بعض بلاد الشام وفي سواحل الجزيرة العربية المطلة على الخليج الفارسي ثم استقرت آخر الأمر في البحرين .

نقول أن هذه الحركة التي توصف بأنها ثورة اجتماعية كانت على صلة وثيقة بالحركة الإسماعيلية في دور الستر وإن اختلفت معها في دور الظهور فإن الفاطميين رأوا بعد ظهور دولتهم في الغرب أن يستقلوا بتوجيه السياسة في ذلك العصر بإسقاط الدولة العباسية بعد نجاح الدولة الفاطمية في المغرب العربي .

ومن جانب آخر يمكن القول بأن الحلاج المتصوف المشهور كان من أكبر الدعاة لتحطيم الدولة العباسية إذا كان على صلة بالقرامطة .

ويقول الدكتور قاسم : يكفي أن الأستاذ جارودي نفسه يعترف ضمناً بأن حركة القرامطة حركة طائفية . أقر القرامطة شيوع المال في مجتمعهم الثائر وحققوا المساواة بينهم على حد ما يقوله جارودي (فكان كل شخص يعمل بأكثر قدر ممكن من الجهد والمنافسة حتى يصل إلى مركز ممتاز مما تقدمه من خدمات للطائفة) .

يلاحظ أن صاحب هذه الحركة كان من الموالى ولأنه نشر مبادئه في طائفة العمال والصناع والعبيد والفلاحين والأجراء من الموالى ثم انضم إليهم عدد من الغرب ، وقد قامت الحركة في مكان قريب من المكان الذي قامت فيه ثورة الزنج ووجدت مكاناً خصباً في الكوفة وتظاهر أصحاب هذه الحركة بالتشيع والميل إلى البيت العلوي وإن كانوا يسلكون من الناحية العملية مسلكاً آخر إذ اعتدوا على الإمامين المقدسة وجرحوا صحابة الرسول بل الرسول نفسه .

وقد كان هذا المجتمع والاشتراكي ، مجتمعاً طبقياً فبه ما يقدم العضو المنتمى إليه من المال كانت ترتفع طبقته . كانت هناك شيوعية في المال ولكن طبقة العبيد التي تتكون من الأمري لم تكن تعامل على قدم المساواة مع الآخرين .

يسأل : كيف هاجم طائفة القرامطة موسم الحج وقتلوا نحو أربعين ألفاً من الحجاج وانزعوا الحجر الأسود من الكعبة صرفاً للناس عن الحج ، كل هذه الوقائع تؤكد وجود صلة بين هذه الطائفة وأمتالها وبين الحلاج الذي كان معاصراً لحركة القرامطة : ومن الطريف أن الحلاج قد أدين وقتل بتهمة صرف الناس على الحج وقد ورد في تاريخه أنه كان يستعيز عن الحج بكعبة مصغرة في بيته بطبوف بها أقباعه طوافاً يغنيهم عن الذهاب إلى مكة .

كذلك أشار الدكتور قاسم إلى الصلات الخفية والظاهرة بين الباطنية وبين الصليبيين في القرنين الخامس والسادس الهجريين وهي تنكشف بوضوح عن ظاهرة فكرية عميقة بدأت في القرن التاسع الميلادي وانتقلت إلى أوروبا في القرن الثالث عشر فقد انتقلت أفكار القرامطة والباطنية مع الصليبيين إلى أوروبا وأدت إلى ظهور الماسونية . وهذا يفسر لنا فكرة محاربة الأديان عن طريق ضرب بعضها ببعض عند الماسونية وعند من ارتبط بهم من الداعين إلى الثورة الفرنسية .

ومن هنا فإن الماسونية يصفون الحسن بن الصباح رئيس الطائفة الإسماعيلية الشرقية في القرن الخامس الهجري بأنه من أسلافهم ويقولون عنه إنه كان الأستاذ الأكبر للماسونية في العالم الإسلامي ، ومن هنا يمكن أن نعرف كيف اتخذ (جارودي) من حركة القرامطة عنصراً من عناصر الحركة الاشتراكية ، ا . هـ .

(٢)

ولا ريب أن من درس حركة القرامطة يجد أنهم اتخذوا أساليب لا تتفق مع مفاهيم الإسلام : أبرزها العنف والتدمير والقيام بالفظائع ، كما أنهم طبقوا في مجتمعهم أراء مزدك في شيوعية الأموال وإباحة النساء ، فكيف يمكن أن يقول مؤرخ مغرض أو باحث تغريبي أن هذه الحركة أو أخرى من نوعها يمكن أن تنسب إلى أنها حركات إصلاح إسلامية وقد حمل لواء الدعوتين القرامطة والزنج خصوم الإسلام من الوائيز والثنوية والمجوس الذين ادعوا كذبا وتضليلا الانقسام إلى أهل البيت وهدفهم تدمير الإسلام بالقضاء على دولته .

ولا ريب أن مختلف المفاهيم التي طرحتها هذه الحركات في نظامها السيامي والاجتماعي مستمدة من الجوسية والوثنية فهم يؤمنون بأن الجنة هي الدنيا ونعيمها ، فلا يؤمنون بالبعث والجزاء كما يعارضون مفهوم الإسلام في التنظيم الاجتماعي والسيامي فقد وجهت الخصومة بوضوح إلى الإسلام كعقيدة ونظام واعتبرته هذه الدعوات مصدر البقاء وحاولت أن تحل مفاهيم الباطنية بديلا عنه وقد طبقت فعلا ، مثل هذه المفاهيم التي هي ركام الفكر البشري الوثني والمادى وتبين من التجربة أنها لم تحقق إلا الظلم والفساد والإباحية والهدم وبقي الإسلام قويا عملاقا صامداً وذهبت هذه الدعوات وبقي الإسلام .

ذلك أن هذه الحركات لم تصدر عن منهج أسامي يتيح لها صفة البقاء وقد اتخذت كل منهما أساليب غاية في العنف والتدمير ، إذ قام الداعون إليها بفظائع لا حد لها وقد حمل لواء الدعوتين متآمرون ادعوا الانقسام إلى أهل البيت واستهدفوا القضاء على الدولة .

ولقد استمدت هذه الحركات مفاهيمها من التنظيم السري الباطني الذي

رسمه لإخوان الصفا وغيرهم ، وهي تستهدف في الأساس تدمير الدولة الإسلامية وإرجاع مجد فارس المجوسية القديم ، والعودة إلى الوثنية والتنوية والمأنوية .

وقد ارتبطت مختلف حركات القرامطة في العراق والبحرين والحشاشين والباطنية في سوريا وإيران واتخذت من الحشيشة وسيلة إلى إغراء الشباب المنظم إليها باعتناق مذهبها وخداعهم برفع التكليف واستباحة المحرمات .

وقد حاول المستشرق دودى أن يمجّد هذه الحركة فقال إنها أسفرت عن نتائج مدهشة هي أن جمهوراً كبيراً من أناس يعتقدون مذاهب مختلفة كانوا يعملون معاً لتحقيق غاية . نقول دوماً هي الغاية إلا للتأمر على الاسلام وما يجمع هذه الجموع إلا الأهواء والشهوات والاغراء والخداع ولكنها عجزت عن أن تصلح إغواجاً أو تقيم مائلاً ، وثبت فعلها في اتجاهها نحو الافساد والظلم .

ولم يلبث أثرها إلا قليلاً حتى انكشف وتبين أنها حركة معادية للاسلام ناشئة بين قوى أجنبية تريد أن تدمر هذا الكيان القائم ولم يجدهم أن جمعوا جمعاً لا تربطها رابطة إلا إباحة الملذات والخمر والشهوات وتقديمها لهم للاستعانة بهم على تحقيق غاياتهم البعيدة .

ولم تزد دعوتهم على أن عمدت إلى نهب أموال الاغنياء وإباحة الخمر ونكاح المحرمات من البنات والأخوات والغلبة والفنك رجال الدولة وزلزلة الأمن في المجتمع .

ولقد تأمرت تلك النحل من المجوس واليهود والنصارى والصابئة والوثنيين والبراهمة وكلها دعوات تشكر وجود الله وتحقده على الاسلام النامي الممتد أولئك هم الذين جمعهم قيادات القرامطة والحركات الباطنية باسم الأهواء والاحقاد ، فما استطاعت أن تحقق شيئاً إلا الدمار ، وما استطاعت

مؤرخ منصف واحد أن يصف هذا الفساد بأنه حركة لإصلاح إلا اليهودية العالمية التي عقدت مؤتمر بلنيمور عام ١٩٤٨ في الولايات المتحدة وقد جمعت له بعض المبشرين والمستشرقين لوضع خطة إلى إحياء هذه الحركات وإعادة طرحها في المجتمع الاسلامي على أنها حركات لإصلاح ونهوض ومعارضة للنظام الاسلامي وقد تمكنت هذه الدعوة من تجنيد بعض الكتاب الذين وصفوا القرامطة والباطنية بأنها ثورات الاسلام ، ولكنهم لم يمدعوا أحداً فقد تعرف المسلمون الآن على مصادر الشبهات التي تحميكها اليهودية العالمية والاستعمار والماركسية .

(٣)

ولم يتوقف الأمر عند حركة الزنج والقرامطة ، بل تعددت الحركات كحركة المقتنع الخراساني وحركة بابك الخرمي وحركة المازيار وحركة الأفشين وحركة الراوندية وكلها مؤامرات تحمل نفس الولاء الباطني والانجاء المجوسي الخافد الذي يحاول هدم النظام الاسلامي وتدميره فقد كانت هذه الحركات السرية تتظاهر بالاسلام ومحبة آل البيت لتعمل على هدم السلطان العربي الاسلامي مقدمة لهدم الاسلام نفسه ، وأنها كانت تجمع الناس في مناطق فارس بالماؤمرة والاغراء والقهوات على أساس الحقد والكراهية والمطمع ، ولذلك فإنها ظلت بالرغم من صورتها المربعة التي كانت تشير إلى القوة والسلطان . كانت هشة وأنها عندما ووجهت بقوة حقيقية سقطت كأنما كانت حصونها من الورق المقوى ، ولم تستطع مؤامرة الباطنية بتجميع ظلمات المجوسية والمزدكية والزرادشتية والمناوية أن تواجه ضوء الاسلام ولم يبق من بعد منها إلا هذا الركام الفاسد الذي بحث عنه المستشرقون والمبشرون وخصوم الاسلام في العصر الحديث لتجديده وبعثه ووضعه مرة أخرى في أيدي المسلمين ليفرقهم ويمزق وحدتهم وليصرفهم عن حقيقة الاسلام وليؤثر الخلافات مرة ثانية من العرب والفرس وبين الفرق المختلفة التي ماتت وانطوت .

(٤)

كان أقوى نفوذ الباطنية وأشد بأسهم حين ظهر (الحسن بن الصباح) وقد ادعى أنه ينتسب إلى ملوك حمير القدماء وقد ظفر بالحصن الجبلى المعروف بالموت ٨٤٣ قرب بحر الحزر ، وكان نظام الملك يخشى الحسن ويتوجس خيفة منه وقصته معه معروفة حين ألحقه ببلاط ملك شاه فقد بدأ الحسن يدرس على نظام الملك نفسه إلى أن دبر له نظام الملك تدبيراً ألجأه إلى الحرب .

ومن حصن الموت قامت دولة الحشاشين إلى أن قضى عليها جنسكيز خان في طريقه إلى بغداد . وكان الحشاشون قد اعتصموا بمجموعة من الجبال وكانوا يقطعون الطريق فلم تستطع قوى الدولة من الوصول إليهم أول الأمر فاستطاعوا إحداث الاضطراب بالتعاون مع الصليبيين واستغلال انشغال الدولة في مواجهة الحملة الصليبية ، ومع ذلك فإن السلاجقة استطاعوا إسقاط أكبر حصونهم وكانت الضربة القاضية هي التي وجهها إليهم الظاهر بيبرس .

وقد كان الحشاشون يعمدون إلى الاختيال كوسيلة لتحقيق أغراضهم ، كما كانوا يستعملون الحشيش لتخدير الأعضاء الجدد وحملهم إلى حداثتهم الجلية لانقائهم أنهم في الجنة ، وزادت قوة الحشاشين في جميع أنحاء الدولة في فارس والعراق .

ولكنهم ظلوا — رغم المدة التي قضوها — يعبثون على هامش المجتمع الاسلامى والدولة الاسلامية .

وقد استغلوا هذه المرحلة من ضعف الخلافة وتمزق الدولة وانسلاخ بعض الولايات وغلبه القوى العسكرية المختلفة على سلطان الدولة وقيادتها

وثميين الأمراء الذين تولوا الإدارة والمال والجيش ولم يبق للخليفة إلا الإسم .

وكان ذلك كله مقدمة لسقوط بغداد ٦٥٦ هـ وزحف القوى الصليبية إلى القدس ولقد تكشف حقائق كثيرة في هذه الفترة ردت المخدوعين إلى فهم الأمور، فقد تبين أن كثيراً من هؤلاء الذين خدعوا الناس بالحيل والكرامات من أمثال ابن عربي والحلاج والسروردي أنهم من تلاميذ الباطنية وأنهم يستقرون تحت أسماء لامعة وكلمات براقة بينما هم على صلة بالمتأمرين سياسياً متفقون معهم على هدم الدولة وتقويض وجودها .

كما تبين أن الحركة الباطنية هي ثمانى فرق أو تسع من المتأمرين تنظم بجمعة الأقطار العراقية والفارسية وتضم بقايا المجوسية والمزدكية والبابلية ولها شاراتها ورموزها وأسرارها التي تخفى وراءها مقاصدها وغاياتها وأن هذه الدعوات أصبحت ملجأ لكل ناظم وحائد ولكل صاحب شهوة وهوى .

(٥)

ولقد تعددت في العصر الحديث كتابات الشعوبيين والشيوعيين التي تحاول إحياء هذه النحل الباطلة مفسرة إياها في ضوء التفسير المادى للتاريخ، أو في ضوء المفاهيم العنصرية والقومية الضيقة عندما يحاول البعض أن يدعى أنها كانت حركات إصلاحية ترمى إلى تحقيق العدل الاجتماعى أو أنها انتفاضات قومية، ولقد ادعى أحد هؤلاء أن حركة بابلك الحزمية هي انتفاضة الشعب الارزبيجاني ضد الخلافة العباسية ، وفي هذا من المبالغة وانتفاص الحقائق التاريخية ما فيه . بينما لم تكن البابكية إلا واحدة من حركات هدم ما بناه الإسلام وفتحت الصرح الذى أقامه الفكر القرآنى الربانى الأصيل ،

ويشهد بذلك ما يقوله المؤرخ العباسي صاحب العيون والحقائق في أخبار الحقائق : بأنه ، لم يكن في الإسلام حادث أضر بالإسلام والمسلمين من ظهور بابك الخرمي بتلك المقالة التي تفرع عنها القرامطة والباطنية .

وبما يردده دعاة التغريب سواء في إطار الفكر الغربي أو الماركسية من أن الباطنية قد حاولت أن تعيد للمرأة حقوقها وحريتها ، وكذلك وصفت المشاعية والدعارة التي دعت إليها وأقرتها هذه الجماعات بأنها حركة تقدمية للمرأة .

ولقد كانت حركة بابك واحدة من الحركات الباطنية وقد قامت على ما قامت به حركة القرامطة من ترك العنارات والتحلل من الالتزامات الأخلاقية وتؤكد وثائق التاريخ (المسمودي : مروج الذهب) وغيره أن بابك تحالف مع امبراطور الروم ثيوقيل ووقع اتفاقاً مكتوباً للقضاء على الجيوش العباسية وتحطيم السيادة العربية .

ونقول المصادر أن امبراطور الروم ثيوقيل قدم مساعدات ضخمة لبابك وللخرمية لمهاجمة المسلمين وأنه قبل الخرميين الفارين إلى الأراضي النيزنطية وأن فلول البابكيين انضمت بعد اندحارها إلى الإمبراطور البيزنطي . واعترف المازيار وهو أيضاً من المتأمرين تحت لواء الحركة الباطنية بعد أسره لإعترف باتفاق المتأمرين على أخذ الامبراطورية من العرب وإعادة تأسيسها كإمبرة الفرس ، كما اتفق الأفشين والمازيار على أحياء مذاهب المثنوية والمجوس ، فكيف يمكن أن يجيء اليوم من يستخرج هذا الفكر ويقدمه مرة أخرى للمسلمين على أنه فكر تقدمي أو اشتراكي وكيف يمكن أن توصف مثل هذه الحركات المتأمرة التي انكشفت مؤامرتها بأنها حركات عدل اجتماعي كما صورها طه حسين وجماعة المستشرقين ودعاة التغريب .

واقعد حاولت الباطنية خداع الجماهير بالمغالطات المنطقية والإغراءات

الكاذبة عن الفردوس الموعود ثم تبين من "بعد أن ذلك ليس إلا مثيلاً
للخدعة الماركسية العصرية ولقد هزمت هذه الحركات وتحطم مضمونها
الفكرى تحت سوابك الأصالة الإسلامية التي لم تلبث أن سيطرت وعلت
وانتصرت على ركام الفكر البشري المضلل .

كما تبين أن نشاط هذه الفرق الهدامة لم يهدد أبداً الحضارة الإسلامية
ولم يهددها خاصة بالزوال كلياً في أى منطقة إن لم يكن قد زادها قوة وكذب
ادعاءات المبطلين من المنتشرين .

البَابُ السَّادِسُ
تجديد الفكر البشرى



تجديد الفكر البشري

كان الفكر البشري قد لقي مواجهة أصيلة صادقة ردت عليه وحده وكشفت زيفه وأدلت منه على النحور الذي قضى عليه وكشف عن جوهر مفهوم الأصالة الإسلامية الذي أطلق عليه مفهوم أهل السنة والجماعة غير أن النفوذ الأجنبي بأجهزته من الاستشراق والتبشير والغزو الفكري والتغريب والشعوبية قد عمد إلى إحياء هذا الفكر الإسلامي لإثارة الشبهات وتمزيق وحدة الفكر الإسلامي من جديد ، وقد تحركت هذه المحاولة تحت اسم « تجديد الفكر العربي » بدعوى أن الفكر العربي المعاصر قائم بذاته ومنفصل عن الفكر الإسلامي وأنه يتشكل من جديد منقطعاً عن امتداده المتصل خلال أربعة عشر عاماً ومتصلاً بالفكر الغربي على النحو الذي يدعو إليه رجال الإرساليات والمبشرين وذلك حتى يتشكل فكر جديد تحت اسم الفكر العربي ، يكون محاصراً من الفكر الغربي ينظر إلى الإسلام وإلى عقيدته وتراثه نظرة منفصلة وتقوم النظرة على منهج النقد الغربي الوالد الذي ينظر إلى الأدب على أنه نتاج العصر والبيئة وحدهما بينما تقوم النظرة الإسلامية العربية على أن الأدب العربي يستمد جذوره وعوامل حياته من الأصل الأصيل القرآن ، وأن الأدب ليس الإقطاع من الفكر العربي الجامع المتكامل لا ينفك عنه ، ويقوم على أسس المسؤولية الفردية والجزاء الأخروي وأخلاقية التعامل الاجتماعي .

وقد توزعت هذه المحاولة الخطيرة على دراسات الكلام بالدعوة إلى إحياء الاعتزال وتصوير الدعاة إلى تجديد الفكر الإسلامي بأنهم معتزلة ورجال كلام جدد ، وبالدعوة إلى تجديد الفكر الفلسفي في الجوانب التي

هاجها الغزالي وقضى عليها ابن تيمية وبالدعوة إلى إحياء التصوف الفلسفي القائم على الحلول والاتحاد ووحدة الوجود وبالدعوة إلى إحياء الفكر الباطني الشعبي .

وقد سارت حركة تجديد الفكر البشري في هذه الميادين الأربعة ، نمت لواء ما أطلق عليه « الفكر الحر » .

وقد بدأ الاستشراق هذه الخطوة : بإحياء هذا الركام القديم وإعادة طبعه ونشره :

بدأت هذه المرحلة عام ١٩٠٩ بكتاب لويس ماسنيون حتى حل لواءها طه حسين ١٩٢٦ بعد سقوط الخلافة ثم جددتها عبد الرحمن بدوي ١٩٤٦ ثم جاء زكي نجيب محمود منذ عام ١٩٦٧ وفي ظل التنكسة لإحياء هذا التراث على نحو جديد .

١ - نشر لويس ماسنيون كتابات الحلاج والسهروردي وفريدالغطار وابن سبعين .

٢ - نشر جولد مهر كتابات صالح بن عبد القدوس .

٣ - نشر كريمسكي عن إبان بن عبد الحميد اللاحقي .

٤ - نشر فرنسيسكو جبريل وباول كراوس عن ابن المقفع .

٥ - نشر باول كراوس عن ابن الراوندي .

٦ - نشر فرنسيسكو جبريل عن بشار بن برد .

٧ - نشر باول كراوس عن محمد بن زكريا الرازي .

٨ - ما كتبه أسين بلاسيوس عن ابن عربي .

ثم جاء دور التفريبيون العرب فقاموا بدور كبير :

١ - كتب طه حسين عن الزنادقة : بشار بن برد وأبونواس وحمام وإبان بن عبد الحميد وحمد طبع آثار ابن المقفع ورسائل إخوان الصفا .

٢ - كتب عبد الرحمن بدوي كتابيه : شخصيات قلقة و (من تاريخ الإلحاد في الإسلام) تناول فيهما الحلاج والمهروردي وابن المقفع وابن الراوندي والرازي وقدم شطحات الصوفية عن أبو زيد البسطامي ورسائل ابن سبعين وترجم ما كتبه ابن بلاسيوس عن ابن عربي .

وبذلك أحيا قدراً كبيراً من ذلك التراث الغنوصي المجزى القديم وإن كان قد قدمه كترجمات لآثار المستشرقين .

٣ - أما الدكتور زكي نجيب محمود في كتابيه (تجديد الفكر العربي) والمعقول واللامعقول في التراث العربي فقد أعاد صياغة الفكر البشري الوثني الغنوصي صياغة جديدة .

وتتمثل حركة تجديد الفكر البشري في عدة ظواهر :

أولاً : إعادة كتابة تاريخ القرامطة والزيج والباطنية على أنها حركات عدل وحرية أو ثورات إسلامية ومن ذلك ما كتبه محمود إسماعيل عن الحركات السرية في الإسلام وحسين الوزير عن انتفاضة الشعب الأزريجاني .

ثانياً : إعادة الدعوة للاعتزال والروائية على النحو الذي حاوله الدكتور زكي نجيب محمود .

ثالثاً : إعادة طبع كتب وحدة الوجود والحلول والاعتقاد كمحاولة طبع كتب ابن عربي والحلاج .

رابعاً : محاولة فرض منهج التفسير الماركسي للتاريخ كما فعل أحمد عباس صالح فيها أسماء اليمين واليسار في الإسلام .

خامساً : محاولة لطفى السيد التي صورها في ترجمة كتاب الاخلاق لأرسطو من أن فلسفة أرسطو هي مصدر النهضة العربية الحديثة . و ترجمة تمام حسان لكتاب (مسالك النفاة الإغريقية إلى العرب) تأليف أوليري وكتاب الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الإسلام لإبراهيم بيومي مذكور وكلها تحاول أن تجعل من الهلينية سيادة على الفكر الإسلامي .

وهناك لعبد الرحمن بدوي في هذا الركام : كتابه شطحات الصوفية لأبو زيد البسطامي والأفلاطونية المحدثة عن العرب والحوارج والشيعة ورسائل ابن سبعين .

وهكذا تتجمع الروافد كلها (فلسفية ، وصوفية ، وكلامية) لتشكل جبهة خطيرة قوامها مفاهيم الفكر البشري في متابعة للعمل الذي قام به ماسنيون وباول كراوس .

ولقد جدد عبد الرحمن بدوي أعمال الاستشراق ونقلها إلى العربية ففي كتابه تاريخ الإلحاد في الإسلام يتحدث عن الزنادقة ويترجم لهم بتوسع ويؤرخ لهم ويضع فكرهم مجدداً أمام المثقفين العرب ، يتحدث عن طالوت ونهمان وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم ابن أبي العوجاء وأبو عيسى الوراق وبشار وحام وإبان بن عبد الحميد وأبو العتاهية .

ونجد أمثال سيد حسين نصر في إيران يؤلف عن ابن سينا والسهروزي وابن عربي كتاباً تحت اسم حكماء مسلمين مجدداً هذه الدعوة رابطاً بينهم وبين زرادشت ومانى ومبتعثاً علم الحروف والجفر والرموز والأسرار فيغرب إغراباً شديداً ويبعد عن مفهوم الأصالة الإسلامية كثيراً .

وهكذا اتسع نطاق دائرة المؤامرة على الإسلام في هذه الجولة وكانت التجربة الأولى واضحة أمام قادة المؤامرة (التغريب والشيوعية واليهودية العالمية) فقد رأى أصحاب المؤامرة كيف أغرق ركाम المهلينية الفارسية الباطنية الوثنية الفكر الإسلامي في دوامة عميقة خلال قرنين من الزمان أو أكثر لجندوا هذا العمل بهذه الأبحاث الواسعة المتعددة في كل اتجاه التي تحمل الملامة والمؤاخفة للفكر الإسلامي لأنه قصر في مجال الفلسفة وأفلج بأبصارها وعارض الاعتزال وأن هذا كان من أسباب تأخر المسلمين . وكانت الحملة شديدة على الإمام الغزالي وكان الإغضاء والتجاهل لأصحاب حركة المقاومة والمواجهة أولئك الذين حلوا لواء الأصالة الإسلامية من أعلام مع إعلاء وإبراز وتليع كل الأسماء التي حمت لواء الباطنية والفلسفة والزندقة قديماً بما يسمونه المشاءون أو الشراح فكثفت عشرات الأبحاث عنهم وجلهم لا يسلم في مقياس الأصالة الإسلامية للحكم عليه وأخطر من تصوب إليه أسهم الاتهام الفارابي وابن سينا .

وكان من أخطر دعوات المؤامرة فصل الفكر الإسلامي الحديث عن الفكر الإسلامي في مراحل المتصلة منذ بزوغ الإسلام تحت اسم الفكر العربي وذلك لعزله واقتناصه واحتوائه ولكن حركة البقطة الإسلامية استطاعت أن تواجه هذه المؤامرة وتكشفها وظهرت أبحاث كثيرة وكتابات متعددة لكشف هذا الزيف ونسف هذه الشبهات وكتب عديد من مفكرى الإسلام عن هذه المخططات :

(٢)

الاسرائيليات الجديدة في التاريخ والعقائد

لم تكن الاسرائيليات الجديدة إلا صورة جديدة من الاسرائيليات القديمة غير أنها وضعت في صورة المناهج العلمية والتي عليها ظل من براعة التعبير وصنعت من نظريات مسنوعة ولقد كشف كثير من الباحثين الجذور التلويديّة في :

- مذهب التحليل النفسى لفرويد .
- مذهب لبني بريل عن القول بتجاوز الأخلاق .
- مذهب دوكايم عن القضاء على المسؤولية الفردية وتغليب المسؤولية الجماعية .

- مذهب ماركس في إعلاء التفسير الاقتصادي للتاريخ .
- وفي مجال هدم «إسلامية» الثقافة العربية والامة العربية كانت المحاولات والمؤامرات تدور حول تزيف التاريخ وتصوير حملات الباطنية والقرامطة على أنها حركات نورية إصلاحية .

وقد ظهرت هذه الحركة في أفق الفكر الإسلامى المعاصر بعد أن صدرت توصية مؤتمر بلتيغور الذى عقد فى عام ١٩٤٢م والذى دعا إلى الإهتمام بدراسة وابتعاث الحركات السرية فى الإسلام ومن ثم بدأت كتابات (عربية) كثيرة فى هذا المجال ، تحاول أن تصور حركات الانتفاض على الإسلام ودولته على - أنها حركات إسلامية أصيلة .

وفى السنوات الأخيرة تركّز الحديث حول القرامطة ووصفهم بأنهم حركة تقدمية وإجاء الدعاة إلى الشرق ليصفوا القرامطة بأنهم دعاة العدل

في الإسلام من أمثال جارودي وغيره. ووصفهم الدكتور طه حسين كذلك عام ١٩٥٠ تقريباً في بحثه في مجلة الكاتب المصري اليهودية المصدرة .

ولم تكن حركة القرامطة في الحقيقة حركة إسلامية ولكنها كانت إحدى الحركات المنصلة بالمؤامرة التي دبرت ضد الإسلام ودولته . هذه المؤامرة المنصلة التي اشترك فيها اليهود والمجوس والقوى الشعبية لحساب الدولة الرومانية الشرقية .

ويمكن أن نصدر في تقييمها التخفظات التالية :

أولاً - لم تكن حركة القرامطة إنسانية الطابع أو تعمل على تحرير الإنسان أو تكريمه وقد استخدمت الإسلام ستاراً لها لتحقيق أغراض المؤامرة بل كانت حركة طائفية محضة .

ثانياً - ارتبطت حركة القرامطة بثورة الزنج ولم تكن ذات طابع إسلامي بل كانت بمثابة الأخذ بالثأر على حد تعبير الدكتور محمود قاسم : « فقد حرص هؤلاء العبيد الذين حرروا أنفسهم من إذلال العرب عن طريق استرقاقهم والتشكيل بهم » .

ثالثاً - لم تكن هذه الحركة إسلامية لأنها لم تستطع أن تحقق نهج الإسلام في الحكم ولو ليوم واحد وإنما حققت مناهج الشيوعية في المال والعرض وقام مجتمعهم على المنافسة وكان التقدم فيه قائماً على الثروة المالية فكان مجتمعها مجتمعاً طبقياً .

رابعاً - كذلك ينفي عنها طابع الحركة الإسلامية اعتداؤها على الأراضي المقدسة وتجريح الرسول ومحابته وقد هاجم القرامطة موسم الحج وقتلوا نحو ثلاثين ألفاً من الحجاج وانتزعوا الحجر الأسود من الكعبة صرفاً للناس عن الحج .

خامساً - تؤكد النصوص التاريخية تلك الصلة الوثيقة بين حركة القرامطة وبين الحركة الباطنية الاسماعيلية في دور السريان واختلفت معها في دور الظهور .

سادساً - كان المجتمع القرمطي مجتمعاً طبقياً فيه طبقة السادة وفيه طبقة العبيد التي كانت تتكون من الأسرى ولم يكن لها أي حق في أي حرية أو مساواة مع الآخرين ومعنى هذا إنقلاب الوضع فقد عمد العبيد إلى الاستيلاء على السلطة ووضعوا أصحاب البلاد في موضع العبيد .

سابعاً - كشفت الوثائق أن هناك صلات ظاهرة وخفية كانت قائمة في ذلك الوقت بين الباطنية والصلبيين .

ثامناً - بعد الحلاج من لمثلة هذه الروابط بين الحركة الباطنية وأعداء الدولة الإسلامية وقد كان الحلاج من أكبر الدعاة لتحطيم الدولة العباسية إذ كان على صلة بالقرامطة وقد روى عنه أنه أقسم في أحد أحاديثه القدسية التي كان يزعمها لنفسه^(١) بهام ٢٩٢ هـ .

وهذا العام هو الذي شهد الثورة الكبرى للقرامطة وقد سجل هذا كله ماسفيون في كتاباته عن الحلاج .

* * *

وهذه التحفظات تكشف عن زيف دعوى المدعين بأن حركة القرامطة ثورة إسلامية أو حركة إصلاح ، كذلك فإن بعض كتاب العرب قد أولى اهتمامه للحلاج ووصف بأنه داعية تحرير الإنسان من الظلم والحقيقة أن الحلاج لا يستطيع الثبات في مجال الزعامة الإسلامية لحظة واحدة .

(١) رجعتنا في هذا إلى بحث الدكتور محمود قاسم (الهلال يناير ١٩٧١م) .

فقد وصفته كتب التاريخ التي بين أيدينا بأنه رجل مجوسى الأصل ، اشتغل بالمخاريق والحيل وادعى العلم بالأسرار ، ثم تنهى إلى إدعاء النبوة ثم الربوبية واستغوى غلمان قصر المقتدر العباسى لينفذ بهم إلى تحقيق غايته فآدى ذلك إلى قتله .

وذكر إمام الحرمين فى كتابه العامل أنه كان بين الحلاج وبين الجنابى رئيس القرامطة اتفاقاً سرياً على قلب الدولة وأن هذا هو السبب الحقيقى لقتل الحلاج ، فالحلاج لم يقتله الحكمة بهما كانت مغرقة فى الشك والوثنية وإنما قتل حين ثبتت عليه مراسلات إلى القرامطة وتبين أنه كان وكيلاً لهم وكان القرامطة قد أراحوا النظام الإسلامى وسفكوا الدماء وخربوا البلاد وأنشأوا لهم عاصمة فى هجر حملوا إليها الحجر الأسود فظل بها ثلاثين عاماً .

ولقد قيل أن دعوى الحلاج فى الحلول والاتحاد والاشراق ووحدة الوجود كانت منطلقة إلى تمزيق الفكر الإسلامى وإفساده وهدم معالم الإسلام تمهيداً لتحطيم سلطته السياسية وهو نفس المنهج الذى سلكته الباطنية فقد رأى خصوم الإسلام إزاء عجزهم عن هدم الدولة ، أن يلجأوا إلى تقويض عقيدة التوحيد التى جمعت شمل المسلمين وتذرعوا إلى ذلك بنظريات التصوف الهندى والمجوسية الفارسية والفلسفة الوثنية اليونانية وكانت مقدمات ذلك السخرية بالشريعة الإسلامية والترخص فى الحدود وإباحة المحرمات وقد جرى الحلاج فى ذلك شوطاً طويلاً فادعى الألوهية وأتهم بمعارضة القرآن وأنه يحيى الموتى وأن الجن يخدمونه وأنه يعمل من الخوارق ما يشبه المعجزات وأنه كان يدعو إلى نوع آخر من الحج غير الطواف بالبيت الحرام فى مكة وله من أصحابه كتابات بالشفرة لا يفهمها إلا هو ومن أرسلها إليه .

وقد أشار الدكتور قاسم إلى أنه مما يثبت إدانة الحلاج بالعمل مع

القرامطة انه كان يصرف الناس عن الحج وكان يستعيب عنه بكعبة مصغرة في بيته يطوف بها أتباعه طوافاً يغنيهم من الذهاب إلى مكة .

ومن الظاهرات الجديدة في أفق البحث ظاهرة (وحدة الوجود) وهي ذات مصدر ديني قديم لا يقول بالتوحيد ويتصل بالتعدد حتى يمكن القول أنها إحدى ركائزه الأساسية وقد وجدنا من أمثال الدكتور حسين فوزي وغيره من يفخر بأنه يؤمن بها .

ومذهب وحدة الوجود دخيل على الفكر الاسلامي وهو من المذاهب الفلسفية القديمة المرتبطة بالوثنية والمجوسية وفلسفات الاغريق والهنود والفرس التي تحرر منها الاسلام بالتوحيد وفصل بينه وبينها .

وتعني وحدة الوجود تأليه المخلوقات واعتبار الكون هو ذاته ، جل جلاله .

وهي دعوى تتناقض مع جوهر العقيدة الاسلامية تناقضاً مطلقاً بحيث لا يمكن التوفيق بينها وبين دين عقيدة التوحيد بأي وجه من الوجوه .

ومفهوم الاسلام في مواجهة وحدة الوجود : هو أن الموجودات : واجب الوجود ، ويمكن الوجود .

أما واجب الوجود فهو صانعها الواحد الأحد الفرد الصمد .

وأما يمكن الوجود فهو هذه الكائنات التي ندركها بحواسنا الخمس مباشرة .

كذلك أنكر الاسلام عقيدة الاتحاد ، أي حلول الخالق في المخلوق ، أو استغراق المخلوق في الخالق .

والإسلام يميز طبيعة كل منهما ولا يقبل وحدة الوجود لأنها تتعارض مع (لا إله إلا الله) .

ومن هنا نرى كيف أن الاستشراق وهو مادة التغريب والتبشير جميعاً يركز على هذه القضايا :

١ - قضية التصوف الفلسفي وفكرة وحدة الوجود في مجال العقائد .

٢ - قضية الثورات المضادة للإسلام ويحاول أن يصفها بأنها ثورات إسلامية كالقراطة والزنج وغيرها .

ولقد أغرى بعض الذين يكتبون بهذا منذ وقت بعيد ، وما تزال أجيال الشعوب تنوالى وتجدد دعواها (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل) .

(٣)

كيف حطم الإسلام قيد الإغريقية ؟

إن هذه الدعاوى التي ما تزال تتردد عن صلة الفكر الإسلامى بالإغريقية أو الهلينية في حاجة إلى أن تواجه دائماً بالحقيقة القاطعة التي تكشف موقف الإسلام من الإغريق وكيف حطم هذا القيد وحرر الفكر الإسلامى من آثاره وآثامه .

لقد وجه المستشرقون والمبشرون الغربيون مهمهم ، دون توقف ، ودون يأس حول هذا المدخل إلى الإسلام في محاولة تصوير الفكر الإسلامى وهو من صناعة الفكر اليونانى الإغريق ، أو إلقاء ظل التبعية الكاملة عليه . كأنما لم يكن للدسليين فكر قبل القرن الثالث الهجرى منذ نزل كتابهم وجاء

رسولهم وتشكلت أممهم ودولتهم وتكون فكرهم خلال مائتي عام كاملة ، استوفى فيها الفكر الإسلامى كيانه ووجوده قبل أن يلتقى بالفكر اليونانى ، وفيه تشكلت كل الركائز العلمية من تحقيق السنة وإنشاء النحو وبناء الشريعة واللغة وكتابة التاريخ وانطلاق شرارات العلم والبحث وبناء المنهج الإسلامى . للمعرفة المستمد من القرآن الكريم ؛ لقد تم كل ذلك قبل أن يلتقى المسلمون بالهلينية ، لقد تكونت ركائز الفكر الإسلامى وتشكلت وثبتت قبل هذا اللقاء . فلما جاء الفكر اليونانى المترجم نظر المسلمون فيه وأخذوا منه ورفضوا .

ولقد كان المسلمون فى تطلمعهم إلى التراث اليونانى إنما يقصدون العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية ، ولم يكونوا فى حاجة إلى الفكر اللاهوتى الذى يسمونه الفلسفة الإلهية فقد كانت هى عما استغنى عنه المسلمون بالإسلام ، ولكن موجة الترجمة ما لبثت أن خرجت عن قواعدها التى رسمت وسيطر عليها بعض النساطرة الذين تدافعوا إلى ترجمة هذه الآثار فأحدثوا ذلك الأثر الخطير من البلبلة والاضطراب الذى تدافع المفكرون المسلمون حوله ، فى محاولتين : الأولى الملائمة بينه وبين التوحيد وهى محاولة فاشلة قام بها الكندى والفارابى وابن سينا ، لأنها لم تحقق شيئاً ولأنها حين قامت لم تكن النصوص التى فى أيدي أصحابها هى الأصول الحقيقية للفكر اليونانى . أما المحاولة الثانية : فهى محاولة رد هذا الفكر اليونانى فى مجال الإلهيات رداً كاملاً ورفضه والتماس منطق الفكر الإسلامى من القرآن على النحو الذى استطاعه الإمام الجليل ابن تيمية .

ومن الحق أن يقال أن النساطرة والبربر كانوا مزيفين مضللين ، وأنهم لم يكونوا خالصي الوجهة للعلم فقد ثبت ، أن الفكر الذى نقل إلى المسلمين من اليونان والإغريق لم يكن صحيح الأصول بل كان صورة زائفة

دخلت عليها مفاهيم السريانية والنساطرة المترجمين وعقائدهم وكانت تهدف إلى خدمة مفاهيم دينية ، ومن هنا كان فسادها في أن تعطى الفكر الإسلامي شيئاً ، وأن هذه المترجمات كانت تنكسباً للمال لا حباً للعلم ، بالإضافة إلى استغلال الترجمة في الدعوة إلى نخلتهم ونصرة مذهبهم .

ومن هنا وقع الخطر : خطر نسبة بعض الكتب إلى أرسطو وهي لغيره أو لأفلاطون وهي ليست له ، ومن هنا فقد فسدت الدراسات التي حاول بها أمثال الفارابي الموائمة بين فكر ليس هو في الأصل لصاحبه ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن النساطرة واليعاقبة كانوا يحرفون الأصول التي بين أيديهم ، فيما يروونه مخالفاً لدينهم ، وأن بعضهم الآخر كان يهصرف بالزيادة والنقص في النصوص ، يبدلون فيها ميلاً مع أهوائهم أو نهضة لمذهبهم ، عرفنا إلى أي حد كانت قيمة ذلك التراث المترجم .

(٢)

ولقد كان أرسطو هو قمة هذا التراث وهو الذي أحيط بهالة ضخمة من الاهتمام ، هذا الاهتمام الذي جددته (الهليفيون الجدد) في العصر الحديث .

ولقد كان هناك قول أصبح من المسلمات أن منطق أرسطو هو قمة ما أخذ الفكر الإسلامي من اليونان .

ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً ، فإن منطق أرسطو مستمد من المجتمع اليوناني الذي يختلف اختلافاً كبيراً عن المجتمع الإسلامي ، ولذلك كان منطق لا يطابق مجتمع الإسلام بل يتعارض معه .

وإن منطق أرسطو يعبر تعبيراً دقيقاً عن المجتمع اليوناني العبودي

المنقسم إلى سادة يتأملون وعبيد يعملون : السادة هم الصورة والعبيد هم المادة، ولكن المجتمع الإسلامي كان يختلف عن المجتمع اليوناني إختلافاً كبيراً دولة تقوم على الأخوة والمساواة وينطلق من نقطة النظر في السموات والأرض والعمل والتجريب ومن هنا اختلف منهج المجتمع الإسلامي عن مجتمع اليونان ، من جملة جوانب أهمها التوحيد ، وإلغاء العبودية ، والممارسة في مجال العلم وبذلك بدا ذلك التعارض الواضح والتباين العميق بين مجتمع ومجتمع وفكر وفكر .

خرج الفكر الإسلامي عن النظرة الأرسطية التي ترى أن العلم لا يكون إلا بالكلّي أما العلم الجزئي فليس علماً ، فتقدم الفكر الإسلامي فحطم هذه القاعدة وبدأ النزعة التجريبية من الجزئيات . وبذلك خرج المفكرون المسلمون عن المفهوم الأرسطي للحد والتعريف واستطاع رجال الأصول والفقه أن يقيموا نظرة جديدة للتعريف تقوم على أساس الواقع ، وأدى ذلك الخروج عن حدود القياس الأرسطي إلى الحصول على نتائج عملية ، وأصبح طابع الفكر العلمي الإسلامي هو طابع التجريب ، ونقد المفكرون المسلمون قياس أرسطو وقال عنه ابن خلدون أنه قياس ذهني أما المسلمون فقد عرفوا ما لم يعرفه اليونان وخطوا أخطر خطوة في تاريخ البشرية وهي بناء قاعدة العلم الحديث نفسه تلك هي التوحيد بين التأمل والممارسة العملية . وأولى المسلمون اهتمامهم بالرابطة العلمية بين الأشياء وعلى هذه الرابطة بين الأشياء قامت التجارب وعلى هذه الرابطة العلمية (البحث عن العلة) أقام البيروني والرازي وجابر بن حيان وابن سينا تجاربهم العملية وفي نفس الوقت قام المنهج العلمي في الفكر حيث فسر ابن خلدون حركة التاريخ وتطور العلاقات البشرية (١) .

(١) راجع : على سمي النشار ومحمود أمين العالم وعبد الرحمن مرحبا وتوفيق الطويل في دراساتهم عن العلم عند المسلمين .

وهذه النظرة المتطورة للكون والإنسان : اختلاف الفكر الإسلامي
العربي اختلافاً كبيراً عن الفكر اليوناني المترجم وتناقض منه في مختلف
فروع الثقافة من علم وأصول وفقه وفلسفة عقلية ونظرة إلى الإنسان ولم
يمكن هذا الاختلاف عابراً أو طارئاً ، وإنما كان نتيجة طبيعية لاختلاف
التكوين الاجتماعي للدولة العربية وللحضارة اليونانية .

وبذلك ظهر الفكر الإسلامي في جوهره فكراً تجريبياً ، تجاوز منطق
أرسطو وأطل على التجربة العلمية رابطاً بين التأمل النظري والممارسة العملية
وخرج بذلك على الفلسفة الأرسطية والأفلاطونية : خرج بالعقل التجريبي
والمنهج العلمي الأصيل (١) .

ولقد صور كثير من الباحثين أثر منهج أرسطو فوصفه الدكتور قاسم
بأنه : كان منهجاً عقيماً وأنه ضلل كثيراً من مفكرى العرب ثم وقف حائلاً
دون ازدهار الحضارة العربية ويرجع عقبه إلى أنه كان خلواً من الخيال
وإلى أنه كان أكثر اهتماماً بالقضايا العامة المجردة منه لدراسة التفاصيل
والجزئيات ، يستدل على صدق دعوانا وتواضعها بتاريخ النهضة الأوروبية
فإنها لم تتحرر من الجمود الذى فرضه عليها منهج اليونان إلا بعد أن عرفت
مناهج العرب في العلم والفلسفة ولنا أن نستشهد برينان نفسه ، ذلك أنه
يصف (روجر بيكون) بأنه الأمير الحقيقي للفكر الأوروبي في القرن
الثالث عشر ، ويجب أن تعلم كيف جاءت إمارته الفكر ، إذ ليس في هذا
المجال خلق من العدم ، ومن اليسير أن نكتشف سر أصوله ، إذا نحن بيننا
أنه أول من نادى بمهاجمة المنهج الأرسطوطاليدى في أوروبا ودعا إلى
اصطناع نهج العرب فهو يأخذ على معاصريه بأنهم يصبون لعناتهم على

(١) انظر : معارك فكرية وعلى سامى النشار .

الرياضة مع أنه من الممكن أن يبرهن بالرياضية على كل ما هو ضروري لفهم الطبيعة ، ولولا الرياضة لاستحال علينا أن نعرف أشياء هذا العالم معرفة صحيحة ، تعود علينا بالنفع في الأمور الإنسانية والأمور الدنيوية أيضاً ، كذلك يأخذ عليهم الانصراف عن استخدام الملاحظات والتجارب مع أن الطبيعة لا تكشف أسرارها إلا بدراسة الأمور الجزئية حتى تصعد بنا إلى القوانين الكلية .

وهكذا انتصر المنهج الإسلامي على المنهج الأرسطي وحطمه في عقر داره بعد أن حطمه في مجال الفكر الإسلامي نفسه .

فضلا عن ذلك فإن هناك التناقض الواسع العميق بين الإسلام والفلسفة اليونانية ، لقد احتقر اليوناني التجريب والتجربة وجاء منطق أرسطو أكبر معبر عن روح اليونان ، ولم يشغل المسلمون بالجوهر والماهية والتصورات التي شغلت بها الفلسفة اليونانية وإنما اشتغلوا بالخواص ، وإدراج الخواص في نسق منهجي متكامل ومع ذلك فما زال هناك من أهل التبعية الفكرية الغربية من يقول أن الإغريق أول من أوجد التفكير العلمي . وهو كلام براق غير على .

إن الإسلام هو الذي وجه تيار الفكر نحو الخواص ، ونحو التجريب وعجزة رسول الله في هذا الصدد بعيدة الأثر والمدى (تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا) .

ومع ذلك فإن الإسلام هو الذي حفظ الفلسفة اليونانية من الضياع فإن النصرانية لما دخلت اليونان عافت على الدين فنعت تدريس الفلسفة ودفنت كتبها في دهايز في باطن الأرض حتى كشف عنها المسلمون .

ولقد صبح المسلمون أخطاء جالينوس في الطب اليوناني وأخطاء

بطلليموس وابقراط وأفليدس في الرياضيات وعارضوا أخطاء أرسطو في المنطق وبالرغم من أثر الاغريق في التناج الفلسفي إلا أنه لم يستطع أن يحدث تغييراً في مفهوم الاسلام للإنسان ورفض المسلمون رأى أرسطو ومفهومه في الألوهية وما وصل إليه من زيف واعتبر الكندي والفارابي وابن سينا - في مجال الفلسفة - بالرغم من الجهد الكبير الذي بذلوه لاقرار مفهوم التوحيد والتنزيه وإقرار النبوة - اعتبروا بالرغم من ذلك كاه مجرد إمتداد للروح الهلينية في العالم الاسلامي .

واعتبر الباحثون أن الفلسفة الاسلامية قد نبعت من صميم البيشة الاسلامية ، وأنه بعد معاناة علوم القرآن والحديث نشأ علم إسلامي أصيل هو [علم أصول الفقه] الذي أقامه الامام الشافعي أول معارض لتيار الهلينية ، وأول من نبه إلى هذا الخطر حين قال : ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطو طاليس .

ولقد قدم الامام الشافعي ، مباحث الاصول ، لأول مرة : كعلم منسق الاجزاء له منهج عام يحدد للفقه الطرائق التي يسلكها لاستنباط الاحكام .

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق صاحب هذا الفهم لأصالة الفلسفة الاسلامية : أن هذا الاتجاه من الشافعي هو اتجاه العقل العلمي الذي لا يعنى بالجزئيات والفروع بل يعنى بضبط الاستدلالات التفصيلية بأصول تجمعها . لقد دعا كل ذلك إلى اعتبار (الشافعي) في العالم الاسلامي وفي الدراسات الاسلامية مقابلاً لأرسطو في العالم الهليني والدراسات اليونانية .

وكان الشافعي يعرف اليونانية وقد هاجم المنهج الأرسطي مهاجمة شديدة لا من الجانب السلبي فقط بل إيجابياً بوضع منهجه في الاصول الذي كان أساساً للمنهج الاستقرائي والتجريبي ، الذي تميزت به الثقافة الاسلامية

وحضارتها والذي لولاه لسقط العلم في العالم الإسلامي ، ولتأخرت نهضة أوروبا العلمية الجديدة .

• كان الشافعي يرى ، فكر الدين ، في اللغة العربية وفكر (الفلسفة) في اللغة اليونانية ، كما يرى أن المنطق الأرسطي الذي يستند إلى اللغة اليونانية مخالف للمنطق الذي كشف عنه علم الأصول الذي يستند إلى اللغة العربية وخصائصها . ولقد تبين له أن تطبيق منطق اللغة اليونانية على منطق اللغة العربية يؤدي إلى كثير من التناقض ، ولذلك هاجم المنطق الأرسطي الذي أخذ به بعض علماء المسلمين كالفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد إلى حد التحريم وتابعه في ذلك فريق كبير من فقهاء المسلمين على رأسهم ابن تيمية^(١) .

ومن هنا فإن المنهج الاستقرائي (العلمي والتجريبي) على حد قول الدكتور النشار - هو المعبر عن طبيعة الإسلام ، والإسلام في آخر تحليل هو تناسق بين النظر والعمل ، هذا المنهج بما فيه من روح الإسلام ونظيرته قد أدخله العرب إلى العالم الأوروبي وبذلك فإن المسلمين هم مصدر هذه الحضارة القائمة على المنهج التجريبي .

(٣)

جاء الإمام ابن تيمية خاتمة لهذا الخط الواضح القوي : الذي ظل المفكرون المسلمون يعملون له دون توقف في سبيل تحرير الفكر الإسلامي من هيمنة الفلسفة الهلينية ، لقد كان شغل المسلمين الشاغل هو الرفض بالتمام لشخصية الإسلام والحضارية أن تذب أو تتلاشى في شخصية حضارية أخرى ، وهو ما مكن المسلمين من الصمود في وجه القوة الغازية .

(١) الدكتور النشار : مناهج البحث عند مفكري الإسلام .

ولقد وصل ابن تيمية إلى قمة من القمم في هذا المجال في كتابة الرد على المنطقيين ويعتبر ابن تيمية في رده على منطقة اليونان أكثر مثال لروح الإسلام تجاه الهلينية فنقد المنطق الأرسططاليسى ولم يقف عند هذا بل استخلص للإسلام منطق يعبر عن خصائص العقلية ويحمل طابع حضارته .

ويعد الباحثون : « ابن تيمية » الرائد الأكبر لكل الإنجازات الحديثة والغربية في نقد (منطق أرسطو) من أرجانون فرنسيس باكون إلى المنطقية الوضعية ، وقد تقبّع ابن تيمية المنهج الإسلامى الاستقرائى منذ نشأته على يد المسلمين حتى أوج نضجه ثم أضاف إلى عناصر هذا المنهج الإسلامى مناهج جديدة استحدثها هو مستنداً على روح القرآن والسنة . وكشف عن عقم عملية التلفيق التى قام بها الفارابى وابن سينا ورأى أن هدف التلفيق هو هدم الإسلام من الداخل ، وهاجم المتكلمين واتهمهم بمخالفة الكتاب والسنة وكشف عن ضعف أدلتهم التى أرادوا بها مناظرة المخالفين وأهل البدع .

ووصل إلى نتيجة صريحة هى أن صريح العقل لا يمكن أن يكون مخالفاً لصحيح النقل ورفض رأى الرازى والغزالى القائل بتقديم العقل على النقل إذا تعارضا وعنده أن فى ذلك خروج على أصل من أصول الإسلام ويؤمن بأن مهمة العقل هى تفسير الوحى والتعبير عنه .

(وبعد)

فإن الحقيقة الواضحة الصريحة أن الفلسفة اليونانية قد استطاعت أن تسيطر على المسيحية واليهودية ولكنها مجزّت عن أن تفعل ذلك بالنسبة للإسلام وأن منهج اليونان مخالف لمنهج المسلمين وإن اليونان اقتصروا على

التأمل . أما المسلمين فقد اقتحموا مجال التجربة وإن القرآن هو الذى هدام
إلى بناء المنهج العلمى التجريبى .

ومن هذا فقد كان على الأصوات التى تدعى أن للهلينية فى الفكر
الإسلامى مكان أن نخرس وأن نتوقف بعد أن تكشف الحقيقة على أيدى
الباحثين فى الفلسفة أنفسهم ، إن خصوصاً يحملون اسم الفلسفة على أنه معلم
من معالم الحرية ولكنهم فى الحق إنما يريدون به تعظيم مفهوم الإسلام الصريح
القائم على الفطرة والتوحيد والذى ليس فى حاجة إلى سلاح الفلسفة إلا على
النحو الذى فهمه الإمام ابن تيمية .

(٤)

الفلسفة المكتوبة باللغة العربية

هل عرفت طريق الأصالة ؟

ما زال أرنست رينان يردد فى كتبه التى ما زالت تدرس فى بعض
الجامعات العربية : إن الفلسفة العربية ما هى إلا الفلسفة اليونانية مكتوبة
بمحرور عربية ومنذ أن وصل أول باحث مستشرق لتدريس مادة الفلسفة فى
الجامعة المصرية القديمة : كونت دى جلارز فقد فاجأ تلاميذه العرب والمسلمين
بأنه لا توجد فلسفة عربية وإنما هذه الفلسفة المنسوبة إلى (الكندى والفارابى
وابن سينا وابن رشد) هى فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية .

وقد أزعج هذا القول الكثير من الغيورين وحملوا على هذا القول وقالوا :
هل هناك فلسفة عربية وأن دور الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد لم
يكن مجرد النقل وإنما كان لهم دور بناء .

وقد سار فى هذا المنهج أحمد لطفى السيد حينما ترجم باسمه كتاب

علم الأخلاق لأرسطو طاليس ترجمة بارثلمى سنهيلر^(١) الذى يقول فى المقدمة :

« مع أن نقل كتب الفلسفة لم يكن مقصوداً على كتب أرسطو فان فلسفة أرسطو هى التى غلبت على الفلسفة العربية وطبعتها بطابعها والواقع أن الفلسفة العربية ليست شيئاً غير فلسفة أرسطو طاليس طبعت بالطابع العربى وسميت الفلسفة العربية وبقيت صلة النسب بين الفلسفتين طيبة إلى حد أن الجامعات الأوروبية فى العصور الأخيرة من القرون الوسطى كانت تدرس الفلسفة العربية باعتبار أنها فلسفة المشائين أى فلسفة أرسطو . »

وقد علق الدكتور صروف فى المقتطف (يناير ١٩٢٥) على هذا المعنى فقال : إن ما قاله الأستاذ (يعنى لطفى السيد) يؤيده الكتاب الأوربيون الباحثون فى الفلسفة العربية واستشهد بما لقوله الاسكيس ولیم واسن . أن ما يعرف بالفلسفة العربية ليس فيه من العربية سوى الاسم واللغة فانه فكر يونانى منظم عبر عنه بلغة سامية وحوار بالمؤثرات الشرقية وأدخل بين أهل الإسلام بمؤازرة الراسمى الصدر من خلفاتهم وبقي حيا بغيرة جماعة من المفكرين الذين لم يخشوا من المجاهرة بأرائهم على أن أمهم أساءت بهم القن واضطهدتهم ثم ذكر لطفى السيد ما يراه سبباً فى رجوع العرب والمسلمين والمصريين إلى فلسفة أرسطو فقال : وكما أن النهضة الأوروبية الحديثة عادت إلى درس فلسفة أرسطو على نصوصها الأصلية فكانت مفتاحاً للتفكير العصري الذى أخرج كثيراً من المواهب الفلسفية الحديثة فلا جرم أن نتخذ نحن من فلسفة أرسطو لاسيما أنها أشد المذاهب اتئلاقاً مع مألوفاتنا والطريق الأقرب إلى نقل العلم إلى بلادنا ونأقله فيها رجاء أن ينتج فى النهضة الشرقية مثل ما أنتج فى النهضة الغربية . »

(١) ما يزال العاملون فى دار الكتب المصرية يذكرون كيف قامت هيئة الترجمة بالدار بترجمة هذا الكتاب يوم كان لطفى السيد متولياً منصب مديرها ١٩٢٥ .

وقال أن فلسفة المعلم الأول خالدة ما حدها وطن ولا أخى عليها زمن
فقد بنت عليها كل مدينة صروح مجدها العلمى حتى مدينتنا الجديدة .

هذا هو الإجماع عام ١٩٢٥ فى نفس العام الذى تحولت فيه الجامعة الأهلية
إلى جامعة رسمية وجرى بلطقى السيد فوسفه تلاميذه وأتباعه بأنه أستاذ الجيل .
رئيساً للجامعة وجاء طه حسين وغيره يدعون إلى اليونان وأرسطو .

فهل كان حقاً لطفى السيد ، أستاذ الجيل صادقاً فيما قال وفيما دعا إليه
العرب والمسلمين من اتخاذ أرسطو منطلقاً إلى النهضة الجديدة وكانت كتابات
طه حسين وغيره من بعد دعوة ملححة إلى هذا الطريق أم أن الأمر كان فيه
شبهة أو خدعة ؟

هل كان حقاً أرسطو هو منطلق الحضارة الغربية فى عصر النهضة
وما بعدها أم أن أول عمل قامت به هذه النهضة هو نقض أرسطو وتزييفه
والخلة على منهجه وإعتبار منهجه عامل التجميد الذى عاش فيه الغرب معتقلاً
قروناً حتى جاء منهج التجريب الإسلامى الذى أطلق الطاقات إلى عصر العلم
الحديث ؟ ندع هذا للباحثين لقد كان علماء المسلمين إنطلاقاً من القرآن ثم
الذين أنشأوا المنهج العلمى التجريبى الذى كان أول حجر فى بناء الحضارة
والعلم بشهادة : درابر وبريفولت وجوستاف لويون فى القديم وسارتون
وهونكة وغيرهم فى العصر الحديث وآخر كتاب فى هذا الشأن عنوانه :
(شمس الله تشرق على الغرب) وكتاب (أوروبا ولدت فى آسيا) .

إذن لم يكن لطفى السيد صادقاً ولم يكن عميد الأدب العربى الدكتور طه
حسين أميناً حين نقلا إلينا هذا المعنى ، ذلك أن المسلمين نقدوا أرسطو أولاً
ثم جاء الغربيون فنقدوه فى ضوء العرب ورفضوه والتسوا بمنهج المسلمين
الذى دفعهم إلى ذروه التكنولوجيا الآن .

إذن فلماذا هذا التعارض ؟ يسأل من هذا الاستشراق والاستعمار ، ذلك

فأنهم على حد تعبير الدكتور محمود قاسم : نقلوا المسلمين إلى أرسطو ونقلوا أنفسهم إلى منهج المسلمين (جابر وابن الهيثم والبيروني) .

ذلك أن أرسطو هو الذي سيضع المسلمين مرة أخرى داخل القوقعة المنطقية التأملية المغلفة وبحرهم من ثمرات منهج التعريب الذي أنتشأه ونمّاه الغرب .

وهكذا نجد أن هذا المنطلق على يده طه حسين وجماعة من أتباعه يتسع ويمتد حتى يقرر : أن العرب خضعوا لمنهج اليونان وأرسطو في القديم ولما كان الفكر الغربي الحديث هو ثمرة فكر اليونان فإن تبعية المسلمين والعرب له لا تعد شيئاً جديداً ولا غريباً لأنهم كانوا تابعين لليونان فلا عجب أن يتبعوا ما جددته أحفاد اليونان . لم يكن أستاذ الجليل صادقاً إذن ، ولم يكن الدكتور طه حسين صادقاً في هذا ، فإن المسلمين لم يقبلوا أرسطو ، ولم يعتنقوا فكر اليونان وإنما العكس هو الصحيح ، ذلك أنهم قاوموه ونقدوه وأبانونا عن وجوه الخلاف العميق بينه وبين منطق القرآن .

ولقد تصدى لهذا كثيرون من أبرزهم الغزالي وابن تيمية .

وإذا كان الخلاف ما زال واسعاً حول ما كتبه الفارابي وابن سينا وهل هو فلسفة إسلامية أو متابعة للمشائين اليونان من المشائين المسلمين فإن رجلاً كريماً ولي قسم الفلسفة في كلية الآداب هو الشيخ مصطفى عبدالرازق قد فصل في هذا الأمر على نحو صحيح ومن خلال دراسات الجامعة نفسها وبالرغم من سيطرة طه حسين على عمادة كلية الآداب ، حين قال : أن الفلسفة الإسلامية إنما تلتبس في كتب المتكلمين والفقهاء وأن الإمام الشافعي واضع (أصول علم الفقه) هو أول للفلاسفة في الإسلام وأن مقامه في العربية هو بمثابة مقام أرسطو في اليونانية .

وبذلك نشأت مدرسة الأصالة في مجال للفلسفة وامتدت من بعد واتسعت وكان من أتباعها محمود الحاضيري ، ثم محمد عبد الحادي أبو ريده ، وعلى سامي التشار .

ومنذ ذلك الوقت وقد صدر كتاب (تمهيد في تاريخ الفلسفة الإسلامية) عام ١٩٤٧ وقد كان منهجه قد تقرر قبل ذلك بوقت طويل فقد تحررت الفلسفة من التبعية الغربية وبرزت مدرسة الأصالة فيها وهو ما يزال حسيماً في مجال الأدب والنقد الأدبي فإن التبعية لمذاهب النقد الغربي الوافد ما يزال قوية .

ولقد أثبتت مدرسة الأصالة في الفلسفة الإسلامية (عبد الرازق - أبوريدة - النشار) أن المنطق الأرسططاليسي: منهج الحضارة والفكر اليوناني- لم يقبل في المدارس العقلية ، وأن المنهج التجريبي الإسلامي هو الذي عرفته أوربا بعد قرون من مطلع حضارتها الحديثة مع مبادئه الحضارة اليونانية وأن اكتشاف وجود هذا المنهج لدى المسلمين يفسر روح الحضارة الإسلامية بالحضارة الإسلامية حضارة عملية تجريبية تتجه إلى تحقيق الفعل الإنساني في ضوء نظرية حبة ملحوسة .

كذلك فقد كشفت الأبحاث المتعددة عن اضطراب خطير في المراجع التي اعتمد عليها الفارابي وباعتراف الدكتور محمد عبدالرحمن مرحباً : « أن الفكر الذي نقل إلى المسلمين من اليونان والإغريق لم يكن صحيح الأصول بل كان صورة زائفة دخلت عليها مفاهيم السريانية والنساطرة المترجمين ومقائدم وكانت تهدف إلى خدمة مفاهيم دينية ومن هنا كان فسادها في أن تعطى الفكر الإسلامي شيئاً ، .

ومن ناحية أخرى فقد تبين أن المقاومة للفلسفة اليونانية ومذهب أرسطو بالذات قد بدأت منذ أن تمت الترجمة وأن المعارضة بدأت منذ اليوم الأول ، ذلك أن الفكر الإسلامي قد تم تفكيكه قبل الترجمة على أساس قيمه القرآنية من التوحيد والأخلاق ومن الربط بين الوحي والعقل ولذلك فإنه كان من العسير أن تنصهر فيه الفلسفة اليونانية أو ينصهر فيها . خاصة وهي فلسفة

مجتمع وثني قام على العبودية وإعلاء العقل وعبادة الجسد فضلاً عن محاذير الترجمة من فساد واتحال وتحريف نصوص وإن كانت طائفة من الفلاسفة أطلق عليهم اسم المشائين المسلمين قاموا بمحاولة شاقة وعسيرة لإدخال الفلسفة اليونانية في إطار الإسلام فإن المحاولة فشلت تماماً . وكانت وقفة الغزالي في وجه الفلسفة الإلهية اليونانية وقفة صارمة ردت السيف إلى صدور أصحابه فقد كشف عن الفرق بين الفلسفة الرياضية والفلسفة الطبيعية وبين الفلسفة الإلهية ورفض الأخيرة لأنها متعارضة مع التوحيد وأعلن أن الكلام في الطبيعيات برهاني أما في الإلهيات فهو تخميني .

وفي الفلسفة الإلهية طارح الغزالي القضايا الكبرى الثلاث التي تقررها الفلسفة اليونانية وتختلف مع مفهوم الإسلام : ما يقولون به من قدم العالم وأن الله (جل وعلا) لا يحيط علماً بالجزئيات وإنكارهم البعث .

وهاجم الفلاسفة الذين جحدوا الصانع وزعموا أن العالم نعيم كالدهرية والزنادقة . والذين قالوا أن النفس تموت ولا تعود ومن أنكروا الآخرة .

هذا وقد كشف الإمام الغزالي بالنسبة للفارابي وابن سينا وجهة أخرى ، أشد خطورة حين عرفت صلاتهم بالدعوات الباطنية الهدامة وإخوان الصفا وغيرهم من الذين كانوا على اتصال بأعداء الدولة الإسلامية من قرامطة وغيرهم .

ثم جاء ابن تيمية فاستحالت غرباً فقد كشف في كتابه (الرد على المنطقيين) عن أن الفكر الإسلامي له منطق خاص مستمد من القرآن والسنة ، وقد استخرج منهما هذا المنطق الجديد الذي سماه المنطق الإسلامي . وقال أن هذا المنطق كان فيه غنى للمسلمين عن العقلية اليونانية في الحكم على الأشياء وفي الاستبصار والتأمل الفلسفي ، ورد على المنطقيين الذين استحكمت في عقولهم

آثار الفكر اليوناني وطوابعه وعزالتها عن الاقتباس من فلسفة القرآن والحديث النبوي ومنطقهما . وما قاله : أن ما عند أئمة النظار من أهل الكلام والفلسفة من الدلائل العقلية فقد جاء القرآن بما فيها من الحق وما هو أكل وأبلغ منها على أحسن وجه منزه من الأغاليط الموجودة عند هؤلاء .

ويقول الدكتور النشار : كان ابن تيمية رائداً لكل الاتجاهات الحديثة في نقد منطق أرسطو من أرجانون فرنسيس ليكون إلى المنطقة الوضعية وقد عني بنقد فلاسفة الإسلام كالفارابي وابن سينا وابن رشد وكل من وافقهم في التشيع لمنطق أرسطو وأشار إلى هبث محاولتهم وعقم تجربة التلفيق عند (الفارابي وابن سينا) بين الإسلام والأفلاطونية المحدثة . ورأى أن هدف التلفيق هو هدم الإسلام من الداخل .

وما عرف في هذا المجال وهو كثير : كتاب (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) بقلم محمد بن إبراهيم الوزير الحسنى البنى الصنعاني المتوفى ٨٤٠

وبعد فإن مدرسة الأصالة كان لابد أن تواجه المدرسة التي ما تزال تعلى من شأن المدرسة اليونانية والتي تبلورت بعد في مناقشة الدكتور النشار لأراء الدكتور إبراهيم بيومي مذكور في كتابه (في الفلسفة الإسلامية) وقد بدأ الدكتور مذكور وكأنه متابع لمنهج لطفى السيد وطه حسين ويرى مذكور أن أرجانون أرسطو أثر في مختلف المدارس كلامية وفقهية وعلمية وفلسفية^(١) يقول الدكتور النشار : أن المنطق الأرسطوالبسى قد نقل إلى العالم الإسلامى وأثر فقط في المدرسة المشائية الإسلامية وبقيت المدارس الأخرى المنبثقة

(١) أثبت عكس هذا الرأي : الدكتور النشار في كتابه (مناهج البحث عند

عن نظام إسلامي بعيدة كل البعد عنه ، تحاربه وتجاهده وكانت قد وضعت
منطقاً مختلفاً تماماً للاختلاف في روحه وجزئياته ، الدكتور المذكور لا ينكر
وجود هذا المنطق الإسلامي ولكنه يرى أنه كان لمنطق أرسطو أثره الكبير
في العالم الإسلامي . ولست أرى هذا على الإطلاق .

إن سيادة منطق أرسطو إنما بدأت حينما تداعى الفكر الإسلامي في القرن
الخامس فاختلط بعلم يونان ولكن ذلك لم يوافق دوائر الفقهاء المتأخرين
ولم يوافق متكلمي الأشاعرة من ناحية ومتكلمي السلف من ناحية أخرى
على استخدام هذا المنطق فخاربه أشد الحرب .

ويرى الدكتور المذكور أن محاولة الفارابي نجحت وأضفت على تاريخ
الفلسفة أضواءً جديدة ويقول الدكتور النشار أن هذه المحاولة كانت غريبة
عن روح الإسلام وعن تفكيره وعن منهجه العام ، وأن فلسفة الإسلام
إنما تنبثق من الإسلام نفسه : عن القرآن وعن السنة لا عن محاولة للتوفيق
والتسبيق والتلفيق وأن فلاسفة الإسلام المشائين قد ابتعدوا عن الإسلام
روحاً ونصاً ، وعن المجتمع الإسلامي فكراً وعقيدة وحياة ، وأن الفلسفة
المشائية ماتت في العالم الإسلامي منذ عهد بهيد ولم تمت العقائد الكلامية حتى
ههنا هذا ولكن النشار ينصف الدكتور فلا يجعله تابعاً لمدرسة لطفي السيد
وطه حسين فيقول ليس الدكتور بيومي من مدرسة الفلسفة اليونانية التي رأت
في فلسفة اليونان (غاية الغايات) وأن إليها يعود كل فكر ، ولم ير الدكتور
مذكور على الإطلاق أن فكرنا المعاصر ينبغي أن يرتبط بفلسفة أوروبا
وحضارتها تحت تأثير الدعوة الحاخطة التي قدمتها (مدرسة طه حسين) على
مسرح تفكيرنا ، أنه مادام أسلافنا قد أخذوا بفلسفة اليونان وبما أن فلسفة
أوروبا وحضارتها هي امتداد لهذه الفلسفة فعلياً إذن أن نأخذ من هذه المدرسة
الأوروبية كل شيء ، أ . هـ

(٥)

تجديد التفسير الباطنى للقرآن

وقد جرت محاولات للقول فى تفسير عصرى بأن عذاب جهنم ليس على حقيقته المصورة فى نصوص القرآن إنما هو ضرب من الاخافة والترهيب يقول الدكتور محمد سعاد جلال أن هذا كلام هدام للإسلام يجب أن تحذره الأمة حفاظاً على كيان دينها وأصل وجودها فى وجه هذه الاتهامات الشداد المتدفقة عليها من كل بلد اندفاع السيل والمراد بهذه الدعوة الخاطئة والتفسير الآثم هو إشاعة الاباحية والجريمة فى الناس بانتزاع فكرة العذاب الأخرى فى نفوسهم الذى هو عنصر هام من عناصر إحياء الضمير وردع أهواء النفس من الشرور والآثم، والدعوة للاباحية المطلقة والتحلل من ضوابط الفضائل النفسية والجفسية أصبح هدفاً أيدولوجياً لبعض الفلاسفات المعاصرة كالوجودية وغيرها فالقائلون بعدم كون العذاب الأخرى حقيقة إنما يعملون بدهائهم الخاص لتعريب هذه الفلاسفات الهدامة للقضاء على روح الأمة وإفساد معنوياتها النفسية والمقائدية والأمة أشد ما تكون حاجة وهى تصارع فى معاركها المعتدين إلى الاحتفاظ بهذه المقومات التى هى منابع طاقتها المناضلة وحماية نفسه وهذا يحدد الدور التخريبي الذى كانت تقوم به الشيوعية لهدم الإسلام من باطنه بالعمليات الفكرية المضادة لمفاهيمه وأساسه فى صدر الدولة العباسية، أن البوذية والبرهمية تذهبان للقول بعدم وجود عذاب أخرى وبعض الأديان الكتابية الأخرى تذهب إلى أن عذاب الآخرة معنوى لا حسى على عكس ما يرى المسلمون . هذه محاولة لاحتواء الإسلام وإمتصاص خلته من نفوس المسلمين وحياتهم بتغيير مفاهيمه المجمع

عليها وتمطيل نصوصه من الدلالة على معانيها الموجودة بها وهم قد أبطلوا بمذهبهم هذا قضية الثواب والعقاب على الإطلاق وأبطلوا تبعاً لذلك مفعولية التكاليف الشرعية والتزام العمل بها لأنها مناط التكاليف الشرعية والتزام العمل بها فإذا بطلت حقيقة الخطاب بالثواب والعقاب على فعل التكاليف وتركها فقد بطلت حقيقة التكاليف الشرعية نفسها وهل الاسلام إلا هذه التكاليف من الأمر والنهى ولوازمهما من الثواب والعقاب فإذا بطلت بطل الاسلام كله . أما بالنسبة للقرآن الكريم فبعد القطع بكونه تنزيلاً من حكيم حميد يمتنع الاعتراض فى أحكامه وأخباره ويجب أن تقتله النفوس بالإذعان والقبول واتمام التسليم له لأنه — لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه — فهو حق وصدق وسلامة منطق وصحة أحكامه ، أما بالنسبة للمكلفين فإن ضمان العمل بالشريعة الذى هو أصل تربية الأمة على الإصلاح وارتقاها على مدارج الفلاح وإنما هو فى التحذير الحقيقى للمخاطبين بالشريعة من مخالفة الأمر والنهى بنصب الوعيد لهم على المخالفة بعذاب الجحيم .

ويصور الدكتور محمد سعاد جلال أن هذا العمل على أنه جزء من خطة احتواء الاسلام فيقول أن الاسلام يواجه صراعاً تاريخياً حاداً وظالماً من أمم فى الأرض جعلت نفسها بغير الحق فى جانب عدواته والكيد له . تستطيع أن تتصور الاسلام حصناً متيناً شامخاً وفى داخله أقوام من الناس يعيشون بمقائد خاصة وتقاليده وفيه وحادات وهذا التراث الدينى — لا القومى — هو جبل الله المتين الذى يربط بين هذه الجماعات الانسانية ويصنع منها وحدة صلبة تؤكد لأصحابها وحدة العمل والبناء وتمنحهم طاقات النضال وقد تمكن الذين اختاروا لأنفسهم عداوة الاسلام بغياً بغير الحق بصبرهم وقاوتهم وشدة إخلاصهم لمعتقداتهم ثم بتفريط المسلمين وانقسامهم على أمتهم أن يكسروا حصن الاسلام الظاهرى باستعمار أكثر بلاد المسلمين ، المهم أنهم

والمعروف بمكان من سلطانهم بحيث لا يفلت من قبضتهم ان أرادوا شئ. ولكن كسر قشرة حصن الاسلام الظاهرة - أعنى إستعمار أمة وإحتلال أراضيه لم يكن شأنه أن يؤدي للفاية الأصلية منه وهي التخلص من سلطان الإسلام العالمي كفكر ودين وأيدولوجية ، وما دامت بطانة هذا الحصن من العقائد والأحكام باقية بين المسلمين فان (ديناميكية) هذه العقائد والأحكام كافية إذا تفاعلت في نفوس المسلمين أن تعيد لهم مرة ثانية بناء الطبقة الظاهرة المنكسورة من خصمهم العنيد .

إن ممكن القوة الفاعلة ومادة البناء الذي يراد به التناول والشموخ تستقر في قلب الإسلام باعتباره عقيدة وفكر ونظاماً اجتماعياً وما دام هذا الحصن المعنوي قائماً في نفس الإنسان المسلم فهو الحصن الأكبر الذي لا يأتي عليه الدهر ، فالمقصود للتخلص من وجود الإسلام هو إدخال التغير والتحريف على معاني نصوص الإسلام وإدخال التغير والتحريف على مفاهيم العقائد الإسلامية والأحكام الإسلامية بحيث يقع ذلك كله موقفاً قريباً من الأديان الأخرى التي يريد لها أصحابها الأفراد من دونه بفكر جميع البشر واعتقادهم ، وبحيث يؤدي هذا القرب إلى نسيان المسلمين وتجاهلهم بحقائق دينهم الأصلية الصحيحة وانتقالهم عنها إلى هذه المفاهيم المتغيرة الجديدة التي تنقلهم بطبيعتها المنحرفة المتغيرة إلى الإيثار والتذوق لحقائق ومفاهيم الأديان الأخرى التي شدوا إليها من أول الطور بتزييف حقائق الإسلام وتعتبر مفاهيمه في العقائد والأحكام ، ثم إذا وصل المسلمون في الشوط قبل الأخير من الإيثار والتذوق لحقائق الأديان الأجنبية والمناخنة للإسلام والمصارعة له في التاريخ المعاصر أمكن شدم بعد ذلك بمنتهى السهولة والبسر إلى تمام مراحل العملية المنظمة بإخراجهم من دينهم وإدخالهم في الدين الجديد المراد إدخالهم فيه من أول مراحل العملية . نعم إن هذه عملية طويلة وصعبة التناول والممارسة وتحتاج إلى زمان طويل ولكن تعارب التاريخ

منع خصوم الإسلام في السكيد له تعللنا أنه لا يوجد في تخطيطهم عن الإسلام شيء يقال عنه أنه صعب ، لقد بدأ خصوم الاسلام الأذكياء ذوى الكفاية المذهبية الرائعة المنظمة أروع تنظيم إلى بدء هذا المخطط منذ زمن قديم جنباً إلى جنب مع مخطط ضرب الإسلام عسكرياً من أول يوم من أول ظهوره وفي كل مكان وصل إليه في الأرض لكن تركيزهم على ما قبل الحرب العالمية الأولى كان منصّباً على ضرب الاسلام عسكرياً بالدرجة الأولى . حتى إذا أسقطوا دولة الخلافة الاسلامية ووضعوا أيديهم على البلاد التي تعتبر قلب الإسلام وهي مصر وفلسطين ، انتقل تركيزهم بالدرجة الأولى إلى عملية الاحتواء العسكري ، هذه يستخرون فيها أناساً من المسلمين أنفسهم إما بطريق الاستهواء والافتناع العسكري لمن ضعف اعتقادهم وتنقيفهم الاسلامي وإما بالاعراء بالمنافع العاجلة واستئثار ضمائرهم وأفلامهم بالثمن الجزيل واستغلال حاجة بعض الناشئين الفقراء وضوع نفوسهم في قالب التربية الخاصة تؤهلهم إذا كبروا وأصابوا مراكز مرموقة في الدولة يمكنهم لحم من الفعل والخدمة أن يقدموا لمربيهم هؤلاء في مضادة الاسلام بهذا الدور الخطير .

(٦)

صاحب الزنج والحلاج

حاولت حركة المؤامرة على الاسلام إبتعاث مفاهيم زائفة في محاولة لإحياء الشيعوية والفكر الباطني على أن حركة الزنج والقرامطة حركات عدل اجتماعي .

وكان صاحب الزنج والحلاج في مقدمة الشخصيات التي ركزت عليها وقد استطاعت حركة البقطة الاسلامية والأصالة أن ترد هذه المفاهيم الزائفة

وتكشف وجه الحق في دعوى أن الحلاج كان مصلحاً اجتماعياً أو داعية إلى العدل الاجتماعى أو أنه قتل في سبيل تحرير رقيق الأرض ولقد هنى لويس ماسينيون بأخبار الحلاج أربعين سنة يبحث عنها ويعيد طبعها ويضع سمومها بين أيدي المثقفين في هذا العصر ، حريصاً أشد الحرص على أن ينفي الصلة بينه وبين القرامطة وقد واجه الدكتور محمود قاسم هذه القضية وكشف وجه الحق فيها قال : بدأ ماسينيون شديد الحرص على نفي الصلة بين الحلاج والقرامطة وظل يؤكد أن هذا المتصوف لم يكن داعية سياسياً بل انتهى به الحب الإلهي إلى التضحية بنفسه على مذبح الحب كذلك يؤكد لنا دون ملل أن الحلاج كان متصوفاً سنياً أراد تعميق الروح الدينية في بيئة جفت طافتها الروحية وتمسكت بقشور الدين دون لبه وقد ظن ماسينيون وبعض تلاميذه أن الحلاج الذي قال بحلول الله فيه يمد جسراً بين المسيحية والإسلام السني ومع ذلك فإن هذا الحرص الشديد على نفي الصلة بين الحلاج والقرامطة قد يؤذن على عكس ذلك بوجود هذه الصلة بينه وبينهم ، وقد اعترف ماسينيون في موطن مامن كتابه عن الحلاج بأن موقف هذا المتصوف من فريضة الحج كان صعباً في إدانته ومصرعه وأنه جرد مكة من أفضليتها وقداستها عما شجع القرامطة على مهاجمتها والفتك بالحجاج وهدم الكعبة ونزع الحجر الأسود منه ثم إرساله إلى هجر حيث بقى هناك نحواً من اثنين وعشرين سنة فلم يعد إلى موضعه إلا بعد أن استقرت الدولة الفاطمية وبعد أن ثبت الحكم الفارسي في بغداد بدلاً من الحكم العربي .

حاصر الحلاج حركتين شعويتين هامتين هما ثورة الزنج وثورة القرامطة وربما تكشف لنا خيوط تربط إحدى هاتين الثورتين بالأخرى وذلك أمر يتسق على طبيعة الأحداث التاريخية والاجتماعية . ويمكن القول بدءاً بأن القرن الثالث الهجري شهد عدة حركات سياسية ترمي إلى تفويض الدولة العباسية والتمهيد لدولة علوية ، بعد أن فشلت جهود القرن الثاني في نقل الخلافة من الأمويين إلى آل البيت .

وكان من الطبيعي أن تصطبغ هذه الحركات بصبغة دينية جلباً للأناصر من الحائقين على الدولة العباسية وربما كانت هناك دوافع اجتماعية وسياسية وعنصرية توجب الحق على أصحاب هذه الدولة ، ولكن سارت الثورات السياسية جنباً إلى جنب مع ظاهرة دينية إذ كان ادعاء النبوة أو الربوبية أمراً مألوفاً في تلك الحقبة الغامضة من تاريخ الدولة العباسية التي بدأت تنحلل لكي تمهد لظهور عصر الدويلات الصغيرة منذ أواخر القرن الثالث بصفة خاصة .

إذن لم يكن الحسين بن منصور الحلاج أول من ادعى الألوهية ولا آخرهم ، فقد سبقه كثيرون كما تبعه آخرون فيما بعد ، وبعضهم كان من تلاميذه ونعني به أبا عمر الذي عاش في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري .

ساعد ضعف السلطة المركزية في بغداد على تتابع الفتن فيها ثم على نجاح ثورة الزنج الذي بدأت في ٢٥٥ واستمرت نحواً من خمسة عشر عاماً وقد بدأت هذه الحركة بحمى لافتة دينية إذ قام بها رجل تظاهر بالدعوة إلى آل البيت وهو محمد بن محمد بن عبد الرحيم ولد في الطالقان بخراسان وهي المنطقة التي كان يحوب فيها دعاة الإسماعيلية الفاطمية من أبناء ميمون القداح والتي جال فيها الحلاج أيضاً - بدأت الحركة بمجيء صاحب الزنج من خراسان وقد ادعى هذا الرجل أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى من أبناء الحسين ، ونجح في كسب ثقة الزنج فاجتمعوا حوله ثم اتجه إلى البحرين التي ستكون من أهم المراكز القرطبية فيما بعد فاتبه جماعة كبيرة من أهلها وغيرها ادعى لنفسه النبوة وزعم أن الوحي ينزل عليه . ثم انتقل إلى البصرة ومنها إلى بغداد فزعم أنه ظهر له آيات وتلك هي الكرامة التي نسبها الحلاج إلى نفسه أو نسبها إليه أصحابه فيما بعد وقد استطاع صاحب الزنج استمالة جماعة من بغداد

ثم انتقل هو وأتباعه إلى البصرة في سنة ٢٥٥ أعا صاحب الزنج فقد اختار
البصرة مركزاً له بعد أن عزل واليها ثم أخذ يستدرج العبيد وكون منهم
جماعات نصب على كل جماعة فيها رئيساً من بينهم وكان يعدم اللجنة فاجتمع
لديه عدد كبير من غلمان أهل البصرة الذين أقبلوا عليه خلاصاً من الرق
والتعبد ولما قوى أمره سار إلى القادسية ونهبها هو وأصحابه ثم عاد بهم
وهاجم البصرة ووضع في أهلها السيف بعد أن هزم جيشها فقتل من أهل
البصرة خلقاً كثيراً وقد رسم المسعودي صوراً بشعة لـكارثة البصرة فيقول
واختفى كثير من الناس في الدور والآبار فكانوا يظهرون بالليل فيأخذون
الكلاب فيذبونها ويأكلونها والقيران والسنانير فاقتنوها فكانوا إذا مات
منهم الواحد أكلوه . وهكذا لم تلبث حركة الزنج أن كشفت عن وجهها
الحقيقي فبيعت النساء من نسل الحسن والحسين والعباس وغيرهم من الهاشميين
والقرشيين في أسواق الرقيق وكان من عادة صاحب الزنج أن يقتل الأسرى
فأثار الرعب فكانت بعض المدن تسلم حصونها بدون قتال كما فعل أهل عبادان
وقد دخل الأهواز وخرّبها ثم أحرقها ولم يكن يحترم وعداً أو عهداً مع
أعدائه ، وذلك أنه لما دخل البصرة (أقام يقتل ويحرق يوم الجمعة وليلة
السبت ويوم السبت ولما طلب أهل البصرة الأمان منهم فلما تجمعوا في دار
حددت لهم غدربهم وأمر أصحابه بقتلهم وأحرق البصرة في عدة مواضع ،
وهذا هو ما فعلوه بمدينة واسط عندما دخلوا إليها سنة ٢٦٤ هـ ، هزمهم
أبو العباس الموفق الهزيمة الأولى ٢٦٧ .

ثم كتب إلى صاحب الزنج كتاباً يدعو فيه إلى التوبة ولكن الثائر لم
يستجب فخاصر الموفق مدينته التي سماها (المختارة) وضيق عليها الحصار
ولجأ التأثير النفسي في أعوان صاحب الزنج فأخذ هؤلاء يتسللون إلى المدينة
المحصورة ومن بينهم بعض القواد وكانوا يطلبون الأمان من الموفق فأمّنهم
وظل يحاصر المدينة حتى اشتد الجوع بمن فيها وأخيراً اقتحم الموفق المدينة

المحاصرة وأحرق قصورها وأنفذ النساء والأطفال واستطاع القضاء على ثورة الزنج سنة ٢٧٠

ثم ما لبثت أن نشبت ثورة جديدة بعد وفاة الموفق ٢٧٨ ونعني بها ثورة القرامطة التي امتدت قرناً من الزمان وقد اتهم الحلاج بأنه من كبار دعايتها والمروجين لها تحت ستار من التصوف وادعاء الألوهية إلى جانب المفاداة بإبطال فرائض الإسلام من صلاة وصيام وحج وزكاة وتوحيد أيضاً وقد حاول ماسينيون جاهداً أن ينفي عنه التهمة السياسية وأن أقر بأن الحلاج نادى بإسقاط التكاليف وبأن الولي عنده أعلى مرتبة من النبي وله أن يفسخ الشريعة وأن يقرر عبارات جديدة وعلى الرغم من الفاصل الزمني بين نهاية ثورة الزنج وبداية ثورة القرامطة فإننا نجد أنفسنا في الواقع أمام ثورة متصلة أجيد تخطيطها والإعداد لها بصورة متقاربة .

ومن المؤكد أنه كانت للقرامطة (أيديولوجية) دينية لا تتسق مع ما يعرفه المسلمون عن دينهم منية كانوا أم شيعة فقد ادعى القرمطي الأول أنه داعية المسيح وأنه عيسى وهو الكلمة وهو المهدي وهو جبريل ويتم هذا الخلط المعجب عن الطابع التلغيفي للماسونية والقرمطية والباطنية بصفة عامة .

ويجبرنا ابن الأثير أن فرمطاً اتصل بصاحب ثورة الزنج قبل مقتله وأخبره أن معه مائة ألف ضارب بالسيف ولكن لم يتفق الرجلان لبعضى الفروق المذهبية وعلى الرغم من هذه الفروق المذهبية فقد اتفقت أساليب الطائفتين إلى حد كبير من سبي النساء والجوارى وقتل الأمرى والسلب والنهب .

كان أسلوب القرامطة امتداداً لأسلوب صاحب الزنج .

ويبدو أن الحلاج الذي كان يجوب خراسان منذ سنة ٢٨٥ هجرية لفترة امتدت نحواً من خمس سنوات كان شديد اللمعة في ظهور المهدي المنتظر

يقسم سنة ٢٩٠ هجرية وهي السنة التي كان يقسم بها بعض دعاة القرامطة في خراسان أيضاً وهذه السنة هي التي تلعب فيها ثورة القرامطة أوجهاً من العنف وقبض على الحلاج ٣٠١ وبقول ابن الأثير أنه كان مشعبداً في قول بعضهم ومعه صاحب له فقيل أنه يدعى الربوبية وفيما بعد قال الإمام الجويني إمام الحرمين أن الحلاج كان من دعاة القرامطة وأنه اتفق هو الجنابي وابن المقنع على إفساد عقائد الناس وتفرقوا في البلاد فكان الجنابي في هجر والبحرين وابن المقنع ببلاد الترك ودخل الحلاج العراق وإن كان الحلاج لم يجتمع في عصرهم غير أنهم لم يكن لمقتل أبي سعيد الجنابي ولأربعة من أكابر رؤساء القرامطة على يد أحد خدمه من الصقالبة في سنة ٣٠١ تأثير كبير في حركة القرامطة التي مدت سلطانها على هجر والإحساء والقطيف والطائف وسائر بلاد البحرين .

وأخذ القرامطة يقطعون الطريق على الحجاج بعد خروجه من مكة .

والذي يعنيننا هنا أن نفسر عنف القرامطة في محاربة الحجاج والفنك بهم ، وسنرى كيف اضطر ماسينيون رغم محاولاته العديدة إنكار الصلة بين الحلاج والقرامطة أن يعترف بأن الحلاج كان يريد لإبطال فريضة الحج ويبدو أن محاولة تدنيس الكعبة كانت هدفاً أساسياً من أهداف الدعوة الفاطمية . أن ظاهرتي لإبطال فريضة الحج وظاهرة ادعاء الألوهية هي الظاهرتان الغالبتان وقد جمع الحلاج بين هذين الأمرين ثم اختلف الناس في تفسير مقتله أكان بسبب محاولة إسقاط فريضة الحج أم كان بسبب ادعائه للألوهية ، لكن يبدو أنه كان يريد الأمرين معاً فإنه يهرج بأنه مدين بمذهب الحلول وهو عندما يجمع بين الأمرين لا يفعل سوى أن يسير في الانجاء العام لكل من حركة القرامطة والدعوة الفاطمية وأنه استعان في سيرته هذه بالسحر والتصوف في الوقت نفسه .

ويتحدث الدكتور بديع شريع عن الحلّاج فيقول : كتب عنه ماسينيون كتاباً كبيراً عالج فيه ناحية التصوف فقط ولم يتعرض للناحية السياسية كان الحلّاج لم تكن له صلة بالقرامطة وكان الحلّاج لم يكن له شأن في أمور السياسة وقد هذه المعرى في رسالة الغفران من الزنادقة وقال عنه أنه مشعوذ وقال ابن النديم أنه صيامي يروم قلب الدول وقال البيروني عنه أنه كان رجلاً مشعبذاً ومتصنعاً ومازحاً نفسه بكل إنسان على حسب اعتقاده ومذهبه ثم ادعى حلول روح القدس فيه وتسمى بالإله وصارت له إلى أصحابه رقاع معنونة بهذه العبارات من الهو هو الأزل الأولى النور الساطع اللامع والأصل الأصلي وحجة الجميع ورب الأرباب ومنشئ السحاب ومشكاة النور ورب الطور المنصور في كل صورة إلى عبده فلان وكان أصحابه يفتتحون كتبهم إليه بعبارة : سبحانك يا ذات الذات الخ وقد فتن الناس به وارتبكت أمور الدولة فقبض عليه وحوكم علانية أمام جمع غفير وسئل فقهاء الشرع في أمره فأفتوا بالإجماع بقتله وكان يمكن للمقتدر أن يتركه حراً يعبث بصوفية ويثرثر بهذه الألفاظ التي لا تنفثها عادة إلا أفواه المعتوهين والمافوتين لولا أنه اكتشف مرأ خطيراً وبأن له أن الجبة التي قال عنها الحلّاج كلمته المشهورة (ما في الجبة إلا الله) كانت ستاراً يغطي اتفاقاً سريراً بين الحلّاج وبين رئيس القرامطة لقلب الدولة وتقويض أركان الإسلام ، وقضى المنصور على ابن المقنع وقتل المهدي بشار بن برد وقتك الرشيد بالهرامكة بعد ما كشف مر ما يبطنون له وقضى المعتصم على الأفسين وأقنى علماء المقتدر بقتل الحلّاج فأهلكته . .

فانظر كيف يجدد الشعوبيون ودعاة التفريب لنا ذلك كله اليوم تحت ستار الأدب .

(٧)

الشعوبيون

ابن المقفع - أبو حبيدة - علان - أبو نواس - أبو العتاهية

وقد كشف الدكتور بديع شريف عن جذور المؤامرة وحاول وضع النقط على كثير من الحروف وخاصة ما أورده المستشرقون : يقول أن المستشرق الإيطالي جويدي نشر مخطوطاً لمؤلفه إبراهيم بن القاسم واسم الكتاب [الرد على اللعين : عداقة بن المقفع] كشف به القناع عن زندقة ابن المقفع ، اقتطف إبراهيم فقرات من كتاب معارضة ابن المقفع للقرآن وقد بدأ عداقة قرآنه بطراز جديد من البسملة باسم النور الرحمن الرحيم ثم شرح بمدح النور وأنه منبع الخير والمعرفة ويهاجم الإسلام من حيث أنه دين والقرآن من حيث أنه منزل على محمد خاصة صورة الجن وإحراقهم بالشهب ثم يستهزئ بأفقه حيث لم يجعل النصر للمسلمين إلا بالسيف وعلى ظهور الخيل ويظهر جور الله وظلمه ومن ذلك قتل أنبيائه ورسله وعدم حمايتهم وتأخير معاقبة الظالمين إلى يوم القيامة وأنه يسلط الأمراض والمصائب على الناس ويشمر بالغضب والحزن والألم لأنه يرسل زبانيته يوم القيامة ليعذبوا الخارجين على الإسلام ثم يتهم بمحمد صلى الله عليه وسلم .

والقاسم لم يذكر جميع رسالة ابن المقفع بل اقتطف منها جملاً معدودة ولكنها تعطينا صورة للجدل الذي كان يثار في ذلك الزمن والكفاح المستمر بين الملحدين والمسلمين وبعبير أجلى للصراع بين المبدعين وأسم الحضرارين ، كان عمل ابن المقفع عملاً فردياً ولكنه عمل جبار في الصراع بين هاتين الحضارتين ومع أن الدور الذي لعبه ابن المقفع له خطره ولكن أقل شأنًا من الدور الذي لعبته أسرة البرامكة في هذا الصراع .

٢ - وقد طرد البرامكة الاصمعي من بلاط الخليفة وأحلوا محله أبو عبيدة . وأبو عبيدة مثقف جمع إلى الثقافة العربية : الثقافة اليهودية والمجوسية فقد كان أبوه يدين بالنسرة وجرده يعتقد بالمجوسية وكان شعوبياً منمصباً ألف كتب المثالب والظعن على العرب منها كتاب المثالب في قبيلة باهلة وآخر في المثالب على وجه العموم ، يقول جولد سيهر أن أبا عبيدة مولع بوضع الأخبار ووضع الأحاديث التي تظهر خلاف القبائل العربية فيما بينها وتهاجها وشتمها بقبس الكلام ومقدع الهجا .

وكتاب المثالب يذكر فيه أبو عبيدة أنساب العرب ويرميهم بما ليس من السياسة ذكره ولا يحسن وضعه وكان إذا رأى أمراً يشرف العرب أرجعه إلى الفرس فإذا رأى قصيدة فائقة أو حكاية ممتعة قال أن العرب خلدوا بها للفرس وقد بالغ حتى جعل كثيراً من أخلاق بني عدنان وقحطان وحياتهم راجعة إلى بني ساسان : يقول جولد زيهر وهكذا يريد أبو عبيدة أن يقطف كل زهرة ناضرة في أكلیل الفخر العربي .

وقد انتشرت روايات أبو عبيدة في كتب التاريخ وأصبح معتمداً لكثيرين من المؤرخين والمتفقيين في اللغة فكان الطبري يروي عنه أخبار القبائل العربية ونجد أمثلة كثيرة واضحة من اختراعه على العرب في مثالبهم في كتاب أنساب الأشراف للبلاذري .

٣ - وعلان أو غيلان كان شعوبياً طارفاً بأنساب العرب منعتظاً إلى البرامكة نسخ للرشيد والمأمون في بيت الحكمة وألف كتاب المثالب الذي هنك به العرب وأظهر مثالبها : يقول الألومي كان غيلان زنديقاً ثوياً فعمل لطاهر بن الحسين كتاباً خارجاً عن الإسلام بدأ فيه بمثالب قريش ثم سائر العرب ونسب إليهم كل زور ووضع عليهم كل لافك وبهتان .

أما ابن بن عبد الحميد اللاحق فقد كان موضع ثقة البرامكة ترجم لهم

كتاب مزدك ونظم لهم كلية ودمنة شعراً فوهب له جعفر البرمكي مائة ألف درهم .

أما أبو نواس وأبو العتاهية فقد هاجما السنة وبثا المبادئ الهدامة ومهد لهم الطريق بفشار بن برد وقد نجح البرامكة في تهيشة المكان الأول لأبي نواس في مجلس الرشيد وهو شاعر لبق حاذق بخلط الجدل بالهزل ويث مبادته في ثنايا هزله . كان يعد من كبار الثنوية زنديقا يهزأ بالدين ويراها قيلاً من قيود وأن الآخرة والبعث خيال ويشير الفك في العقيدة ويطلب الإبتعاد عن الدين كما هي وسيلة المانوية في محاربة الأديان والذين لا يعرفونه يقولون : إن أبا نواس رجل شغل نفسه بالخرقة والغزل الخارج على المؤلف ولكنهم لا يدرون أنه مدفوع بتعاليم البرامكة لنشر هذا الطراز من الشعر بين الناس فكان يعتمد على البرامكة والبرامكة يعتمدون عليه .

يقول المستشرق كريم : ناشر ديوان أبي نواس : إن أبا نواس كان يهزأ بالعقيدة المحمدية علانية دون وجل أو خجل وكان ينشر مبادئ الضلال والزندقة ولا يحجم عن الكلام عن كل ما يعتقد به وكان يؤثر في الرشيد تأثيراً مطلقاً فكلما غضب الرشيد على البرامكة كسر أبو نواس سورة غضبه في بيتين من الشعر وكان كلما اتهم بالزندقة شفّعوا له عند الرشيد ، ولما قتل البرامكة حبسه الأمين في حبس الزنادقة .

أما أبو العتاهية : فقد لاحظ المستشرق فايدا : أثر الثنوية في أرجوزته المشهورة وقد وجدت أيضاً في ثنايا شعره ، وقد أخذ ناحية من تعاليم المانوية هي ناحية الزهد في الحياة مع أن الزهد ليس من طبيعة أبي العتاهية ، لم يتكلم إلا عن الموت ولم يذكر البعث .

نرى هذا الشاعر يتحدث عن الزهد في الحياة والانضواء بين القبور وخفاء الطموح والإستكانة إلى الدالة والمسكنة والإستسلام لانقراض

البشرية التي كانت المانوية تدعو إليه ، كان هذا التنفيذ الذي قام به البرامكة وأنباهم في عنفوان الحضارة الجديدة والدين الجديد مثل القنبلة انفجرت في البناء الشاخ فصدعت جوانبه وفتحت منها الثغرات بما نفساً بعد ذلك من البسودع والضلالات التي كانت تتمثل تارة بأشخاص وتظهر تارة على يد جماعات فكانت الحرمة التي حاصل مبدئها رفع التكليف وتسليط الناس على إنباع الشهوات ، والقرامطة الذين عاثوا في الأرض فساداً بتعاليمهم الباطنية وكانوا يستندون في هذه التعاليم على تأويل القرآن تأويلاً يتفق مع آرائهم وكانوا يرمون في أعمالهم إلى إنتقال دين الإسلام إلى عقيدة المجوسية .

(٨)

الوحي والنبوة

تتردد هذه الأيام كتابات جديدة عن الإسلام والفكر الإسلامي والثقافة العربية بأفلام كانت في الفترة الماضية من دعاة الوجودية أو المادية أو الوضعية المنطقية ، وليس هذا مستغرباً فإن عدداً من كتاب العصر الحديث أمثال الدكتور هيكل والعقاد وزكي مبارك ومنصور فهمي واسماعيل مظهر قد غيروا جلدتهم في فترة الأربعينات واتخذوا مواقف جديدة مغايرة لمواقفهم في الثلاثينات وقد جرى تحليل لهذا التحول وكشفت الأيام خلفياته وأهدافه وحقائقه ، بل أن هناك من تحول من الشعر الجاهلي إلى هامش السيرة .

فليس غريباً أن نجد عدداً من الذين عرفوا منذ مطالع حياتهم بالتبعية الفكر الغربي وقد تجددت أهدافهم أو أجروا محاولات جديدة إلى كسب جولات جديدة في محيط القراء والفكر .

فليس غريباً أن تمتدى النفس البشرية إلى طريق وطريق ، وأن تجد أنها كانت قد غفلت عن نهج ، أو تهجرت عن ارتياد أفق ، ثم أتيت لها الفرصة لإرتياده ، أو جاءت مناسبة ما لزيارة بلد عربي أو إسلامي تحت أى ظرف ما ، ثم كان لهذا الجو النفسى والاجتماعى أثره الفكرى وذاًئماً غير زكى مبارك آراءه بزيارة الجزائر أو المغرب ، وغير محمود عزمى آراءه بزيارة فلسطين وغير هيكى باشا آراءه بزيارة دمشق ، وتحول دعاة المصرية والعرونية والإقليمية إلى دعاة العروبة أو ما كانوا يسمونه (الأقطار الشرقية الحقيقية) فليس عجباً إذن أن يزور زائر مكة المكرمة أو ينتدب جامعى فى بلد عربى له طابعه الإسلامى ثم يكون من وراء ذلك رؤية جديدة للتراث أو فكرة جديدة عن التوحيد .

ولكن الملاحظ دائماً أن العقل الذى تسكون من خلال ثقافة الغرب أولاً يحتاج إلى جهد كبير حتى يكون قادراً على استيعاب الفكر الإسلامى أو فهم الإسلام فهما صحيحاً محرراً من آثار المفهوم الغربى للعقائد ، وقد وجهت النقدات إلى كتابات الدكتور هيكى فى حياة محمد وكتاباته العقائد فى العبقريات وكتاباته طه حسين عن هامش السيرة وعثمان وعلى ، حول منهج الكتابة ومنطلقها وقد اعتمدت كتاباتهم جميعاً على مناهج الغرب فى تحليل الشخصيات وفى مفهوم البطولة بما يختلف بل بما يتعارض مع مفهوم الإسلام .

وكذلك نجد هذا المنهج وقد أخذ طريقه إلى كتابات الأجيال الجديدة ، حيث يوصف الرسول بأنه بطل ومصلح ورسول الحرية وداعية الثورة وإلى غير ذلك من صفات تختلف تماماً مع حقيقة الرسول النبى محمد بن عبد الله نبي الإسلام المؤيد بالوحى .

كذلك رأينا هؤلاء الكتاب الذين يقتحمون مجال الدراسات الإسلامية

ولم يلتصقون في الفكر الاسلامي مفهوماً مختلفاً عن مفهوم المسلمين أنفسهم، حيث يقف بعضهم عند التفكير الصوفي أو التفكير المعتزلة أو فكر الباطنية ثم يتمثل للناس إنه إنما يعبر عن مفهوم الاسلام .

والواقع أن هناك قضية أساسية في هذا المجال هي أن الفكر الاسلامي نما وتطور من خلال اقتحامه آفاق مختلفة منها الاهتزال والتصوف والفلسفة ولكنه انتهى إلى أن شكل نفسه تشكيلاً واضحاً مستقلاً جامعاً استقطب عناصر ما في هذه المذاهب من قيم واستوعبها في إطار مفهومه الاصيل القائم على التوحيد والايمان بالله .

فاذا جاء واحد من هؤلاء الباحثين فقصر نفسه على قطاع معين من هذا الفكر أو على مرحلة معينة من تطور هذا الفكر قبل اكتماله في صورته النهائية بوصفه « السنة الجامعة » فإنه يخطئ خطأ كبيراً ، حينما يرى أنه على الطريق الصحيح ، والواقع أن الفكر الاسلامي قد صنف منذ وقت طويل خلافاً الأحزاب السياسية التي تمثلت وراء هذه المذاهب الفكرية وامنص عناصرها وحررها من أطرها المرتبطة بهصر معين أو جيل معين واستصفها فكرياً إسلامياً خالصاً يستوعب قضايا المجتمعات والمصور دون أن يكون موضع احتواء للفلسفات اليونانية والفارسية أو الهندية التي وفدت مذاهبها إلى أفق التصوف والكلام والعقائد .

ومن هنا فإن الداخلين الجدد في مجال الفكر الاسلامي بدعوى الاهتزال والقول بأنه يمثل الفكر الاسلامي ضالون ومضللون ، فالاهتزال وفكره مرحلة سياسية وفكرية ، قد انقضت وانطوت وجاء بعد جزرها مد مفهوم الاسلامي كما كشف عنه الاشعري ثم ابن تيمية وهكذا وليس الاسلام إذن دعوة عقلانية كما خيل لمجدد الفكر العربي ، كما أنه ليس مفهوماً باطنياً أو صوفياً كما خيل لمجدد تفسير القرآن ، وإنما الاسلام فكرياً ربانياً

في طابعه ، إنسانياً في منطلقه يجمع بين العقل والقلب ويحرر نفسه بالتوحيد من كل سلطان غير سلطان الواحد الأحد ، ولقد يتخذ بعض القراء حينما يرون باحثاً اشتهر بالمادية أو بالوضعية قد أخذ يرد موارد الاسلام ولكنهم يجب أن يحذروا كل الحذر من أى فكر متلبس بالاسلام دون أن يكون على شروطه وأصوله ، وبيننا وبينهم : النبوة والوحى .

ذلك أن الجولة الجديدة للاستشراق إنما تتميز بطابعها الصهيونية التلويذى وهو طابع يختلف عن الاستشراق الغربى سواء منه الكنى الطابع أو الاستعماري الانجاء .

هذا الاستشراق يتكلم كثيراً عن التوحيد وعن دور الأديان ومهمتها وعن الدور الذى مضى وانقضى حين قام الإسلام برسائلته في مرحلة سابقة فادى للبشرية خدمة كبرى — كأنما كان الإسلام مرحلة انقضت ، وكأنما ليس هو الرسالة الخالدة الباقية إلى يوم الدين .

وأبرز مظاهر هذا الطابع الحديث من الاستشراق : التشكيك فى الوحى والنبوة ومحاولة تصوير الأنبياء والرسل على أنهم أبطال ومصلحون استوعبوا فكر أمتهم ، واستطاعوا صياغة التراث القديم فى صور جديدة إلى غير هذا من دعوة مبطلّة مضلّة .

ولارىب أن أصحاب مثل هذه الدعوى بمن يجب أن يوضع فكرهم فى دائرة التغريب والتبشير والغزو الثقافى ويعاملون معاملة المبشرين والمستشرقين .

وأخطر ما يقول هؤلاء ، أن القرآن انطباع فى نفس محمد نشأ عن تأثير البيئة التى عاش فيها وأن القرآن فيض من العقل الباطن وليس وحياً آلهياً اعتماداً على القول بعقريّة محمد والمعيته وصفاء نفسه .

ولارىب أن هدف إثارة هذه الشبهة محاولة قطع الصلة بين المسلمين

وبين القرآن ، فإنه إن كان من كلام محمد كان من عمل البشر ، وبذلك فقد معناه الاسمى وتفرق المسلمون وانتهى أمر الاجتماع عليه .

ونحن نعرف أن هناك فرقا واضحا بين كلام محمد وكلام القرآن في النسق والنظم ولقد كان محمداً - صلى الله عليه وسلم - أمياً لا يقرأ ولا يكتب وتلك حجة تدحض قول القائلين بأنه عرف ما في الكتب السابقة ، ولقد كان عليه بثثون قومه لا يزيد على علم غيره فمن الذى اطلعه على قصص الأولين .

ولاريب أن الوحي ليس ظاهرة نفسية داخلية نبعت من كيانه ﷺ وإنما هي حقيقة مستقلة عن ذاته استقبلها من خارج كيانه كما ينطق بذلك حديث بدء الوحي ، .

ولما كان الوحي هو حجر الرchy في النبوة وفي الدين كله فقد ركز عليه دعاة التغريب وأثاروا حوله الشبهات . وزعموا أنه نوع من الالهام الخفى وزعم آخرون أنه كان إشراقاً روحياً ووصفه آخرون بأنه نوع من الصراع .

ونحن المسلمون نؤمن بالوحي إيماناً كاملاً كجزء من إيماننا بالغيب وبالنبوة ونرى أن معارضيه أو المشككين فيه ليسوا من جماعة المسلمين ، وأن زيفهم مهما وضع في قوالب براقة فإنه لا يخدع النفس المسلمة .

وقضية الوحي والنبوة هي كبرى الركائز في بناء المجتمعات والحضارات والناس منبج القرآن وشريعة الاسلام ، والنشكيك فيهما محاولة لقطع الصلة بين المسلمين وبين القرآن الذى هو الأثر الوحيد الباقي على الأرض من رسالة السماء وهو الهدى الممتد بالضوء إلى النفس البشرية والأمم والمجتمعات إلى يوم الدين .

ولأرب أن محاولة النظريات المادية المستحدثة في معارضة الوحي والنبوة والغيب كله هي معارضة حقت أسباب فشلها في واقع الأمم والمجتمعات التي اعتنقت هذه النظريات .

فقد تأكد بالبحث أن العقل غير كاف وحده في فهم كل شيء وأن العلم قد عجز عن أن يقدم إجابات عن الأشياء وإنما يقف عند حدود مظاهر الأشياء، وأن المجتمعات التي صنعت شرائعها وقوانينها وأيدولوجياتها قد فشلت وعجزت عن أن تحقق المجتمع الصحيح أو أن ترد للنفس الإنسانية مكانتها وطماأبتها ومن هنا كانت البشرية دوماً في حاجة إلى نبي وإلى وحي، هذا النبي وهذا الوحي لا يمارسان العقل بل يلتقيان معه في طريق الفطرة الإنسانية .

ومن ثم يؤكد العقل دليل الوحي ، فالنبي يرشد العقل ويهديه فيما لا يستقل بمعرفته مثل الغيب والمعاد والآخرة والجزاء ويكشف عن وجوه الأشياء التي لا تدرك بالعقل ، حسنها وقبيحها ، ومن هنا كانت ضرورة النبوة والوحي للبشرية .

ولقد ثبت زيف دعوى العلوم الاجتماعية والأخلاقية والنفسية في دعوتها الباطلة بوصاية الأديان على الإنسان بعد أن بلغت البشرية رشدها ذلك أن البشرية لم تبلغ رشدها بدعوى تقف على أهبة الصراع النري وهواه يهزها من الأعماق ، فليس هناك سبيل لإزاء التقدم المادى إلا الدين والوحي هاديا ومرشداً ومن الحق أن يقال أن البشرية على الرغم من هذا الزمن الطويل الذي يقدر بملايين السنين ما زالت عاجزة على حد تعبير الأستاذ محمد المجذوب - عن حماية نفسها من المطامع والحروب والمذابح ولن يحميها من ذلك إلا الوحي والنبوة .

وجملة القول أن بيننا وبين الداخلين إلى ساحة الاسلام : الوحي والنبوة .

(٩)

المؤامرة اليهودية للقضاء على أصالة الاسلام

أشار العقد الفريد إلى قول الشعبي لمالك بن معاوية حين قال :
« أحذر كالأهواء المضلة . وشرها المرافضة فانهم يهود هذه الأمة
يبيغضون الاسلام كما يبيغض اليهود النصرانية ، لم يدخلوا الاسلام رغبة
ولا رهبة من الله ولكن مقراً لأهل الاسلام وبغياً عليهم ، وقالت الرافضة :
لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي وكذلك قالت اليهود من قبل .
ويقول صاحب العقد الفريد : كان لليهود أثر غير قليل في بعض المذاهب
الاسلامية ولا ريب أن ملامح المؤامرة اليهودية واضحة في تاريخ الاسلام
وضوحاً تاماً .

• أبو الخوذة الفلمسي ومقتل عمر بن الخطاب « المؤامرة اليهودية
المجوسية » .

- عبد الله بن سبأ وفكرة الحق الاطى في الدولة وأبطال الثورى .
- حركات الملاحدة والقرامطة والباطنية :
- التأويل في نصوص الكتاب والسنة والقول بالظواهر والبواطن .
- صناعة البدع والمحدثات وإشاعة الخرافات الغامضة .
- فلسفة الاشراق ومسائل الاتعاض والحلول .

والمعروف أن مختلف الفرق الباطنية والمضلة تقوم على التأويل : والتأويل
غير التفسير ، يقصد به باطن المعنى أو رموزه وإشارته أو الجوهر الخفى
الذي لا تدل عليه .

وراء الكلمة

كما تقوم هذه الفرق على إسقاط التكليف وحط أهياء الشرع عن
المتعبدين وتسليط الناس على إتباع الذات وطلب الشهوات وقضاء الوطر
في غير المباحات وفي المحرمات .

إن هدف المؤامرة اليهودية منذ قديم هو هدم الاسلام من الباطن :
هدمه فكريا وعقائديا ولذلك ، فقد أشاعت بين جماهير المسلمين بمجموعة من
الافكار التي تنطوي على الخرافة والتخذيل النفسي وتقديم تفسيرات مضللة
عن الاسلام وكانت من أكبر الأسباب التي حولت المسلمين عن تسكينهم
النفسي ونظامهم الاجتماعي .

وقد جمعت هذه الأيدولوجية اليهودية بين طرفين بالفصل بينهما من حيث
يجمع بينهما الاسلام : طرف عقلائي صرف يغلو في مفهوم للعقل والحس .

وطرف حدسي خالص يغلو في مفهوم الروح والوجدان .

ولقد جرى بعض ذوى الأهواء من المسلمين وراء هذا المفهوم الزائف
لأنه يرضى الرغبات المذلة ويحرر النفس من الضوابط والقيود ، ويحول
دون إقامة الحدود - حدود الله التي لا يجوز يعتدي عليها .

وخلفوا وراءهم مفهوم الاسلام الجامع المتكامل :

وإذا نظرنا اليوم وجدنا الصورة تتكرر حيث يؤمن المسلمون ببعض
الكتاب ويكفرون ببعض . فهم إما عقلانيون أو حدسيون ، وهم قد
يحققون في حياتهم مفهوم العبادة ولكنهم يفضون - جهلا أو قصداً -
عن مفهوم ارتباط الاسلام بالمجتمع وتطبيق الشريعة .

ونرى في كثير من الكتابات المعاصرة ، هذا الطابع الباطني المسرف في
الاعتماد على كتب معينة سواء من كتب المعتزلة أو الباطنية

نسبة أو الصوفية

والفلاسفة ظناً منهم أن أى نوع من هذه الأنواع هو مفهوم الإسلام ، أو أنه يمكن أن يصبحوا به وقد وقفوا على مفهوم الإسلام الصحيح وعيب هؤلاء أنهم لا ينظرون نظرة كلية إلى حركة التطور التى صاحبت الفكر الإسلامى فى القرون الأربعة الأولى من حيث ارتباطه بالفرق والأحزاب السياسية ومن حيث طبيعة شكله بعد أن انصل بالفلسفات المختلفة .

ولا ريب أن الاعتزال والسكلام والتشيع والتصوف كلها مراحل فى فكر واحد وحلقات متصلة استعملت بنفسها ثم غلب عليها مفهوم الإسلام الجامع التى تشكل جامعا لخبر ما تناولته هذه الفرق والدعوات بعد أن صفاها من أسباب الصراع والخلاف السياسى والفردى واستوعب عصارتها فى أعماقه .

فالإسلام نظر عقلى وأشواق روحية وحب لأهل البيت ودعوة للعوار مع غير المسلمين ولكنه ليس عقلا خالصاً كما يظن من يقرؤون فكر المعتزلة ويظنون أنه هو الإسلام وحده ، أو من يرون أن الإسلام حين تجاوز الاعتزال فقد ميزته فى الفؤ والحركة ، كل هذا لا يصدر إلا من أصحاب النظرة الجزئية التى تسيطر على الفكر البشرى عامة والفكر الغربى فى العصر الحديث .

وبردد كثير من الباحثين الذين يقعون مدارس الاستشراق والتغريب عبارة « هزيمة المعتزلة » ويريدون بها القول بأن هذه الهزيمة إنما كانت عاملاً من عوامل التأخر والتخلف والقائلون على هذا النحو لم يستوعبوا حقائق الإسلام ولم يفهموه فهما صحيحاً وربما فهموه من داخل دائرة الفكر الغربى .

والحقيقة أن هزيمة المعتزلة كانت نتيجة طبيعية القاصرة التى تختلف مع جوهر الإسلام ومع طبيعة الفكر الإسلامى ومنهج المعرفة الإسلامى هذا المنهج الذى يقوم على جماع العقل والوجدان .

لقد كان الاعتزال أساساً محاولة لمواجهة المذاهب الفلسفية التي كانت تهتم وراها الأديان المعارضة للإسلام وقد أدى دوره في هذا المجال على أحسن وجه ، وواجه علماء الكلام في الأديان والفلسفات الأخرى في قوة وأدال منهم وحقق كثيراً من النتائج وأدخل مئات من الوثنيين في الإسلام .

غير أن المعتزلة لم يلبثوا أن بلغوا درجة من الغلو في تأكيد موقفهم وفكرتهم ، حين أعلوا شأن العقل وبلغوا به مبلغاً خطيراً ، ولما كان المسلمون يؤمنون بالغيب والشهادة ويؤمنون بالوحي والعقل ويتكامل إيمانهم بهذا ويتشكل في وحدة واحدة ، فإن إعلاء شأن العقل وحده كان خروجاً على مفهوم الإسلام ، وهو خروج عرض المعتزلة للهرطقة وعرض فكرهم للإنهيار تحت أضواء الإسلام الصحيح ومن هنا جاءت التعديلات والنصحيات التي قام بها الإمام أحمد بن حنبل إذ كان لابد أن يعود الإسلام إلى أصوله وأن يتحرر عما أصابه عن طريق الفلسفة اليونانية من الانحراف .

وبذلك كانت هزيمة المعتزلة نصراً لأصالة الإسلام وتمديلاً لمسار فكره وربما كان حزن بعض الغربيين على هزيمة المعتزلة راجعاً إلى أن الاعتزال كان وليد الفكر اليوناني وتابعاً له وإنهم كانوا يتمنون له نجاحاً مضطرباً يخرج الإسلام من مقوماته كما أخرج المنطق اليوناني الأديان السابقة ولكن أصالة الإسلام كانت أكبر من هذه الفلسفة اليونانية .

ولذلك فإن الدعوة التي تتردد اليوم حول [تجديد الفكر العربي] مستخدمة فكر المعتزلة هي دعوى باطلة لأنها لا تفهم الإسلام ، ودعوى زائفة لأن الاعتزال ليس هو الفكر الإسلامي ولكنه مرحلة من مراحل تطوره وتشكله انصهرت بعد ما فيه انصهاراً كاملاً .

• • •

كذلك تبنى الدعوى الأخرى إلى تفسير القرآن تفسيراً باطنياً ، وهي

لا تعدو أن تكون حلقة من الدراسات الشعبية الحديثة التي تستمد مصادرها من الفكر اليهودي ، القائم على الإسرائيليات والذي يتصل بالباطنية واخوان الصفا والسبابة والقراءة .

ولا ريب أن محاولات تفسير الجزاء بأنه روحى والجنة والنار بأنه شعور نفسى والتي تحاول أن تبين ما حرم الله من حدود اللباس ، والزى والزينة كل هذا زيف مردود وقديم من المجوسية التلودية يتجدد على أيدي دعاة ربما لا يعرفون مدى خطر الكلمة التي يقولونها .

ويرجع هذا إلى أن قراءات أصحاب هذا الفكر تنصب على كتب النصوص الفلسفى ورسائل اخوان الصفا وكتابات ابن المقفع وابن الراوندى وغيرهم ممن ينسبهم الفكر الإسلامى تماماً ويشجب صلته بهم .

ويعود بنا هذا مرة أخرى إلى قانون المفاصلة القرآنى الذى تجرى محاولات كثيرة لتزييفه اليوم تحت أسماء [الثقافة العالمية ، التبادل الثقافى ، التقاء الثقافات ، وحدة الفكر البشرى] الخ .

إنما تريد كل هذه الدهوات دمج الأقل فى الكثير والضعيف فى القوى والفكر الإسلامى الآن وأمتة فى موقف الحرج ، وفى أفواه الأئمة الكبرى ، وفى موقف التحدى إزاء الغزو الثقافى والسياسى والاجتماعى والعسكرى لا يستطيع أن يستعلن وجود ثقافته المتميزة ولا يستطيع أن يهرض طابعه .

ولذلك فهى فى موقف الاحتماء ، من الثقافات العالمية التى تتقارب الآن سواء أكانت رأسمالية أم ماركسية أم صهيونية ، بينما يقف الإسلام وحده ثابتاً شامخاً كالطود لا يمكن أن ينهصر أو يحتوى أو يفرق فى أتون هذه الثقافات فهو وحده الدين الحالى والفكر الربانى ذو الطابع الانسانى .

وتلك هي دعوة القرآن إلى المسلمين منذ أربعة عشر قرناً في المفاصلة والمواجهة والوقوف على معالم واضحة ، وقول معروف فاضل ، دون أن ينطوى أو تقبل التبعية .

وذلك هو ، الخطر ، القائم أمام الغزو العالمى التلوى الذى يستهدف السيطرة على العالم كله وإذلاله للإيدولوجية اليهودية التى رسمتها بروتوكولات صهيون .

وقد قامت مرحلة استطاعت فيها الصهيونية أن تحتوى الفكر الغربى كله وأن تهر ك من داخل دائرتها فى مختلف مجالات الاجتماع والسياسة والنفس والأخلاق والتربية .

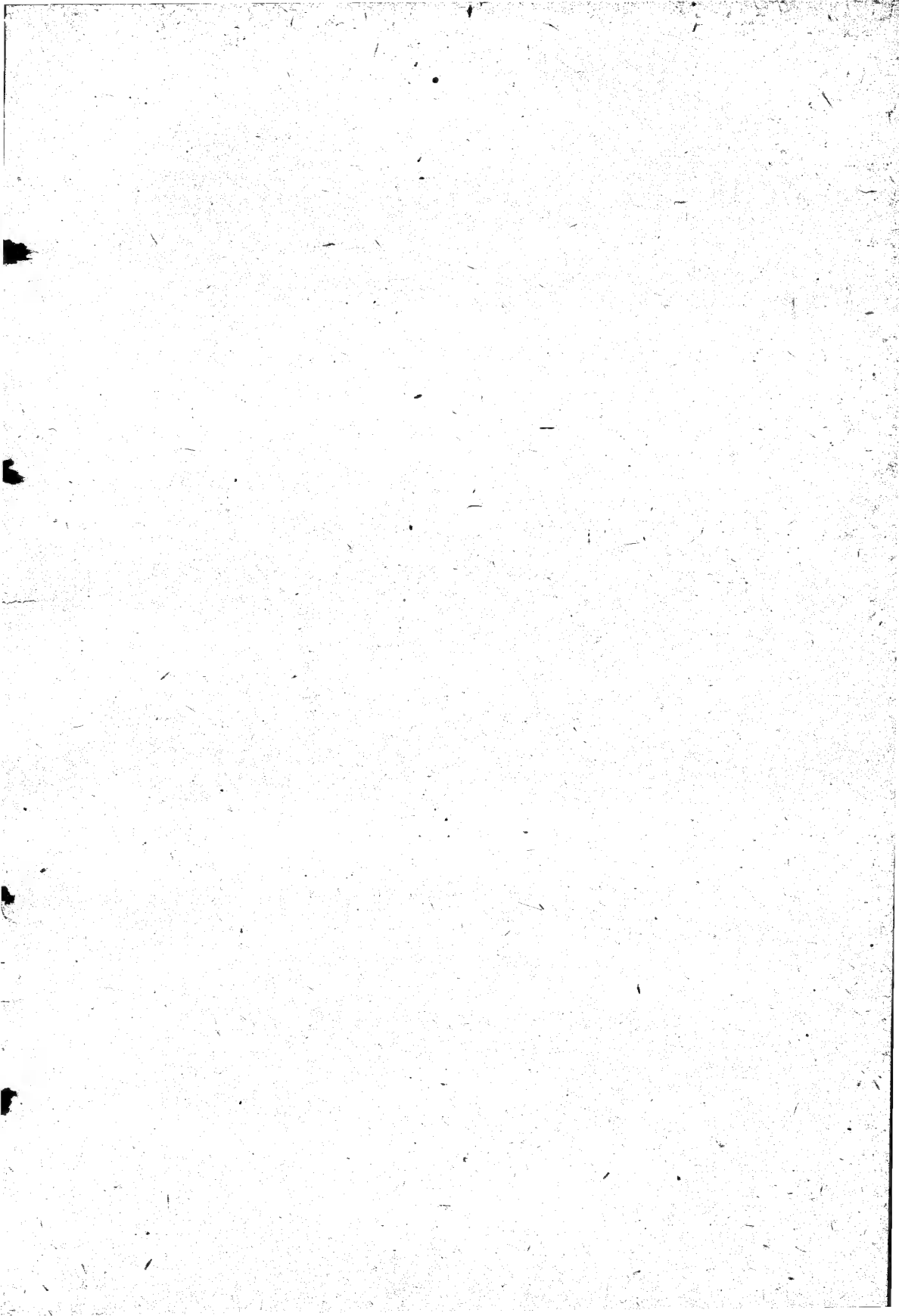
واليوم يواجه المسلمون المعركة : من خلال صلتهم بالفكر الغربى الذى وقع تحت الاحتواء التلوى والذى يحمل الآن جذور المؤامرة اليهودية الكبرى .

إن قانون المفاصلة للقرآن يقول :

- « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، ،
 - « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ، ،
 - « انهم ان يظهروا عليكم يرجوكم او يعيدوكم فى ملتهم ، ،
 - « أن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاافرين ، ،
- ومصدق الله العظيم .

البَابُ السَّالِعُ

الفرق الضالة



(١)

ظهرت في العصر الحديث فرق كثيرة ضالة منها ما هو منفصل عن الإسلام يحاول السيطرة على فكره ومنها ما هو منسب إلى الإسلام ويسمى باسمه كالأحمدية والقاديانية .

وقد اعتمدت هذه الدعوات على أرضية خلقها كتاب التفریب ودعاة الغزو الثقافي بالحديث عما أسماه (الفكر الحر) في محاولة لفتح باب الحوار مع هذه الفرق الضالة والدعوات الهدامة . يقول محمد عبد الله عنان : يرى بعض الباحثين في تاريخ الخلفاء والحركات الهدامة أن حركة التفكير الحر في الإسلام ترجع في الأصل إلى نشاط الدعوة اليهودية التي قصد بها الدعاة اليهود أن يشاروا لدينهم ولا أنفسهم بهدم النصرانية والإسلام وأن حركة الهدم والإلحاد التي وثبت بادیء ذي بدأ في فارس وكان قوامها ابن ديسان وولده عبد الله دبرها دعاة (الكابالا اليهودية) التعاليم العبرية السرية ثم تعمدها بالنصح والمال .

وفي هذا العصر نجد القاديانية والبهائية والروحانية الحديثة وقد ألقت بثقلها في المجتمع الإسلامي كله ووجدت من الفرص الذهبية ما مكن لها وحال وقتاً طويلاً دون كشف زيفها حتى أن بعض كتاب العرب تابع المستشرقين وأعلن أن القاديانية والبهائية هما دعوياں تجدیدیتان في الإسلام وقد جاء ذلك نتيجة المعجز عن دراسة الخلفیات التي دفعت هذه الدعوات وهي الاستعمار البريطاني والصهيونية العالمية ، فالواضح أن هذه الطوائف الدخيلة تلقي المعونة والتوجيه من المستعمرین والمبشرين واليهود ، وهم يهدونها لما أسماه ضرب الإسلام بالإسلام ، هذه الطوائف تقدس زعمائها

وتزعمهم فوق مرتبة البشر وتشرح لاتباعها من الدين عالم يأذن به الله مستغلة اسم الإسلام لهدم الإسلام .

والمعروف أن النفوذ الاستعماري قد اعتمد كثيراً على القاديانية والبهائية في فارس والهند وكلا الحركتين قد اعتمدتا أساساً على إلغاء أصل ثابت وخطر من أصول الإسلام وهو الجهاد دعماً لبقاء الاستعمار والتعاون معه وقبول سيطرته وحكمه وسلطانته .

وقد أتاح النفوذ الاستعماري للحركة البهائية حرية الحركة في العالم الإسلامي ، وفي مصر اهتمت صحف التبشير والاستعمار بالحركة وأولتها قدراً أكبر من العناية ، ومن العجيب أنه عندما فضحت مخططات التبشير ٣٢ - ١٩٣٣ في مصر وخفت صوت التبشير ، لم يلبث صوت الحركة البهائية أن علا ونقطت إلى العمل وكانت لها مراكز في القاهرة والاسكندرية وبور سعيد والاسماهيلية والسويس ولها نشرات متنوعة وكتب يمان عنها مؤلفوها ، إن بهاء الله مؤسس البهائية ، هو رسول الله الأعظم وسفيره الذي جاء بما يحقق أسمى رغبات الإنسان وتوحيد الأديان جميعاً تحت علم البهائية ، وأن الإسلام كان مصر خاص وعقليات خاصة أما البهائية فهي دين العصر الجديد ، ولاريب للبهائية أساليب تختلف عن أساليب المبشرين ، ولهم في الإباحية الأخلاقية منطلق عجيب إلى جمع السذج والأغرار ، إذ تهدف البهائية إلى إخراج المسلم من عقيدته الإسلامية ، وجعله يتشكك في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولأنه خاتم المرسلين وإن الإسلام هو خاتم الشرائع السماوية .

وتنكر البهائية للدعائم الأربعة الأساسية للإسلام : فهي تنكر عقيدة جهاد الأعداء والصمود لعدوانهم ، وتنكر عقيدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتنكر عقيدة الاحتفاظ بالذاتية الإسلامية وحمايتها

من النوبان ، وتنكر عقيدة الحج التي تعمل على تثبيت الوحدة ودعم الجماعة .

وقد ارتبطت البهائية باليهودية العالمية ، كما ارتبطت القاديانية بالاستعمار واستهدفت الأولى تمسيح الفواصل الأساسية بين الاسلام وبين تفسيرات الأديان واستهدفت القاديانية إلغاء أعظم قوانين الاسلام وأكبر عقائده ، وهي الجهاد .

يبدأ هؤلاء وهؤلاء من الاسلام ، ويتمسحون به فيحملون كدات المهدي والنبوة والاصلاح والاستخلاف . وقد أسقط رؤساء البهائية فرائض الصلاة والصيام والحج والجهاد والحدود والقصاص وسائر ما جاء في الكتاب والسنة من تعاليم .

والبهائيون لا يؤمنون باليوم الآخر أو الجنة والنار والجزاء ، وقد أخذوا بتفسير الباطنية لها : وقالوا : إن القيامة هي قيام الروح الالهية في مظهر بشري جديد ، وقالوا عن الجنة إنها فرح روحي ، وعن النار إنها حرمان من معرفة الله .

وهم يزيفون ما يسمونه دعوة التقريب بين الأديان ، أو بين الشرق والغرب ، وهم يستهدفون من هذه الوحدة إلغاء الاسلام وحده ، ويمجد البهائيون الصهيونية والاستعمار ، وقد كهدف كثير من الباحثين ، ورؤساء الكنائس حقيقة البهائية وسيطرة النفوذ الاجنبي عليها ، قال رئيس كنيسة (دستي نجل) إنها في روحها مطابقة لجميع الخطابات الدينية التي تسمعونها كل أسبوع ، ولقد تصافح الليلة الشرق والغرب .

وكان البهاء يزعم أن دين التوحيد الذي جاء به رسل الله وخاتمهم محمد قد أفسد الشرق والغرب ، وكان يؤمن بأن المسيح هو الله (تعالي الله عما

يقولون علواً كبيراً) والحق يشهد أن الدين الذي أرسل به عيسى يختلف عن التفسيرات التي عرفها الغرب ، وإن عيسى بن مريم رسول الله وعبد له وأنه بشر .

وقد لحص الباحثون فساد هذه الفكرة الضالة في محاولتها الخطيرة إلى :

أولاً : محاربة اللغة العربية ، وذلك بتبديل اللغة الفصحى بما يسمونه اللغة النوراء ، ومحاربة لغة الاسلام العالمية ، وهي لغة القرآن العربية واستنكار عالمية اللغة العربية ، وكونها اللغة المشتركة : لغة الصلاة والعلوم الاسلامية لتمزيق الصلة بين حاضري المسلمين وتاريخهم وتراثهم .

ثانياً : ادعاء نبوة جديدة ودين جديد ناسخ للاسلام وللاديان جميعاً ودعوة إلى وحدة الأديان واتحاد العالم .

ثالثاً : الخروج من الأديان جميعاً والدخول في دين جديد ، ومتابعة الماسونية في ترك الأديان والاجتماع على دين واحد هو دين الحب ، وهم بذلك أضافوا اختلافاً جديداً .

رابعاً : دعوة السلام العام وهي دعوة لإسرائيل التي ترمى إلى خدعه البشرية تحت اسم زوال الحروب ، وحلول السلام والاتحاد ، وقد كانت دعوة العالمية والسلام العام هي دعوة الصهيونية والماسونية والشيوعية .

خامساً : مساواة النساء بالرجال وإبطال شريعة الاسلام وأحكامها في شأن المرأة ، والبيهانية تدهو إلى الاختلاط الفاجر بين النساء والرجال عارياً إلى الاباحية الجنسية واتخاذ المرأة منعة يتمتع بها الرجل كيفما شاء ومتى شاء وإعلانه فلسفة اللذة ومشاركة المرأة الرجل في صالات الرقص والنوادي الليلية ، والحرية الجنسية المطلقة ومن نتائج هذا الهدف تدهور الأسرة وانحلالها وانتشار القلق الاجتماعي .

(٢)

وقد تبين من التحقيقات الرسمية التي أجريت للبهائية عام ١٩٧٢ قول أحدهم أنه لو أجبر على حمل السلاح في مواجهة إسرائيل لأطلقه في الفضاء وإن ذلك هو شعار البهائية ، وادعى زعيم البهائية أن بهاء الله هو المسيح ، وأن الباب هو المهدي المنتظر ، وأن القرآن معنى ظاهراً ومعنى باطنياً لا يعلمه إلا الله . وقال إن البهائية يزيدون على ٦٠ مليوناً في العالم ، وقال إنه بظهور البهاء انتهى التشريع الاسلامي وانتهت أمة المسلمين وإن رسالة البهاء ستستمر ألف عام ، وزعم أن العذراء مريم تزوجت بعد مولد المسيح من يوسف النجار وأنجبت .

ولا ريب أن هذه المفاهيم تكشف عن روح اليهودية العالمية والتلويحية الواضح الصريح في ثنايا هذه العقيدة .

وقد واجه كثير من الباحثين الدعوة البهائية ، وكشفوا عن زيفها وفي مقدمة هؤلاء العلامة محمد فريد وجدى الذى قال : أن طموح البهائية إلى أن تكون ديناً عاماً يدخل فيه الناس على اختلاف جنسياتهم وفلسفهم ، هو مما يقضى بالعجب لأنها ليست بدين سماوى وليس فيها من الأصول والمبادئ ما يلفظ العقول إليها بعد أن بالغت في عرض نفسها على الأمم ، فإن هي من الاسلام الذى بنى أمماً قوية ومدنيات فاضلة في خلال عصور متعاقبة ، ولا يزال مثل حيويته الأولى حتى ليتوقع فلاسفة كثيرون منهم برناردشو أن مبادئ الاسلام توشك أن تعم العالم أجمع على أصليين ضمنا له التعميم والخلود : موافقته للفطرة واعتماده على العقل والعلم ، فإن البهائية من هذا الموقف العلى الحق ، وهى تقوم على أصليين ، أحدهما عتيق غامض قام به أفراد من مجي المسيح في الخيالات فهى تصور ذات الله بصور المخلوقين وثانيهما : وهو صرف الألفاظ عن ظواهرها ، وفيه مجال فسيح

للظنون والأوهام والحظ ، وتدعى البهائية أنها أتت العالم بمجديد في الأصول ولم يدر في خلد المصالحين قبلها كاتحاد الأديان وترك المصهيات واتحاد الأجناس والسلام العام ومساواة المرأة بالرجل أما ما سموه باتحاد الأديان فقد سبق إليه الاسلام وأسس على أقوى الأصول وحاطه بأحكام الدلائل فقرر أن أصل الأديان كلها واحد وأن الخلاقات التي بينها ما حدثت إلا بسبب ما أدخله قادتها عليها من الأوهام فالاسلام يفرض على أهله القول بوحدة الدين فرضاً وبأمرهم بالاعتقاد بجميع الرسل من غير تفریق بينهم ، أن البشرية ليست في حاجة إلى دين جديد بعد الاسلام فإنه استكمل جميع شرائط الدين العام .

هذا ومع أن البهائية قد انقضت على دعوتها نصف قرن أو يزيد فما نرى أنها استطاعت أن تحقق هدفاً واحداً من أهدافها في إتحاد المشرق والمغرب أو اتحاد الأديان أو الأجناس أو زوال الحروب وكل ما كشفت عنه أنها موجة زائفة من موجات الإباحة والإلحاد التي حملت كل منخام الباطنية القديمة وأعدت طرحها على البشرية مرة أخرى .

وقد كشفت البهائية عن صلتها الجذرية باليهودية العالمية عند ما عقد في اميرائيل المؤتمر العالمي للبهائية وتبين أنها استخدمت للبهائية منذ وقت طويل منذ ما كان يقيم عباس البهاء في حيفا .

أما القاديانية التي تحولت من بعد إلى فرقتين لإحداهما الاحمدية فانها كانت في أساسها نتاجاً استعماريّاً استهدف ضرب مفهوم الإسلام الصحيح وتنحية مفهوم الجهاد وخلق جماعات تحت اسم الإسلام تتقبل النفوذ والاستعماري وتماونه وتخضع له .

فالقاديانية مؤامرة حقيقية على الإسلام ترى إلى إضعاف القيم الإسلامية وتمجيد القيم الدخيلة للفكر الأجنبي ، أما إضعاف القيم الإسلامية فإن ذلك

يجرى من طريق شرح بعض تعاليم الإسلام بما يضعف الإسلام في نفس المسلم ، أو خلق فكر آخر على أساس تفسير خاص لأصل من أصول الإسلام سيصبح فيما بعد مذهباً من المذاهب الإسلامية ، على حد تعبير الدكتور محمد البهي يقول : يتمثل ذلك في خلق مذهب الأحمدية في أواخر القرن ١٩ بفعل مؤسسة ميرزا غلام أحمد القادياني بعد أن تها الجوفكري والثقافي والروحي لنشأة مثل هذا المذهب عن طريق السيد أحمد خان مؤسس كلية عليكره وصاحب التفسير القرآني المشهور والداهي للولاء والتعاون مع السيادة الانجليزية في الهند طوال القرن ١٩

هذا المذهب يشرح فكرة الجهاد في الإسلام على أنها كانت فكرة مؤقتة حتى يستقر الإسلام نفسه كدين وحتى يستقر أمر الجماعة الإسلامية ، لذلك فإنه لا يجب تنفيذه بالسيف أو بالقوة وإنما يجب سلوك الطرق السليمة في الدعوة إلى الإسلام ويتحقق بهذا هدف الولاء للحكومة الانجليزية وبهذا التفسير يبطل العمل بمبدأ الجهاد على نحو ما عرف في صدر الإسلام ، والمعروف أن مبدأ الجهاد في الإسلام قصد به عدم إتهار الجماعة الإسلامية وإنصهارها في جماعة أخرى .

ولا ريب أن هذه الدعوات تسعى إلى إخضاع المسلمين عن طريق الاعتقاد وتغيير مفهومهم الأصل والجامع للتوحيد والجهاد والعدل .

وقد انتقلت دعوة القاديانية من نبي في القاديانية إلى مصلح في الأحمدية يحاول أن يستعيد لها بعض الثقة في النفوس التي رفضتها .

ولا ريب أن هذه الدعوة وغيرها تستهدف طمس منابع الإسلام والحيولة دون وحدة المسلمين والعمل على إعلاء العنصرية التي تقوم على الأجناس على وحدة الفكر التي جاء بها القرآن .

وأنه أتممت هذه الدعوات على سلاح [التأويل] الذي هو منهج اليهود القائم على مبدأ أذبح الناس بيد بعضهم ، وقد أولت القاديانية والأحمدية آيات الجهاد تأويلاً أبعداً عن مقاصدها ، وقال القادياني صراحة : لقد أسقط الله عنكم فريضة الجهاد وهو ما وصف بأنه دحزب ركن الجهاد بسيف التأويل ، وفي هذا متابعة لإخوان الصفا الذين قالوا : أن التأويل للحكام والتنزيل للدهماء .

وتخالف الأحمدية الإسلام في ثلاث نقاط : طبيعة المسيح ، دعوة المهدي ، فريضة الجهاد ، وتقول الأحمدية أن المسيح لم يصلب ولكنه مات في الظاهر فقط وخرج وهاجر إلى الهند وتقول الأحمدية أن وظيفة المهدي هو الدعوة إلى السلام وأن الجهاد يجب ألا يقوم على امتصاص الحسام بل يجب أن يقوم على وسائل سلمية وهم يظهرون في كل الظروف ولائهم الخالص للحكومة البريطانية ويمتقدون أن المهدي يتجسد في المسيح والنبي في وقت واحد .

يقول الشيخ عبد الرشيد إبراهيم : أما ما ترجمه رجال من القاديانية فلا تحسن الظن بهم لأنهم جماعات من محدثات سياسة الإنجليز لتشتيت جميع المسلمين وتعلم قطعاً الاحتياج الإنكليزي إلى زعماء من المسلمين لاضطهاد الإسلام فظهر بسبب ذلك البابية والبهائية والقاديانية .

ولقد حققت دعوة القاديانية نتائج خطيرة منها إثارة الجدل بين العلماء وشغل المسلمين فضلاً عما أثارته من شبهات عن تقديس قاديان كككة لوجوب الحج إليها ونحويل المسلمين من مكة وإثارة العصيرية بشأن رسول هربي ونبي هندي واعتبروا هذا انتصاراً وطنياً . ووقف نهرو يؤيد القاديانية ورد عليه الدكتور إقبال رداً عنيفاً ودعا الموردي إلى أن تعتبر القاديانية طائفة غير إسلامية كالبهايين وقد أعلن عن تنفيذ ذلك في السنوات الأخيرة .

(٣)

يقول الأستاذ محمد تقي الدين : أن الهدف من القاديانية هو إعادة هدم الوثنية الأولى لتعيد ذكرى برهما وبودا ولكن بصورة أخرى يقطعون بها على صفار العقول طريق الفطرة الإسلامية .

أولئك القوم هم جماعة القاديانية الهنود الذين أخذوا اسم الإسلام وأطلقوه على عقائد مختلفة . ساقهم ميراث الوثنية المرجوع إلى العقيدة الأولى التي كانت تنفس عنهم هذه الآلام ، فدعوا إلى المنقذ وأخذوا يفكرون أيكون وريث برهما في الإلهية أم وريث بوذا في النبوة ولم يكن يمكن نجاح دعوتهم إذا نهجت إلى الميراث البرمهي في دعوى الألوهية لأن عقلية مسلمي الهند استنارت بنور الإسلام وترفعت عن هذا الإسفاف ، فحاولوا أن يتخذوا منزلة هذا المنقذ منزلة النبوة ولكن بصورة أخرى تكون قريبة من إدراك الجماهير فاتخذوا من غلام قاديان نبياً يعيشون فيه عقيدة المنقذ ورأوا أنه لا بد له من مبادئ ينشرها ويدعى أنه أوحى إليه بها فلم يجدوا مبدءاً أصح ولا شريعة أصح من شريعة الإسلام فراعوا اتخاذها شريعة لهذا النبي الكذاب وعشوا ببعض مسائلها ونظروا في بعض عقائدها فخالقوا ما فيه من الخلاف ظاهراً واتخذوا من تحريف أقوال الشريعة أدلة على صدق نبوة غلام قاديان .

وقد كشف غلام أحمد القادياني هويته وأتباعه فقال : لقد قضيت معظم عمري في تأييد الحكومة الانجليزية ونصرتها فقد ألقت في منع الجهاد ووجوب طاعة أولى الأمر الانجليز من الكتب والإعلانات والنشرات ملو جمع بعضها إلى بعض لملأ خمسين خزائنه وقد نشرت جميع هذه الكتب في البلاد الغربية ومصر والشام وتركيا وكان هدفى دائماً أن يصبح المسلمون مخلصين للانجليز ، لقد ظلمت منذ حداثة سنى وقد ناهزت اليوم على الستين أجاهد

بلساني وقلبي لأصرف قلوب المسلمين إلى الإخلاص للحكومة الانجليزية والنصح لها والمطاف عليها وإلغاء فكرة الجهاد التي يدين بها بعض جهالهم والتي تمنعهم من الإخلاص لهذه الحكومة .

وكان من نتيجة ذلك أن أفلمت ألوف من الناس عن فكرة الجهاد التي كانت من وحي العلماء الجامدين وهذه مآثرة أتباعي بها يعجز المسلمون في الهند أن يتافسوني فيها ، (ص ١٠ من الطبعة السادسة من ملحق كتابه شهادة القرآن) .

وتكشف الوثائق والدراسات عن الصلة الواضحة والجذرية بين القاديانية والبهائية ، فالقاديانية في الهند والبهائية في فارس ألغت الجهاد إلغاءً كاملاً في وقت كان فيه المسلمون في أشد الحاجة إلى طرد العاصيين ، يقول مؤسس البهائية ، أن الإشارة الأولى لجميع أهل العالم نحو حكم الجهاد من الكتاب (أى القرآن) (نبذة من إشرافات بهاء الله ص ١٠٩) .

وأشار مؤلف كتاب حقيقة البهائية والبايية أن البهائية حركة منحرفة مشبوهة أسسها الميرزا هلام أحمد القادياني من لاهور من بلاد الهند وهو تلميذ للبوشى الداعية الباطني المشبوه بعد استثمار روسيا القيصرية لمملكتهم القوقاز يحضر روسي ليزود الباب بالأسلحة والخبرة العسكرية كما يدعى الأرمني الرومي (متوجه دخان) الإسلام ليخدم الشام ويهجم الباب في نصره من بطش المسلمين ثم يحاول إدخال الغناء في البايية .

وقد دخل يهود إيران في حركة البايية بشكل جماعي ففي أربع مدن وفي مدة قصيرة دخل منهم ٣٨٥ يهودياً ومن الماسونيين جولديزهر المستشرق روج لهذه الحركة ومن المبشرين في الغرب اهتم بها لورد كرزون ، استلين كاربنتر ، براون ، قامبري ، الكونت جونيبيو ، البروسفور جيمس وارمستر ، اقولاس ، الليدى شيل ، الدكتور جيل ، .

هذه الطائفة انقسمت بهد ذلك إلى فرقتين فرقة قالت بنو غلام وفرقة قالت بولايته : قاديانية وأحمدية وللفرقتين مآرب سياسية خطيرة وليست من فرق المسلمين وإن صامت وصلت .

وقد أعلن غلام أحمد قادياني مصراحة مخالفته للإسلام (٣٠ يوليو ١٩٣١ جريدة الفضل) قال : إننا نخالف المسلمين في كل شيء في الله وفي الرسول وفي القرآن وفي الصلاة وفي الصوم وفي الحج وفي الزكاة وبيننا وبينهم خلاف جوهرى في كل ذلك . .

وهكذا نجد أن المؤامرة تتجدد في العصر الحديث ليس بانبعاث الفكر الوثنى والهلينى والباطنى وحده في مجال التراث والتاريخ والأدب ، ولكنها تتجدد أيضاً في صورة دعوات وحركات تحمل لواء هذا الفكر وتعيد صياغته لتحدث في مجتمعاتنا ما أحدثته الدعوات الهدامة في القرن الرابع والخامس الهجرى فإن التجربة تتكرر مرة أخرى ولكنها اليوم أشد عنفاً فإن إرادة المسلمين الآن ليست مطلقة في دفع أهاصير التغريب والغزو الثقافي والشعوبية التي تؤيدها وتوازرها قوى الاستعمار والصهيونية والشيوعية وتحاول أن تفرضها في مجال التعليم والثقافة .

ولقد حاول الاستشراق أن يحدد المسلمين بهذه الدعوات ومحولة وصفها بأنها دعوات تجديد في الإسلام كما قال لورنس براون في كتابه طوابع الإسلام الذى لخصه وقدمه عباس العقاد في مجلة الرسالة ١٩٤٥ وتحدث فيه عن البهائية والقاديانية بوصفها دعوات لإصلاح وتجديد ولو درى لعرف أن القاديانية كانت البديل المحرف عن دعوة الجهاد الإسلامية التي اهتز لها الاستعمار وقضى على دعائها فهي رد فعل لموقف زعماء المسلمين في الهند من الاستعمار الانجليزى حينما انهمز البطل الشهيد تيبو سلطان في معركة ميسور في جنوب الهند ١٧٩٩ وأصبح للانجليز نفوذاً قائماً وفقد

المسلمون امبراطورية ظلت أكثر من ستة قرون . ومن الناحية الاقتصادية كان المسلمون هم الغالبين عليها وأصحاب المهارة في الصناعة والزراعة ، فأخلق الانجليز المدارس وقطعوا أيدي الصناعات وحرموا عليهم الوظائف الرسمية وشغل الهندوكيون الموالون للانجليز وظائفهم ، لذلك فكر صفوة من العلماء وعلى رأسهم عبد العزيز الدهلوي ابن الشاء ولي الله صاحب حجة الله البالغة فأفتى عبد العزيز بأن الهند أصبحت دار الحرب فوجب على المسلمين أن يحاربوا الاستعمار فقام الفقهاء والعلماء والمحدثون والمتصوفون يجاهدون في سبيل إجلاد الانجليز وكونوا جيشاً كبيراً قادة الشهيد إسماعيل ووقعت حرب دامية بين الاستعمار وخلفائه وفتحوا مدناً كثيرة ورفعوا فيها راية الاسلام وحدث ١٨٣١ بمقاطعة باراكوب في بنجاب أن انهزم المسلمون على أيدي الخونة من المسلمين أنفسهم ، وقبض الاستعمار على العلماء الذين اشتركوا في الجهاد والقام في السجن وألغيت جميع المدارس وأندية الثقافة ليتفشى فيهم الجهل والفقر وسوء الخلق . وهب تلاميذ الشاء عبد العزيز مرة أخرى لمقاومة الاستعمار وجاءت ثورة ١٨٥٧ التي هزت الاستعمار والتي لم تنجح وأوقع الاستعمار العلماء في محنة شديدة فقتل الكثيرون ونفي الكثيرون إلى جزيرة أندومان والبحر الأسود وأنشأ الاستعمار من ١٨٥٨ إلى ١٨٨٧ خمس جامعات في مدن الهند الكبرى (كلكتا - بمباي - مدارس ، لاهور - لاه آباد) وبدأت تدرس المواد الحديثة باللغة الابجدية وكان تلاميذ هذه هذه الجامعات هم الهندوس وأراد الاستعمار بهذه الجامعات القضاء على المدارس الدينية والنقاط الاسلامي في الهند فامتنع المسلمون عن دخول تلك الجامعات . ثم بدأ المسلمون ينشئون مدرسة دار العلوم بديوبند للمحافظة على تراث المسلمين وتخريج الدعاة لكي يقودوا المسلمين ضد الاستعمار فظهر محمد قاسم النانثوي ورشيد أحمد الكنولوهي وحاجي إمداد الله ومخرج على أيديهم صفوة من العلماء .

ولما رأى المهابدون والمسلمون أن المسلمين لم يدخلوا هذه الجامعات ويدخلها الهندوس وحدهم ، أنشأ أحمد خان (كلية محمدية) ١٨٧٧. لكي يدرس فيها المسلمون وقد تعلم فيها محمد علي ومحمد إقبال والزعماء المسلمين الكبار الذين قادوا الأمة الإسلامية في الهند في منتصف القرن العشرين .

ويفرق بعض الباحثين بين دعوة أحمد خان وبين دعوة غلام أحمد القادياني ، ويرى البعض الآخر أن دعوة أحمد خان هي مقدمة للقاديانية ، ويرى الأولون أن أحمد خان شأنه في الهند شأن محمد عبده في مصر ، أراد أن لا تفوت المسلمين الفرصة وأن يأخذوا طريقاً وسطاً حتى لا يجرهون من التعاليم الحديث وذلك بمسألة الاستعمار .

(٤)

ولم يلبث الإنجليز أن عمدوا إلى إيران والقاديانية ، لتحريف مفهوم الإسلام الأصيل ، وظهرت حكومة الهند هذه النحلة ونقلت دعائها إلى بريطانيا وأوجدت جريدة باسمهم (إسلاميك ريفيو) تنشر عقائدهم ودعائهم وتبني دعوتهم جماعة من الإنجليز وأبقوا جامعا في حي 'ووكنج بلندن' وقد عرفوا بجماعة الأحمدية ، وقد ترجموا القرآن إلى اللغتين الانجليزية والأردية .

وجرت محاولات للتفرقة بين الأحمدية والقاديانية : فقال عبد الحميد السيد : أن غلام أحمد زعم أنه خلاص ومجدد في أول أمره ، ثم ترقى به الحال إلى أن ادعى أنه المسيح المولود والمهدى الموعود لهذه الأمة ، ثم نجراً فأعلن أنه نبي ورسول من الله لكافة البشر ، وفي كل دور ألف كتاباً تناسب ادعائه فيه ، وفي الدور الأخير من حياته بنحو سبع سنوات ألف وكتب مدعى النبوة والرسالة بنصوص قطعية .

أما أحديرو لاهور فهم ينكرون نبوته التي مات وهو يدعو إليها
ويقصرون دعوتهم على أنه المسيح الموعود والمهدي المسعود والمصاح المجدد
والهدف هو محاولة إضلال المسلمين في شأن هذا الرجل ، فيحسن ظنهم به
توطئة لاتباعه والدخول في زمرة شياطينه ، وبعد أن ملك غلام أحد
١٩٠٨ اجتمع حواريوه لانتخاب خليفة له ، فاختروا حكيم نور الدين
نحو ست سنوات ، ثم خوجه كمال الدين ومحمد علي اللاهوري ، وقد خرج
محمد علي اللاهوري من قاديان مغلوباً على أمره فتوجه إلى لاهور ، وهناك
ألف هو ومن معه جماعة عرفت بالأحدية اللاهورية .

ورأت هذه الجماعة أن دهورى النبوة والرسالة بعد خاتم الرسل مما لا
يستسيغه منطق المسلمين ، ولا يتخذ به مسلم أبداً ، فاتفقوا بعد زمن يسير
على أن يقولوا أنه لم يدع النبوة ، مع أن كتبه التي يدعى فيها النبوة مطبوعة
وادعاء النبوة صريح ، وهى مملوءة بشتى الأنبياء والصحابة وآل البيت
وسلف المسلمين ، وأعادوا طبع كتبه التي ألفها في الدور الأول ولبس
فيها ادعاء للنبوة ، بل فيها إنكار لها ، وتركوا الكتب التي ألفها أخيراً
وقبل مائة .

وقد قاوم مسلمو الهند هذه الدعوة القديانية والأحدية مقاومة شديدة
وحاصروا غلام وأتباعه في بلدتهم الصغيرة قاديان ، وبعد هلاك هذا
الكاذب أشكل على أتباعه وأسقط في أيديهم ، ولما رأى القاديانيون ذلك
لجأوا إلى ظل الحكومة البريطانية ، وتعمدوا بالدعاية لها والدفاع عنها ،
وانتهزت الحكومة الفرصة لتفريق كلمة المسلمين عن طريق تشجيعهم ،
فهدت الطرق للتبشير بالقاديانية على أساليب المبشرين في الدعوة إلى
الكنيسة . وساعدتهم على الدعوة لإلغاء الجهاد الإسلامى والادعاء بأن
الإسلام لم يعد دين جهاد بل صار الآن دين السلام أى دين الاستسلام
للمستعمرين .

وكان محمد علي اللاهوري زعيم الفرقة الاحمدية من كبار اصحاب غلام
أحمد القادياني ، وكان من أبرزهم في الخطابة وأبرعهم في الكتابة ، فهو
الذي ترجم القرآن إلى الإنجليزية وفهره وحرفه وغير معانيه في مواضع
شتى وفق تفسير متبوعه القادياني ، ومنه ادعاه بنزول الوحي على غير
الانبياء عليهم السلام ، ويؤمن الاحمدية اللاهوريون بأن المسيح الموعود
والمهدي المعهود المرزا غلام أحمد القادياني هو منجى العالم والإيمان بمحمد
صلى الله عليه وسلم وغلام أحمد معا .

وقد وجد الباحثون والمؤرخون وجوه لقاء واسعة ومتعددة بين البهائية
والقاديانية ، فقد ظهرت الدعويان في قرن واحد ، أما البهائي فقد عرف
نفسه بأنه الممثل الحقيقي للأنبياء السابقين ، وأنه تجتمع فيه كل الرسائل
الإلهية ، وتلتقي فيه الديانات جميعاً وهو لا يعتبر الرسالة المحمدية آخر
الرسالات ويعتقد بالحلول ، ويقول إن اليوم الآخر والجنة والنار ليست
إلا رموزاً للحياة الروحية .

وقد تبين أن البهائية هي ربيبة الصهيونية ، وهي التي احتضنتها
وأقامت مراكزها في جبل الكرمل في حيفا في فلسطين ، وفي إسرائيل
(٥ أغسطس ١٩٦٨) عقد المؤتمر البهائي العالمي ، حضره ٢٢٥ شخص
أختيروا من ٨١ جمعية وطنية تابعة للعقيدة البهائية في القارات الخمس ، وأعلن
المؤتمرون أنهم يدعون إلى وحدة الجنس البشري وإلى السلام العالمي .

ويلتقي ما تزوج له البهائية مع ما تزوج له المنظمات الماسونية ، فهم جميعاً
يستهدفون تقويض الدين من في نفوس الناس ، ومحو آثاره في المجتمع
البشري كله .

وتعلن البهائية ما تعلنه الماسونية من الحديث عن سحق العدو الأزلي

الدين ، مع إزالة رجاله ، وعدم التردد في شن الحرب على كافة الأديان لأنها في دعوات العدو الحقيقي للبشرية ، ولأنها سبب التطاحن بين الأفراد والأمم عبر التاريخ ، ويزيد البهائيون على الماسون في أنهم أنشأوا ديناً جديداً يشتركون به وهو مزيج عجيب من العقائد السماوية والفكر البشري كحل وسط للصراع بين أهل الأديان ، ففي البهائية آيات من القرآن ونصوص من التوراة ، وفقرات من الإنجيل ، وأقتباسات من البوذية والكنفوشوسية .

وقد تبين أن اليهودية العالمية وراء هذه الدعوى الزائفة .

(٥)

الروحية الحديثة

ومن الدعوات الجديدة التي جددت الفكر الباطني والوطني القديم دعوة الروحية الحديثة التي تتمثل في ذلك التيار الذي يغير عالم الإسلام بالجمعيات الروحانية ، وما يقع ذلك من مؤلفات وكتابات تحاول إقرار هذا المعنى في النفوس .

ولقد بدأت دراسات الروحانية في الغرب على يد جماعات ظانت أنها تستطيع أن تعارض المذهب المادى وتكشف مفسده ، ولكن قوى الصهيونية العالمية استطاعت أن تسطر على هذه الجماعات وتوجهها وجهة أخرى ، أرادت بها هدم المجتمعات وتصويرها على أنها دين جديد ينشر الفوضى والتشكيك في كل المقررات الدينية والخلاقية ، وبذلك تصبح شعبة من الدعوات المريية التي تأخذ الناس من كل جانب والتي تلبس مختلف الأثواب وتخفي حقيقة أنها تحت شتى الأسماء ، وأبرز ما يكشف فساد مذهب الروحانية الحديثة إنما تقيم تعاليمها على مفاهيم وحيدة الوجوه وتتناقض الأرواح وخلود الحياة فلا فناء للدنيا ، وإنه ليس هناك يوم للبعث

والحساب العام والعبادات المقررة لا وزن لها عندهم ، وكذلك إنكار حق الله للكون ومحاولة الترويج لقدم العالم وإنكار نهاية الخليفة وهي بذلك شبيهة بالبهائية الحديثة والدهرية القديمة ، والمعروف أن فكرة تناسخ الأرواح وخلود الدنيا وإنكار الجزاء هي نفس مبادئ الماسونية مصوغة في أسلوب حديد ، وتقوم الروحية الحديثة على معاداة الأديان وخاصة الإسلام ، وتكشف في كثير من إيماءاتها عن صلتها باليهودية التلودية ، ولذلك فإن دعاة الروحية يهاجمون رجال الدين عامة كدخل إلى مهاجمة الأديان نفسها ، ويركزون على السخرية منهم واتهامهم بالتقصير والتأخر والجمود إلى غير ذلك مما يراد للعصاة بالدين نفسه فضلا عن إنكار علماء الدين لما يدعونه من اتصال بالأرواح أو ما يسمونه بالعلاج الروحي وهم في نفس الوقت يمجدون الوثنية والنحل القديمة ويعلمون من شأن الفرعونية ويتخذون من أسمائها رموزاً لهم ولحقائهم - وهم يشيبدون ببعض الأرواح الفرعونية مثل روح (رع آمون رع) و (هيمبوت) ويطلقون اسم جمعية الأهرام على محفلهم وبركوز على الآثار والكشف عنها ويولون هذه الكشوف عناية كبيرة .

كذلك فإن الروحية الحديثة تركز على هدم الأخلاق ونفي الاختيار والقول بالجبر ، وهم في دراساتهم الروحية يتخذون نفس الأسلوب الذي اتخذته الدراسات النفسية في تبرير الجريمة والاعتذار عن المجرم ووصفه بأنه مريض ومحاولة إرجاع دوافعه إلى عقد نفسية .

ومن أخطر دعواتهم وأكذبها قولهم إن الجنة والنار فكرة عقلية أو حالة نفسية ، وإن الناس على اختلاف أديانهم وعلى اختلاف فطرتهم يعيشون فيها وراء الموت حياة هي نفس حياتهم على الأرض ، وإن فرص التكفير عن الذنوب لا ينقطع بموتهم وهم بذلك يهدمون أكبر رادع (١٧٢ - المؤامرة على الإسلام)

للناس عن الظلم والفساد وهم يدعون أن القيامة هي قيامة آدم الجديد الذي يقوم على وجه الأرض في عالم لا يحكمه إلا السلام ونسوده الروحية .

وهكذا نجد الروحية الحديثة صورة أخرى من الماسونية والبهائية والقاديانية فهي تقوم على رموز وأسرار ولها درجات ولم تنفصاً للأنسية . ولكن أنشئت لأهداف خاصة . ويقول علماء الروحية أن الإنسان خالد على الأرض وإن الوحي لم ينقطع ب وفاة محمد وإن الأنبياء ليسوا إلا وسطاء وإن العالم يتنهي الآن للقرآن الجديد الذي تأتي به الأرواح لتنفذ العالم من حماة الصراع والشروع .

وهم يمدون لنبي جديد يطلقون عليه اسم (سافر برش) وهو الأسماء اليهودية ولا ريب أن الدعوة إلى أن الروحية وحدها هي قوام الفكر والحياة ليست إلا دعوة مماثلة للمادية التي ترى أنها وحدها قوام الفكر والحياة والروحية بذلك إنما تمثل معارضة للإسلام : دين الحق الجامع المتكامل بين الروح والمادة ، وهكذا نجد أن اليهودية العالمية تسيطر اليوم على الدعوتين المادية والروحية وكلاهما دعوة باطلة ويبقى الإسلام متميزاً بنظامه ودعوته إلى الإيمان بالله وبجميع ما تنشده الروحية من مقاومة الإلحاد والمادية .

ومن أكبر أخطاء الروحية الحديثة قولها أن العلم الروحي قد أصبح علماً تجريئياً لا لبس فيه ولا غموض وإن التواصل بين الأحياء والموتى لا شك فيه ، ولا ريب أن الروح بعد الموت تدخل في عالم آخر ومن الزيف أن يقال إنها بما يمكن الاتصال به أو الحديث إليه .

وتلتقي الروحية الحديثة مع البهائية في دعواها بالنبوة الجديدة والاتفاق الجديدة ولا ريب أن لليهودية العالمية تمهد بذلك لمخططاتها الذي كشفت عنه بروتوكولات صهيون وتتخذ من هذه الدعوات منافذ ونزوات إلى هذا المخطط .

ويشير الأستاذ عبده الراجحي في كتابه الشخصية الإسرائيلية إلى هذا المعنى فيقول إن الجمعيات الروحية ذات صلة بالتخطيط اليهودي أكثر من صلتها بتحضير الأرواح وإن هذه الجماعات المنتشرة في مصر وغيرها إنما تنفق في أعمالها التلودية الخطيرة وإن هذه الجمعيات لم تنشأ للتسلية ولكنها أنشئت لأهداف خاصة ولها نشراتها وكتبها ومجالسها .

ويقول : إن الروحية الحديثة مخطط لإسرائيل واضح الهدف والأسلوب والهدف مثل الماسونية تماماً ، وهي انتزاع الشخص من دينه ومن قوميته وصبه في قالب جديد من العالمية أو الكونية ، وهي تستخدم لذلك مختلف الوسائل حتى أنها تستخدم الدين في هدم الدين ، ويقول علماء الروحية : إن الإنسان خالد على الأرض ، وإن الوحي لم ينقطع ب وفاة محمد وإن الأنبياء لبسوا إلا وسطاء ، وإن العالم بهذه اليوم للقرآن الجديد الذي تأتي به الأرواح وللروحيين الآن قائد هو شخص هندي ذو صفات تجدد مرسوماً في قاعاتهم ، واسمه سلفر بيرش ، وهو عتدم آدم الجديد الذي سيكون خليفة الله في الأرض ، وهم يقولون الآيات القرآنية تأويلات عجيباً توصلنا إلى منجهم ، وهم ينكرون القسيامة على ما يفهمها الفقهاء لأنهم يعتقدون أن الأرض خالدة ، وإن الإنسان خالد فيها ، وتتفق هذه المفاهيم مع التلودية التي تقوم عليها الصهيونية ، ولقد كان من أخطر الدعاة إلى ذلك ، فهم أبو الخير وعبد الجليل راضى ، ومن قبل مجلة المقنطف ، ولقد أغرت المسائل الروحية بعض الكتاب المسلمين ، فظنوا أنها قوة جديدة في مواجهة الفكر المادى ، ولكن تبين من بعد أن اليهودية العالمية قد احتوت هذه الدعوة وحولتها إلى غاية لها ، ولنفس الغاية التي عمات لها الماسونية لنحطيم الدين جرياً وراء محاولتهم التي تقول إنه لا بد أن يتحطم الدين بيد

أتباعه فذلك هو السبيل أمام الصهيونية لكي تتركب اكثاف العالم من جديد
وهكذا نجد أن المؤامرة على الإسلام تتجدد في المجالين : مجال الفكر
ومجال الحركة ، ونجد أن الفكر البشري اليوم كله حافل بمطامع الصهيونية
والماركسية وإنه يستهدف احتواء الفكر الإسلامي ، وإن هناك محاولة
جديدة تعمل على تهديد المؤامرة القديمة التي واجهها المسلمون في صدر
الإسلام وحطموها تماماً بإعلان مفهوم الأصيل ، واليوم تواجه حركة
البقعة الإسلامية المحاولة الجديدة وتكشف زيفها وتفسد أهوائها وتزيف
شبهاتها وصولاً إلى القضاء عليها .

الباب الثاني

الأصالة الإسلامية

في مواجهة المؤامرة على الإسلام

أولا : من الفرق إلى السنة الجامعة

(١)

منذ اليوم الأول لظهور حركة (المؤامرة على الإسلام) في القرن الثاني للهجرة فقد قامت المواجهة الصادقة والمعارضة العريضة ، على يد السنة والجماعة فردت فسادها وكشفت زيفها ونقضت شبهاتها وأبانت بالدليل أنها حركة معادية للإسلام ناشئة من دين أجنبي وأنها حركة خارجية أصلا تلتبس في محيط المجتمع الإسلامي خيوطاً لتدمير القيم الإسلامية كقاعدة لتدمير النظام الإسلامي نفسه ويثبت أنها وثيقة الصلة بأعداء الإسلام وقد تبين أن هناك معاهدات وعقود بين دولة الروم وهذه القوى فضلاً عن تأمر القوى المجوسية الفارسية القديمة وأكد الباحثون المسلمون أن الذين وضعوا أساس الشعوبية والباطنية كانوا من أولاد المجوس وكانوا هائلين إلى دين أسلافهم متطلعين إلى هدم الإسلام عن طريق فكره بعد أن عجزوا عن هدمه عن طريق دولته .

أولاً : أنكرت السنة : التشبيه والتعطيل وكشفت عن أن المشبهة وثنية والمعطلين ملحدين وتعقبت في نفس الوقت الملحدين والوثنيين وكشفت عنهم .

ثانياً : حاربت السنة إخضاع الإسلام للجدل العقلي ودعت إلى التماس المعين الأول والمنبع الأصيل (القرآن والسنة) .

ثالثاً : كشفت السنة عن فساد إلهيات أرسطو لأن مقدماتها ونتائجها معارضة أشد المعارضة لمفهوم التوحيد الخالص وأبانت أن العقائد مرجعها إلى الكتاب والسنة .

رابعاً : استوعبت السنة كل المطامح والآمال التي كانت الفرق المختلفة تنادى بها لجعلت محبة أهل البيت جزءاً من عقيدتها وجعلت العقلانية التي رفعت لوازمها المعتزلة شطر المعرفة وجعلت الوجدانية التي حمل لوازمها التصوف شطر المعرفة الأخرى وجعلت اختبار الحاكم على أساس الشورى وليس على أساس النسب أساساً من أسس مفهومها .

خامساً : قاومت السنة الاتجاه الزائف نحو القول بوحدانية الوجود أو الحلول أو الاتحاد كما قاومت انحرافات المعتزلة والفلاسفة والصوفية فالتفت كل هذه القطاعات في أصل جامع .

سادساً : كشفت السنة عن أن النظر الفلسفي لا يمكن أن يكون أساساً للفكر الإسلامي ذلك أن هناك مجموعة من الحقائق الأولية لا يمكن الوصول إليها ولا عن طريق الوحي والنسبة ، وبينت أن الفلسفة ليست قرينة الوحي ولا مناظرة له فهي لا تزيد عن كونها استخداماً للعقل وتفكيراً منظماً يمكن أن يستخدمه الناس في الدين أو في أي موضوع آخر ، وهي في أحسن صورها تعمل على أن تعمم الفهم من الخطأ في الاستنباط والبرهان .

سابعاً : رأت السنة أن القرآن كلام الله القديم ولكن التعبير عنه بالكلمات والحروف قد خلق ووجد في حدود الزمان ولكنه من عند الله وأن في لغة القرآن العربية أحد الأدلة على أصله السماوي .

ثامناً : أصبحت السنة هي البوثة التي انصهرت فيها كل الثقافات فهي بمثابة النهر الكبير والمذاهب والفرق روافد ، وخير ما هذه الروافد فقد انصهرت في مفهوم جامع الأصالة الإسلامية وصب في النهر الكبير وكان أبلغ ما وصلت إليه هذه الغاية هو قول الإمام الغزالي أن أساليب القرآن أرجح في سلامة العقيدة

والتزام صفاء القطرة من جملة أماليب اليوناني والمثلكمين ، ومن ثم ظهرت
السنة المعتزلة والفلاسفة والمثلكمين والشيعة والصوفية في بوتقتها فأصبح
العقل في خدمة الوحي يسير في ضوئه ، وأباح فقهاء المسلمين قدراً كبيراً
من التأويل والإختلاف في الفروع دون أن يتجاوزوا مبدأ الولاء للجماعة
ودافعوا عن الوحدة الجامعة والنظرة المتكاملة في وجه الانحرافات الهدامة
ودعموا هذه الأسس بمبدأ ينص على أنه إذا اجتمع الفقهاء المجتهدون على
مسألة كبرى من مسائل العقيدة والفقه فإن اجتماعهم حاسم قاطع أما المسائل
الصغرى فلا مانع من الاختلاف حولها وتميزت السنة بأنها توجت منذ
البداية إلى إبراز العناصر الجامعة لا إلى إبراز دور الفرد ، حتى الأفراد
الذين قاموا بدور بارز كانوا بمثابة ممثلين للنظرة الجامعة لا مفكرين
مبتدعين .

تاسعا : استطاعت السنة أن تتمثل في أعمال ثلاث رجال كبار : العلافى
والأشعرى وابن حنبل فقد قاوم هؤلاء أخطار المؤامرة على الإسلام بمثلة
في الهلونية الزاحفة وعمل في هذا المحيط كثيرون من العلماء الأبرار على نحو
ممكن من استئصال الباطنية من حيث أنها قوة معنوية ، وعندما تعطلت
مفاهيم الباطنية تحت سنانك السنة سقطت كقوة سياسية .

عاشرا : كان لإحياء السنة وبناء معاهدها ومدارسها وتجديد عسكرها
في مواجهة الفكر الشعبي والباطنى وقيام جماعات التسليح الخلقى وإيقاظ
روح الجهاد عاملا هاما في القضاء على القوى الخارجة كالحملات الصليبية
والقوى الداخلية كالباطنية والحشاشين . وقد استطاع الامام الغزالى أن
يزيل الحواجز بين الفقه ومفهوم التربية الاسلامية والأخلاق (التصوف
والزهد) وذلك بالكشف عن أن الاسلام : عقيدة وشريعة وأخلاقا
وبذلك سقط ذلك الخلاف المصطنع بين الفقهاء والصوفية والذي أغرت به
مفاهيم الهلونية .

حادى عشر : استطاع مفهوم السنة : وهو مفهوم الاصلية الإسلامية الجامع أن يقضى على القلو في كل تلك الفرق وبذلك تعين أن السنة ليست مذهبا معينا بين المذاهب ، وليس طرفا من الاطراف : يقول ابن القيم الجوزية : وأهل السنة لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء بل هم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه وهم مع هؤلاء ما أصابوا فيه فكل حق مع طائفة من الطوائف فهم يوافقونهم فيه وهم براء من باطلهم فذهبهم حق جميع الطوائف بعضها إلى بعض ، القول به ونصره ومولاه أهله في ذلك الوجه ونفى باطل كل طائفة من الطوائف وكسره ومعاداة أهله من هذا الوجه فهم حكم بين الطوائف لا يعاملون بدعة يبدعون ولا يرون باطلا يباطل ولا يجمعون شتان قوم الا يعدلوا فيهم بل يقولون فيهم الحق ويحكمون في مقالاتهم بالعدل ،

ومن هنا تسقط تلك الدعاوى الباطلة التي يدعيها أمثال زكي نجيب محمود وغيره من أن السنة فرقة أو طائفة بينما السنة هي مدرسة الاصلية الإسلامية التي تجمع خير ما في الفرق وتحكم بينها وترفع عن الخلاف حول الأفراد والاشخاص وتقرر أن هذا الخلاف هو الذي أفسد المفاهيم الإسلامية .

ثاني عشر : تبين بما لا يدع مجالا للشك أن الاجتهاد بالرأى كان بداية النظر العقلي في الفكر الإسلامي وقد نما وتزعرع في رعاية القرآن ونفحاته المذاهب الفقهية وأينع في جنباته علم أصول الفقه ونبت في تربته التصوف وذلك قبل أن تفعل الفلسفة اليونانية فعلمها فيها وجهت به المسلمين إلى البحث فيما وراء الطبيعة والإلهيات ، وبذلك لم يكن هناك أى تأثير اجنبى في تكوين الفقه الذى هو وليد القرآن وآثار الصحابة والجيلين الاولين من التابعين وكان المنطلق لذلك كله هو أن الرسول اذن لولائه في الامصار أن يجتهدوا برأيهم حين لا يجدون نصا وان ذلك فقد كان طليعيا أن يقاوم أهل السنة بالذات إلهيات أرسطو لأنها في مقدماتها ونتائجها كانت تعتبر متعارضة أشد التعارض مع مقتضيات عقائد الإسلام .

وقد انفس الفسّرآن إلى الإقناع أساليب مختلفة منها الأسلوب العقلي
وأسلوب الوجدان وأسلوب العبرة التاريخية فلم يؤلف براهينه في مقدمات
وقضايا وتناجح كالفلسفة ومن هنا فان الرأي والقياس أمور عرفها المسلمون
منذ عهد النبي وقبل الإتصال بالفلسفة اليونانية .

ثالث عشر : أن السلف هم أول من رد على الجهمية ومذهبهم في التعميل
وإنكار الصفات وفي القول بخلق القرآن فقد تصدى لذلك مالك وسفيان
بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم وبينوا فساد ذلك كله وإنحرافه عن
مفهوم الكتاب والسنة وكانت مقالة الجهمية هي أول فتنة التأويل التي أدت
إلى تعميل النصوص والتجاوز بها عن معانيها التي وضعت لها لغة وشرحا إلى
معاني وآراء مدخولة تحملها الباطنية والغنوصية وغيرها من النحل التي كانت
تري إلى هدم الشريعة وإضلال معتقديها وبليلة ما استقر في قلوبهم وامتزج
بنفوسهم من عقائد واضحة لا لبس فيها ولا شائبة من غموض .

وكان أبلغ من رد على هذه الفرق الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة
وناصر الملة . رد على الجهمية والزنادقة الذين يشككون الناس في القرآن
ويأخذون آيات معينة مقطوعة عن سياقها وعن جملة القرآن ويدعون أنها
متناقضة مع آيات أخرى ، والذين أخذوا بعض المتشابه من القرآن وضلوا
به وأضلوا .

وقد اعتمد أحمد بن حنبل في (تفسير القرآن بالقرآن) على أصول اللغة
العربية ومواضعها وعلى لسان العرب وقانونه في مخاطبتهم ومعاورتهم ،
تلك اللغة التي لم يكن هؤلاء الزنادقة على معرفة بها ولا على اطلاع على
أسرارها اطلاع بن حنبل عليها وعلى كل ما يتصل بها من مواصفات الشرع
والفاظه واستعمالاتها وأعلن ابن حنبل أن القرآن ليس قديما ولا حادثا
وأنه كلام الله لا أقول مخلوقا أو غير مخلوق .

رابع عشر : هاجم الإمام بن حنبل فتنة تعطيل الصفات وتعطيل التكليف والشرع إزاء مؤامرة الجهمية في القول بأن الإنسان ليس له اختيار أو إرادة أو كسب وقد جعلوا الإنسان بمثابة حمال أو شجرة .

خامس عشر : قرر ابن نيمية أنه لا سبيل إلى معرفة العقيدة والأحكام وكل ما يتصل بها إجمالاً وتعطيلاً واعتقاداً وإستدلالاً إلا من القرآن والسنة الميمنة له والنير في مسارهما فإ يقرره القرآن وتشرحه السنة مقبول لا يصح رده ورده خلع للشرعة فليس للعقل سلطان في تأويل القرآن وتفسيره وتخريجهم إلا بالقدر الذي تؤدي إليه العبارات وإذا كان للعقل بعد ذلك سلطان فهو في التصديق والإذعان وبيان تقريب المعقول من المعقول وعدم المنافرة بينهما ، فالعقل يكون شاهداً ولا يكون حاكماً ويكون مقرراً مؤيداً ولا يكون ناقضاً ولا رافضياً ، ويكون موضعاً لما اشتمل عليه القرآن من الأدلة والعقل وراء النقل (أى الوحى) يعززه ويقويه ولا يستقل بالاستدلال بل يقوم على تقريب معانى النصوص .

سادس عشر : يقرر ابن نيمية أن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء وأنه لا شيء في الكون بغير إرادته وأنه لا ينافعه أحد من خلقه وأن الله فاعل حقيقة وله مشيئة وإرادة كاملة تجعله قادراً عما يفعل وأن الله تعالى ييسر فعل الخير ويرضاه ويحببه ولا ييسر فعل الشر ولا يحبه وأن العبد يفعل ما يشاء بقدرته وإرادته (لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله) .

سابع عشر : يقرر الشافعى : أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره وإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها .

وأكدت الأدلة على كذب الادعاء بأن البلاغة العربية تأثرت بمخضبة أرسطو وشعره في نشأتها وتطورها ذلك أن العرب عرفوا البلاغة وفنونها

قبل أن يترجم كتاب أرسطو ولبس في كتب البلاغة العربية ما يدل دلالة واضحة على هذا التأثير أو النقل الصريح والدليل على ذلك فشل منهج قدامه في نقد الشعر الذي اعتمد فيه على منهج أرسطو فقد أضنى عليه جفافاً لا يـلـه الذوق العربي السليم ووضع حدوداً ورسوماً لا تلائم الشعر العربي .

ثامن عشر : كشف رجال الأصالة الإسلامية (السنة) أن النزعة العقلية التي دافع عنها المعتزلة كاذبة تخنق العقيدة وأنها حورتها من يسرها وبساطتها إلى مذهب فلسفي معقد بعيد عن روح الإسلام وكانت أخطاء المعتزلة : إخضاع العقل للوحي ، وإعلاء العقل على الوحي .

وكانت حجة أهل السنة أن العقل واحداً في الناس وأن أهل الكلام ليسوا على رأي واحد في المسائل التي يبحثونها وعدم اتفاق المتكلمين دليل على عجز العقل وقصوره . والعقل ليس حكماً فيما وراء الطبيعة ولا على ما جاء في التشريع ذلك أن العقل عاجز عن إدراك ما وراء الحس وصاحب الشريعة الحق تبارك وتعالى أدري بمصالح الناس من أنفسهم .

ويقول ابن تيمية : إذا كان للعقل سلطان في التصديق والإذعان ويان تقريب المنقول من المعقول وعدم المنافرة بينهما فالعقل يكون شاهداً ولا يكون حاكماً ويكون مقررأ مؤيداً ولا يكون ناقضاً ولا رافضاً .

تاسع عشر : وصل كثير من مفكري الإسلام إلى نفس النتيجة التي وصل إليها الفزالي : حتى قال الرازي في آخر أيامه : لقد اختيرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فأرأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التي وجدت في القرآن لأنه يسعى إلى تسليم العظمة والجلال لله تبارك وتعالى ويمنع من التعمق عن إبراز المعارضات والمناقضات وما ذاك إلا للعلم بأن المعقول البشرية تتلشى في تلك المضائق العميقة والمناهج الخفية .

عشرون : قرار ابن تيمية أن العقائد لا تؤخذ إلا من النصوص وأن السلفيون يؤمنون بالنص لأنه موحى إلى النبي وأن الأساليب العقلية المنطقية مستحدثة في الإسلام ولم تكن معروفة قطعاً عن الصحابة والتابعين فإذا قلنا أنها ضرورية لفهم العقائد فؤدى ذلك أن هؤلاء السلف ما كانوا يفهمون العقائد على وجهها وأن الطريق الصحيح أن تؤخذ العقيدة من القرآن وفق مفهومها في عهد الصحابة والتابعين وأن يتقيد الناس بأدلة القرآن .

* * *

ولقد كان لهذا الفهم أثره الواضح في امتصاص الباطنية والشعوذية وتحطيم مقاديرها والقضاء على المؤامرة وكان ذلك منطلقاً إلى ظهور حركة الجهاد الضخمة الواسعة التي حررت العالم الإسلامى من التتار والصليبيين وحطمت بقايا القلاع الباطنية وجيوب الخشاشين .

ولن نستطيع أن نفعل اليوم في مواجهة المؤامرة المتجددة (الصهيونية الشيوعية الاستعمارية) إلا ما فعله المسلمون على النحو الذى قرره ابن تيمية والشافعى والأشعرى والغزالى فى إسقاط الهلينية والباطنية والشعوذية .

ثانياً : من التبعية إلى الأصالة

من سنن الفكر الإسلامى وقانونه القائم الذى لا يتحول ولا يتغير : قدرته على تصحيح مساره عندما ينحرف ، وانبعثت حركة البقطة من داخله دون عامل خارجى ، وتوهج ضوء الأصالة فيه فيقضى على كل محاولات التزييف فى حالة الأزيمة التى تفرض فيها القوى الغازية « التبعية » لها بما يمكن الفكر الإسلامى من كسر هذا القيد والانطلاق بقوته الذاتية نحو المنابع خارجاً من دائرة الأئمية والاحتواء التى تفرض عليه .

وقد كان هذا جلياً فى أزمات الاعتزال والفلسفة والتصرف الفلسفى وفى العصر الحديث نجد هذه الصورة واضحة تماماً .

نجد المدرسة الحديثة التى حملت لواء الدعوة إلى الفكر البشرى مثلاً فى الفكر الغربى تهزم حثيثاً وتفسح من مواقعها فى فرض التبعية إلى معادلة جديدة بعد أن اكتشفت عجزها عن إخضاع الفكر الإسلامى لمؤامرة التغريب والغزو الثقافى وتعلن أنها كانت لا ترى أبعاد الأمور ، أو أنه قد غرر بها فى كلمات غريبة براقة كالحرية والإخاء والمساواة ، ولم تلبث الأيام أن أثبتت فساد ذلك وزيفه ، ومن ثم نرى هؤلاء الذين حملوا لواء الدعوة إلى الفكر الغربى وإلى الفرعونية ، والباطنية والشعوبية والإقليمية (هيكلم ومنصور فهمى والعقاد وتوفيق الحكيم وزكى مبارك وإسماعيل مظهر) يؤبون مرة أخرى إلى التراث الإسلامى يستلهمونه ويرون أنه وحده القادر على العطاء ، والمصدر الأصيل لمذاهب الجسور بين القديم والجديد .

وبالرغم من خضوع هؤلاء الكتاب لمناهج التحليل الغربى وهى مناهج لاتصلح للتطبيق على الفكر الإسلامى والتراث الإسلامى ، وأصح منها تلك المناهج التى طبقها مصطفى صادق الرافعى وجاد المولى وحسن البنا والمودودى

والحسن الذوى إلا أن هذا يؤكد صدق ذلك القانون الثابت الذى يحسب
الفكر الإسلامى من أى إضافات غير أصيلة إليه مهما بلغ من عتف التحدى
ومهما حاول الاستعمار والتفريب (إغراق) الفكر الإسلامى فى دوامة عاصفة
من هذه المذاهب والدعوات والنظريات فإن الفكر الإسلامى يأخذ دائماً
حاجته وما يراه صالحاً لتصحيح مساره ثم يرفض الباقى ويتخلص منه .

وقد فشلت التجربة إزاء الفكر الغربى الليرالى وتجاه الفكر الماركسى
فبعد أكثر من عشرين عاماً من تجربة الاحتواء الماركسى ، وارتفاع مده
حتى ظن أنه قد أغرق الفكر الإسلامى، نجد لفيماً من هؤلاء الذين كانوا
يتصدرون الدعوة إلى التفسير المادى للتاريخ ونظريات الماركسية يعودون
ليصححوا موقفهم ويلتمسوا مفهوم الإسلام .

وفى كلا المرحلتين نجد أن الفكر الإسلامى هو الحاكم المسيطر والمصدر
الأصيل الذى لا نجد مجتمعات المسلمين والعرب سبيلاً غيره وقد مروا
بالتجربة من ديموقراطية الغرب إلى ماركسية الشرق وتبين فشل التجربتين
بميت لم يعد أمام العرب والمسلمين إلا منهجاً واحداً هو منهجهم
الأصيل .

كذلك نجد أن المحاولات الجديدة التى قام بها طه حسين وأحمد أمين
وجيد الرحمن بدوى وزكى نجيب محمود وغيرهم فى نطاق المؤامرة على الإسلام
ياحياء الفكر الوثنى والفلسفى والمعتزلى من ركام الفكر البشرى القديم هى
محاولات فاشلة لن تحقق شيئاً وأن مفهوم الأصالة الإسلامية قادر على تحطيمها
وكشف زيفها وكانت الانجازات التى حققها العاملون فى حقل التراث
الإسلامى والتى حمل لواءها مصطفى عبد الرزاق وسارها قدماً الدشار وزيان
والببى وغيرهما قد حطمت تلك المحاولة التى أرادت إعادة فرض مفهوم الفلسفة
الالهية والكلام على الفكر الإسلامى الحديث ، وكشفت عن أن الفكر

اليوناني لم يكن سليم المصادر وأن اليونان احتقرت التجريب وأن المسلمون هم
للذين قدموا المنهج التجريبي الذي قامت عليه الحضارة الحديثة وأن المسلمون
رفضوا منطق أرسطو منذ اليوم الأول وأن مفهوم العقلانية الذي قدمه
المتزلة لم يكن سليماً ولم يجد تقبلاً من المسلمين لأنه يتعارض مع مفهوم
الاسلام الذي قدمه القرآن الكريم والجامع للقلب والعقل وحبرة التاريخ
كأسلوب للمعرفة .

كما تبين أن الإسلام فصل تماماً بين مفهومه الأصيل القائم على التوحيد
وبين ركام الفكر البشري القديم الذي يقوم على الوثنية والتعدد والمادية
والإباحية .

ولم يعد في الإمكان إعادة الربط بين هذا الركام القديم وبين المفهوم
الأصيل، كذلك فقد كشفت حركة اليقظة الإسلامية عن محاذير الإسرائيليات
الancient and the modern التي تسربت إلى التفسير وإلى التاريخ عن طريق بعض
الأساطير والخرافات ، والمسلمون الذين يملكون النص الموثق الذي لا يأتيه
الباطن من بين يديه ولا من خلفه ، يجدون المنطلق الصحيح لفكرهم ،
فإنهم يعودون إليه بآتمسون الطريق المستقيم وكلما أزمتهم الأزمات أو
أحاطت بهم المؤامرات .

كذلك كشفت حركة اليقظة الإسلامية فساد الفكر الغنوصي واليهاني
على السواء ، وما دسسته حركة التجريب على تاريخ العرب والإسلام من
مسموم ، يراد بها إعادة إنارة الخلاقات القديمة التي انتهت من قديم ولم يعد
لها مكان .

وتبين أن محاولة الحديث عن المتزلة وفكرهم أو الفلاسفة ودعواهم
أو التصوف الفلسفي وأعضاها منفصلاً عن سباقه التاريخي هو من المؤامرات

التي براد بها رسم صورة زائفة كنطلق الفكر الإسلامى ، ذلك لأن هذه الفرق قد ظهرت إبان المحاربة التي قرعتها حركة الترجمة . وإن كل هذه الفرق قد انصهرت في مفهوم الإسلام الجامع ، فقد استصفاها الفكر الإسلامى وقبل عناصر القوة والحياة منها فيما يتفق مع مفهوم التوحيد ورفض الباقى وكشف زيفه .

وقد كشفت حركة البقطة الإسلامية اليوم زيف كل محاولات فرض الأساطير أو الوثنيات أو ما يحصل بها يسمونه أحكام التجوم الذى كان يمزى إلى اليونان والبابليين وأبانوا رأى الإسلام الذى أبطل صناعة التنجيم وكشف فسادها .

وزيف المفكرون المسلمون الدعوة إلى إحياء وحدة الوجود والحلول والاتحاد وخيرها من الوثنيات القديمة مجمدة في ابن عربى وابن الفارض والحلاج ، وكشفوا فساد وجهة هذه الشخصيات ونهايتها مع خصوم الإسلام لهدم الدعوة والأصالة .

وقد تبين من وراء المؤامرة على الإسلام بمثلة في إحياء الفكر الباطنى والصهيونى الفلسفى والفلسفى والمعتزلى محاولة جديدة لإذابة الإسلام في الأدیان والقضاء على ذاتية الإسلام ونفوذه وطابعه الخاص الذى تميز به بوصفه آخر رسالات السماء وما تحقق له من احتلاك كتابه الموثق وسننه الصحيحة مما لا يمكنه خيره .

كذلك فقد كان الدفاع عن الفكر الباطنى هو محاولة لإسقاط الحدود الإسلامية والالتزام الأخلاقى وما يتصل بها من المسئولية الفردية والجزاء الأخرى لفتح الطريق أمام الأجيال للأهول والشهوات .

وما تزال المعركة بين الذين يفرحون المؤامرة على الإسلام ، وبين

حركة اليقظة قائمة وعمدة ، ذلك لأن أهل الباطل لا يستسلمون من قريب ،
وعلى المشتغلين المسلمين أن يكونوا على يقظة دائمة إزاء هذه المؤامرة
المستمرة ، وليس هناك من سبيل إلى المقاومة إلا بالناس مفهوم القرآن
والتمسك به والكشف عن صفاء التعاليم الإسلامية في بساطتها وديمرها وقرانيتها
الأصيلة بعيدة عن الشروح والخلافات المذهبية التي تفسدها ، فعلى الجماعة
الإسلامية أن تعود إلى وحدة الفكر الذي يحققها لها القرآن الكريم
ولا ريب أن فكرة الناس المنابع الأصيلة هو من الأهداف التي تعمل
حركة التغريب والغزو الثقافي لعصف المسلمين عنها إلى تلك الخلافات
والمشاجمات وقد دعانا القرآن إلى التمسك بالآيات المحكمات .

المؤامرة على الاسلام

ان من اخطر التحديات التي تواجه الاسلام في العصر الحديث : ابتعاد الفكر الوثني والغنوصي القديم الذي كان معروفا قبل ظهور الاسلام في البيئات الشرقية والغربية على السواء والذي تشكل في احياء الفكر المعتزلي والفكر الصوفي الفلسفي والفكر الفاسفي المادى والفكر الشعوبى والباطنى .

تجددت هذه الأفكار مرة أخرى في عصرنا الحديث ووضعت في صور براقة لتخدع شباب الاسلام وتفتح لهم طريقا الى التحلل والفساد والاباحية ولتطمح مقومات الاخلاق وضوابط القيم وحدود الله وقد ظهرت في ظل هذه الأفكار الوثنية الفاسدة القديمة المتجددة مؤامرات القاديانية والبهائية ومحاولة اعادة كتابة تاريخ الاسلام واحياء دعوات الزنج والقرامطة وأخوان الصفا ودعوات وحدة الوجود والحلول والاتحاد والاشراق كل ذلك تحت اسم تجديد الفكر العربى ومن هنا فقد كان من الضرورى مواجهة (المؤامرة على الاسلام) وكشف هذه السموم ودحض هذه التشبهات الزائفة وتصحيح المفاهيم وتحرير القيم الاسلامية انتقالا من الفرق الى السنة الجامعة وتحولا من التبعية الموافدة الى الاصلالة الاسلامية .